

وزارة الثقافة
الهيئة العامة السورية للكتاب

الشمس تشرق غداً

دراسات و مقالات

د. إسماعيل إسماعيل مروة

دراسات أدبية
١١

الشمس تشرق غداً...

د. إسماعيل إسماعيل مروة

الشمس تشرق غداً...

دراسات ومقالات

تقديم د. رياض عصمت

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٢ م

الشمس تشرق غداً ... : دراسات ومقالات / إسماعيل إسماعيل مروة؛ تقديم رياض عصمت .- دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٢م .- ٢٥٦ ص؛ ٢٤ سم.

(دراسات أدبية؛ ١١)

١ - ٨١٤ م ر و ش ٢ - العنوان ٣ - مروة
٤ - السلسلة

مكتبة الأسد

دراسات أدبية
«١١»

الأهداء

شام...

على رصيفك... على ساعديك... على كل فواصلك

أعيش عمري... وسأبقى حارساً منتظراً

إشارة صوت أو يد...

لعلي أصبح على بابك شاهداً لشروق شمس الغد..

إسماعيل

تقـديم

د رياض عصمت

نادراً ما أسعدني الحظ في الألفية الثالثة بقراءة كتابات نقدية تذكرني برواد النقد الكبار: العقاد، مندور، علي الراعي، جبرا إبراهيم جبرا، إحسان عباس وحنا عبود، وذلك على سبيل المثال لا الحصر. لكن كتابات الناقد السوري د. إسماعيل مروة تؤكد لي المرة تلو الأخرى أنه واحدٌ من ندرة نادرة من النقاد المعاصرين الذين يسيرون على النهج نفسه، طامحاً بعمق كتابته النقدية وسلاستها معاً إلى الخلود عن جدارة. ما السر الكامن وراء خلود بعض النقد، وليس سواه؟ قد يستنبط المرء أسباباً عديدة. قد يقول قائل: إنها الموضوعية، ويقول آخر: إنها النزاهة، ويقول ثالث: إنه العمق، ويقول رابع: إنه حسن التواصل والتوصيل. لكن أول وأهم سبب في اعتقادي هو "المحبة".

المشكلة أنه إذا أيقن ناقد أنه أستاذ يمتلك مفاتيح الحقيقة المطلقة دون جدال، وأن ذائقته الجمالية عن الآداب والفنون لا يمكن أن يرقى إليها أدنى شك، وأن مهمته تكمن في تفنيد الأعمال الإبداعية التي يتناولها وفضح هناتها للقراء، فإنه سرعان ما يحترق بنيران لهيبه التي ينفثها، فيسقط في هوة سحيقة ويطويه النسيان. أما الناقد الحقيقي فهو ذاك الذي يكتب انطباعاته بموضوعية، مستكشفاً دربه عبر ثنايا العمل الإبداعي بشعور ملؤه الدهشة والاحترام، يصحبه فضول الاكتشاف ولذه الاستمتاع، دون اتخاذ موقف مسبق

فكرياً كان أم فنياً. دافع النقد الجيد البناء والمفيد هو المحبة.. محبة الجمال.. محبة الإنسان.. محبة الإبداع بأوجهه المختلفة، التي ينعكس عليها النقد بأشعته فتتألق كما حين ينعكس الضوء على أسطح ماسة ثمينة.

ينتمي إسماعيل مروة إلى هذا الطراز في أسلوبه النقدي المشرق في كتابه "الشمس تشرق غداً"، لأن نقده يبشرنا بفجرٍ جديد. إننا نقرأ سطوره بمتعة، ونكتشف فيه ناقداً يكتب بكثير من المحبة، واضعاً نفسه في الجبهة ذاتها إلى جانب الأديب والفنان، محاولاً تفهم رؤاهما ما أمكن، ومتقبلاً لاختيار كلٍ مدرسته الفنية للتعبير عن أفكاره. إنه ناقد يضع صيده من الإبداع تحت المجهر، لكنه ليس ناقداً يطلق سهامه عشوائياً على مختلف الطرائد، معتقداً أن المجد لا يأتي إلا من خلال اصطياد الآخرين، كي يعلو فوق جثثهم. على العكس من ذلك، ينبع النقد عند إسماعيل مروة من تواضع واحترام لجهد الآخرين وعطاءاتهم. إنه ينطلق من إيمان عميق بدور النقد، وعهد شرف تجاه نبل الكلمة ومسؤولية حملها. باختصار، إسماعيل مروة صاحب قضية. إنه لا يتعالى ولا يؤستذ، بل يكتب بمحبة ليشيد جسوراً بين العمل الإبداعي وبين المتلقي، جسوراً تيسر العبور فوق أية هوة قد تفصل بينهما، وهذا واجب النقد المنصف السامي والنبيل في المقام الأول.

* * *

قبل أن تشرق الشمس

علمني أستاذ جليل في أول حياتي العلمية أن أهم ما أقوم به في حياتي هو القراءة، فالقراءة وحدها قادرة على صقل العقل والروح، وتقديم الأفضل، وقد شبه لي يومها القراءة بالجداول المنسابة المياه التي تتجدد باستمرار، وأنا إذ أذكر له هذا الفضل، فإنني أترحم على أستاذي الذي لا يبرح ذاكرتي (محمد رشدي الخياط)، فكم تعلمت منه وكم... بنصيحة من أستاذي بدأت القراءة المعمقة في أدب عميد الأدب الدكتور طه حسين، وتعلمت الكثير الكثير، وتواصلت مع الشاعر الكبير سليمان العيسى الذي كان صديقاً لأستاذي، وعلمني تذوق الأدب والشعر، وكان أول من أرشدني إلى حرية القراءة والفهم والتفسير، وعدم الانقياد لفهم مسبق... ولا يزال بين أوراقي خط أستاذي الذي نصحني ذات يوم (ماذا أقول وهل ينفع قولي في هذا الزمن الأغبر؟ قل كلمتك وامش، أدَّ واجبك على أتمّه ولو قصر الناس كلهم، فإن الإنسان لا يعدم لقمة عيش ولا مرقد رأس بعد الموت... وإن المبادئ تبقى بهارات الحياة...) لست أدري صاحب هذه المقولة، لكن أستاذي الراحل كتبها لي وعلمني العمل بها وما أزال....

لم أعد أترك كتاباً أعثر عليه دون أن أعرف ما فيه

أقرأ الكتب وأضع آرائي على الهوامش

وحين دلفت إلى عالم الإعلام وجدت الكثير من الفوائد على هوامش الكتب التي أقتنيها، رحت أجمع وأراجع الكتب، لأقدم قراءاتي، وبعض القضايا التي أثارتها هذه الكتب... ولكم كانت سعادتي غامرة عندما وقفت مع عميد الأدب الدكتور طه حسين لأسترجع خلاصة ما قرأت له ودرسته ولو بعد حين...

جاءت دراسات ومقالات الكتاب (الشمس تشرق غداً) مقسمة على فصول:

١ - نخبوية ومشكلة: تناول مجموعة دراسات فكرية بعضها من وحي ما عصف بسورية والمنطقة.

٢ - في دوحة الأدب وفي حضرته: مجموعة من الدراسات الفكرية والقراءات في كتب مهمة، والحديث عن شخصيات ذات أثر.

٣ - شام في قلب الأزمة: وهي قراءات ورؤى في الواقع الحاضر وما يجري في سورية.

٤ - شام وأمومة: وهي إضمامة من النصوص الإبداعية في شام والأم والوطن.

قمت بعملية غربلة وجمع للدراسات والمقالات وتصنيفها بما يخدم القارئ، ويقدم معلومة وفائدة له، وجعلتها أقرب ما يكون إلى الكشكول الذي يأخذ من كلّ علم بطرف ليكون ممتعاً ومفيداً في الوقت ذاته، وقد حرصت كل الحرص أن أبتعد عن الدراسات التخصصية لأنني أرى لها مجالاً آخر.

وبعـــد:

يجمع هذه الأوراق فكرة أظنها نبيلة وأريدها كذلك، وهي فكرة التفاؤل بأن الحياة تبدأ غداً، وبأن الشمس تشرق غداً.

أقدم شكري لكل أصدقائي الذين كانوا يتابعون هذه الأوراق، ويقدمون نصحهم وآراءهم دون أن يمنعهم عن ذلك ودّ أو حرج، فهم يرغبون بتقديم النصح والتقويم لمن يستمع دون أن يمتنع عن التغيير والتعديل...

على أعتاب شام، ورغبة بإرضائها، وطمعاً في وصلها كتبت الكثير مما كتبت فهل رضيت؟

أرجو ذلك.

إسماعيل مروة

شتاء ٢٠١٢ - شام

نخبوية ومشكلة

النخب الفكرية والاجتماعية من صفوة كل شيء إلى جماعات مصلحية

يعوّل كثيرون على النخب والوعي النخبوي في أثناء التقويم المجتمعي والأزمات التي تعصف بالمجتمع، أي مجتمع، وعندما يتنادى الجميع من أجل أمر ما تكون النخب المثقفة سياسياً واجتماعياً وثقافياً واقتصادياً في طليعة المدعوين إلى معالجة هذا الأمر.. وغالباً ما تتمكن النخب - إن كان الجو صحياً وسليماً - من معالجة الأمر، والعودة إلى السلامة..

لقد كانت النخبة المثقفة ملهمة الثورة الفرنسية ذات يوم، وما جادت به قرائح هذه النخب مثّل المنطلق الحقيقي للثورة الفرنسية.. اليوم وفي غمرة الأحداث التي تعصف بالمنطقة العربية، والتي لا يمكن أن تصنف ضمن مفهوم واحد، فهي لا ترقى إلى المفهوم الثوري، وهي لا تخلو من فكر تآمري داخلي وخارجي، وهي لا تخلو كذلك من إعادة قراءة التوازنات والتحالفات والمصالح في المنطقة والعالم.. ضمن هذه الظروف التي جعلت الأحداث غير مصنفة، وجعلت القراءة والتحليل من الصعوبة بمكان، فحتى أكثر المحللين قدرة تجده متأرجحاً بين لا ونعم، وضمن هذه الظروف التي جعلت الواقع غائماً يدخل في إطار اللامعقول من حيث التحالفات والتجاذبات والأطراف المشاركة، فالدكتاتور ينادي بالحرية، والعنّين ينادي بالفحولة، والظالم آكل حقوق الآخرين يدّعي الظلم، ويشكو مما يتعرض له من ظلم واللص يدعي النزاهة، والنزيه الحقيقي مبعد أو مبتعد عن المسرح العبثي.. في هذه الظروف أين يقف مثقفونا ونخبويونا؟

وهل نملك نخبة قادرة على حمل الأزمة وتجاوز الواقع؟ هل نملك نخبة شعبية أم نخبة سلطوية؟ ماذا قدمت النخبة العربية في الأزمة؟ هل حافظت

النخب على مواقعها؟ بعبارة أخرى هل حافظ اليسار على يساريته واليمين على يمينيته بغض النظر عن التحركات البراغماتية على الساحة السياسية؟!

أسئلة وأسئلة تدور في الذهن، وتبحث عن مشروعية أو عدم مشروعية ما يحدث لهذا الطرف أو ذاك في ظل وجود مطالب شعبية محقة نسأل عن السبب في تأخير إنجازها، وهي غير مكلفة، بل إن عوائدها تفوق ما تقدمه السلطات الوطنية التي يؤخذ عليها ثقة زائدة، وعناصر فاسدة أوكلت إليها أمر مشروعها النهضوي - إن كان موجوداً - وتركت المجال واسعاً لإعلام مترهل غير جدير، ولا يملك مصداقية وصدقية للترويج لهذا المشروع..! وكذلك فإن الأسئلة تتوالى على الذهن في ظل وجود رعاية من نوع ما لجهات وصائية معروفة بالانحياز، وهذه الجهات انقلبت بقدرة قادر وسرعة البرق من داعم للسلطات الوطنية إلى حامل للراية الثورية العربية!!

تتحرك المشيخة الخليجية التي لا تملك رائحة الديمقراطية، ويخرج السلطان العثماني من التكية، وبعد شهر عسل طويل مع السلطات الوطنية، وغزل غير مسبوق ينقلبان ضد السلطات والظلم، ويكتشفان فساد النظام؟!

بين أنظمة لم تحصّن نفسها ومواطنها ومشروعها، أنظمة اختارت أدوات فاسدة انقلبت عليها عندما أطلقت الصافرة، أنظمة لم تنجز جدولها الزمني، ولم تتدارك أمرها عندما حانت الظروف، وبين مطالب شعبية لبست لبوسات متعددة وسمحت لمن لا يملك فكراً أن يقودها، مطالب تحولت من فكر إلى خراب، ومن بناء إلى تدمير ومن محاسبة فساد إلى إفساد.. بين هذا وذاك نبحث عن النخب المثقفة، النخب القادرة على أن تكون حاملاً ثورياً أو حاملاً إصلاحياً!! بحثنا طويلاً فلم نجد وأرجو أن يتسع الصدر للقول: إن النخب هي التي كانت رائد الحراك السلبي، وهي التي دفعت إلى العنف والاصطفاف العنيف!

ففي الوقت الذي يكفر فيه الإنسان بالخالق ووجوده نجد الخالق متسامحاً، وممهلاً للإنسان، لا يعاقب مباشرة، ويترك المجال واسعاً لعفو أو تراجع أو عقاب.. في هذا الوقت نجد أرباب الدنيا الذين يقودون الحراك وضده يتجاوزون ما سمح به الإله لنفسه، فهم يحاسبون ويعاقبون ويصادرون، ولا يسمحون إلا بما

تسمح به سياسة المشيخات، والكانتونات، والمقاطعات، والزعامات المحلية الضيقة! فهل نحن مقبلون على نظام عالمي جديد، ونظام عربي يعود بعد ألفي عام إلى القبيلة والطائفة والمذهب والعائلة؟!

مفهوم النخبة:

لم أرد أن أنجز بحثاً أكاديمياً عن النخبة لذا لم أعد إلى المصادر والمراجع التي تناولت المفهوم، وكذلك لا أدعي أنني أقدم رؤيتي الخالصة لمفهوم النخبة، لكنني أقدم نتاج قراءات طويلة ومعاشرة أطول في الحياة الثقافية، وأبدأ بالإشارة إلى أن مفهوم النخبة يحمل في طياته الكثير من السلبية الاجتماعية، والتصنيف الثقافي الطبقي، فصرنا نسمع بالنخبة الثقافية والنخبة السياسية والنخبة الاقتصادية والنخبة الفكرية، وتسمع بالنخبة الدينية «الصفوة» وهذا يعني تقسيم المجتمع إلى عامة ونخبة، وبالتالي تكريس الثقافة النخبوية والفهم النخبوي والنص النخبوي وما شابه ذلك.

لذا أرى أن مفهوم النخبة هو مفهوم يحتمل الكثير من النقاش، ويعمل على تصنيف غير عادل في المجتمع، ويدفع إلى مزيد من الاصطفاف المجتمعي، ودليل سلبية وجود تعبير: شاعر نخبوي ومثقف نخبوي وباحث نخبوي، وكأنني بذلك أقسم المجتمع إلى فاهم وأقل فهماً، والمثقف إلى مثقف عال وأقل ثقافة!

ولو عدنا إلى مراحل سابقة فلن نجد هذا التقسيم فغادة السمان لم تكن نخبوية وهناك من يراها اليوم نخبوية ومطاع الصفدي لم يكن نخبوياً، وهناك من يعزو «جيل القدر» إلى النخبوية.

بل منذ أيام كنت أتحدث مع أحد المثقفين عن الدكتور عبد السلام العجيلي، فسألني عن مجال تخصص الدكتور العجيلي، وفيما إذا كان طبيباً فقط أم له إنجازات ثقافية!! وعندما قدمت له المعلومة بتلطف حتى لا ينفر مني، وزعمت أن الأسماء اختلطت عليه قال لي: عرفته..! لكن العجيلي مثقف نخبوي عدد قليل من الناس يعرفونه!

العجيلي بعرف صاحبنا صار مثقفاً نخبوياً، ومن قبل كان في عرف السلطات في زمانه نخبوياً بورجوازياً فماذا بقي؟

أزعم أن النخبوية والتميز مصطلح تتوسع شريحته إذا كانت الطبقة الوسطى اجتماعياً بخير، ففي ظل وجود الطبقة الوسطى تزداد المشاركة، وتتوسع شريحة المثقفين والمرتاحين مادياً، وبالتالي يتحول المجتمع إلى مجتمع مثقف، وعندها تضيق مساحات النخبوية ليصبح الوعي والنخبوية سمة من سمات المجتمع، تضيق مصالح ومنافع شريحة، لكن مصالح المجتمع كلها تصبح ممكنة وقوية وذات احتمالات أكثر لتغدو حامل المجتمع وأهله، وهذا أمر يضايق الشرائح التي تدعي التميز على الشرائح الأخرى وتبدأ حربٌ في سبيل تضييق مساحة الطبقة المتوسطة لصالح الطبقة الأعلى، وهذا ما تم إنجازه في المجتمع العربي - وسورية ضمناً - خلال عقود عديدة تلت الاستقلال، فكان التحضر مظهراً والتقهقهر الاجتماعي والثقافي حقيقة واقعة، وكارثة تنمو وتنمو باستمرار وبانتظار لحظة الانفجار.

لقد ساد التعليم الأفقي الشرائح الغنية التي ترى أن التعليم يجب أن يكون مقتصراً عليها، لكن السلطات العربية الوطنية ودون أن تدري ساعدت الشرائح الغنية في الوصول إلى غاياتها، فكان التعليم الأفقي على حساب جودة التعليم وعمقه، وشاع بين الناس أن شهادة الأمس أفضل من شهادة اليوم، وهذا ما ساء نخبة الأمس التي ترى أن التعليم يجب أن يكون محصوراً فيها، لذا بدأت العمل على تهديم ما تم بناؤه، وبمساعدة السلطات في أحايين كثيرة من أجل الاحتفاظ بالنخبوية، وزاد الأمر عندما أضيف إلى النخبوية التقليدية القديمة نخبوية جديدة سياسية ومالية أفرزتها السلطات، فحدث التحالف بينهما على حساب السلطات والمجتمع في الوقت نفسه..

في هذا السياق أجد أن التعبير النخبوي يشبه الألقاب التي تطلق على الآخرين من بيك وخواجة ومعلم وسيّد.. كلها ألقاب تعزز التقسيم الفكري الطبقي في المجتمع وكلما راجت في المجتمع كان المجتمع مريضاً وبحاجة إلى علاج، وكل تأخر في علاج هذا الورم المستشري يؤدي إلى الانفجار.. إنه مرض سرطاني حقاً، لا يظهر إلا فجأة وإن ظهر فإنه يأخذ مظاهر عديدة قد تكون جميلة، لكنه في لحظة ما يصل إلى الانفجار الحتمي وعندها يضيع كل شيء، وهذا ما حدث في بلداننا العربية بعد تورّم استمر عقوداً، ولن يتوقف الانفجار عند حد..

الأحزاب العلمانية والنخبوية:

لم تتخلف الأحزاب العلمانية عن اللحاق بالركب بعد الاستقلال في معظم البلدان العربية التي تحررت منتصف القرن العشرين، ولم تلبث هذه الأحزاب حتى العلمانية اسماً أن تسلمت زمام الأمور، وأزاحت النخبوية السياسية البورجوازية السابقة، ومما لا شك فيه أن النخبة البورجوازية أسهمت بتصرفات أفراد منها في انتقال الأمر إلى العلمانيين الذين أخذوا على عواتقهم مهاجمة البورجوازية السابقة ونعتها بأقسى النعوت، فقد جاءت هذه الأحزاب لتعيد إلى الناس حقوقهم، وتلغي نخبوية البورجوازية، وقد استطاعت هذه الأحزاب استمالة الشعور العام لدى الناس الذين ينتمون غالباً إلى الطبقات الفقيرة والمهمشة، ولم يكن في حسبان هؤلاء أن يتم تهميش حاملي الأحزاب من العامة إضافة إلى تهميش البورجوازية إن كانت وطنية وإن لم تكن..!

ومع توالي السنوات تشكلت نخب في هذه الأحزاب تميزت بالثراء الذي تجاوز البورجوازية بمراحل كثيرة، في الوقت الذي يتحدث فيه الثري عن الحقوق والاشتراكية! كما تميزت بادعاءات فكرية أيديولوجية سلطوية اقتربت في كثير من الأحيان إلى النص المقدس الذي لا يمكن أن يناقش! وأضافت هذه النخب السياسية في مرحلة لاحقة خصيصة لا تخطر على بال، وهي التحالف السري ثم العلني مع العناصر البورجوازية الأكثر ثراء.

هذا الأمر وعبر عقود أفرغ النظريات الأيديولوجية من مضامينها، وألغى الدور الفكري للأحزاب التي من الممكن أن تكون حاملاً للمجتمع، وتحوّل الحامل الحقيقي للأحزاب العلمانية، الإنسان العادي، إلى خصم للمبادئ التي آمن بها، وفجأة ظهر التباين الفاضح بين النخب السياسية التي خرجت من الناس البسطاء، وبين الجماهير الداعمة لهذه النخب..

وتزامن ظهور هذا التباين مع:

- الثراء غير المحسوب للنخب السياسية الأيديولجية القائمة في المبادئ على العدل!

- التسلط غير المحدود الذي مارسه كثيرون من العناصر السياسية على حساب أحزابهم!

- تفريغ الأحزاب من فكرة العلمنة لتبقى في إطار ضيق من المناطقية والمصلحية!

- إيقاف الزمن عند لحظة الإنشاء والتأسيس وعدم مجاوزتها!

- الابتعاد عن فكرة المحاسبة وفقاً لمبادئ المحاصصة في اقتسام الغنائم!

وبعد أكثر من ستين عاماً من الأيديولوجيا التي ادعت القدرة على النجاة بالمجتمع مما هو فيه، ومن أتون التخلف والاستعمار والبورجوازية ظهر العجز التام لدى عناصر هذه الأحزاب، وحولوا النظريات الجميلة والحالمة والواقعية إلى إسار يخنق المجتمع، ويخنق أول ما يخنق أصحاب هذه النظريات.

وفي الأزمات ظهر أصحاب الأحزاب العلمانية، ونخب هذه الأحزاب أعداء مبادئهم، ولم يتمكن أحدهم من القراءة الصحيحة التي يمكن أن تفتح طريقاً لتحريك المياه الفكرية الراكدة!

فرأينا التدهور المتسارع في البناء الهرمي والفكري لجملة هذه النخب السياسية التي اختفت وراء تعنتها ومصالحها التي أصبحت أكبر من النظريات التي كانت مطروحة، فلا الوطني كان وطنياً، ولا الزعامة كانت كافية لبلوغ مأرب، ولا الاشتراكية كانت هدفاً لدى النخب الاشتراكية، حتى الأحزاب العالمية صارت أحزاباً خاصة وملكيات فردية تحتاج إلى تطويب وشموع تتجاوز عشرات المرات الانتماء إلى حزب أحد الأولياء!

وكلنا شهد سقوط نخب الأحزاب العلمانية، ولم يخطر ببال أكثر المتشائمين أن يقوم النخبويون بأنفسهم بهدم المعابد التي آوتهم، قد لا يحتاج الأمر إلى ذكر الأمثلة، فالنخب القومية كانت أبعد ما تكون عن القومية، والنخب العالمية كانت ضيقة في كل ما قدمته، والنخب الوطنية خدمت كل شيء إلا المواطن..!

فجأة سقطت هذه النخب

قالوا: فجأة سقطت

لكنها لم تسقط فجأة وإنما سقطت بفعل نخر السوس طويل الأمد فيها،

وبفعل تحالف المصلحية بين هذه النخب وشرائح أخرى لا يمكن أن تجتمع معها فكرياً.

وقفت مع هذه الفكرة لأنها ومن وجهة نظري، قد تكون أكثر القضايا قرباً من الواقع في قراءة أسباب سقوط الأيديولوجيات، والأسباب التي أدت إلى استجابة شرائح عديدة في المجتمع للحراك إن كان الحراك سلبياً أم إيجابياً.

فقد أضفى هذا التحالف النخبوي السياسي العلماني الترهل على المجتمع، فأصبحت النخب هرمة مسنة، والشباب الذين صفقوا ودفعوا وتحمسوا أنهوا الحياة انتظاراً في طابور طويل، وحين يئسوا زرعوا الخيبة في أولادهم، وقد رأى الأبناء عجز الآباء وتورطهم في حمل رايات ليست لهم، وفي نفخ أبواق كانت تعزف لسواهم..!

المشكلة هنا ليست ذات جانب واحد، بل متعددة الجوانب، فالأحزاب في الأساس جماهيرية وقامت لتلبية مطالب الجماهير، ومع الزمن تحولت إلى أحزاب جماهيرية تخدم نخبة سياسية محددة، ومع الزمن التالي تحولت إلى أحزاب نخبة لا تتغير ولا تتبدل ولا يطولها الهرم، ومع الزمن بعد التالي تحولت هذه الأحزاب العلمانية إلى أحزاب إقصائية استئثارية لا تقبل الآخر..!

ومن ثم تخلت هذه الأحزاب عن علمنتها وجماهيريتها لتكتفي بصفة واحدة هي التعالي على جمهورها وإقصاؤه بكل السبل الممكنة.

أزعم هنا مرة أخرى أن المؤامرات لم تكن قادرة على فعل شيء في جسد هذه الأحزاب وجماهيرها لو أنها لم تقم هي بنفسها باغتيال ذاتها وأهدافها وجماهيرها!

ولا أشك لحظة واحدة في أن عملية الهدم السياسي لأحزاب علمانية عولنا عليها كثيراً كانت من الداخل، ولم تكن بفعل فاعل مطلقاً.

العلماني لم يبق علمانيـــاً!

اليساري لم يبق يســـاريا!

الوطني لم يبـــق وطنيـــاً!

وعبر عقود طويلة شكلت هذه الأحزاب لذاتها مفكرين وأدباء وشعراء

من أصحاب المواهب، فأخذت مواهبهم وأعطتهم المكاسب الخاصة، فاغتنموا واغتنوا وابتعدوا عن جوهر الناس والمجتمع وأسهموا إسهاماً كبيراً وخطيراً في تدجين الفكر والثقافة والمجتمع، ومن ثم، وفي الأزمات كانوا الأشد خطراً وانحيازاً إلى جانب مصالحهم بعد أن ألبسوها لبوساً وطنياً مقدساً، وما خالفها كان خائناً.

النخب الدينية وبخور المعابد:

لا يوجد في الإسلام أي نوع من الكهنوت، بل يعتمد التقسيم الإسلامي دينياً على المستوى الديني والعلمي، وليس على المفهوم الوصائي، وقد جاء في تاريخنا القديم عشرات من الحوادث التي يتعرض فيها العلماء للنقد والشتم والضرب من العامة والخصوم دون أن يردع عن ذلك رادع، وأزعم أن ما جاء عن المسلمين من علم الجرح والتعديل هو غاية الفضل في العلم، وقيام العلاقة بين المسلم وعلمائه على العلم لا غير.. ومع توسع الحياة وانتشار الأمة في الأصقاع تعددت النحل والملل، ودخلت العادات الاجتماعية للأقوام، وثقافات الشعوب في صلب العقيدة وصرنا نرى بعض الملل تعطي العالم الشرعي صفة رجل الدين وتخصه بمكانة ليست هي للشخص أصلاً بل لما يملكه من علم وورع وقد وجدت النخبة الدينية في هذا الأمر مكسباً خاصاً، فحرصت عليه، ثم سعت إلى تعميمه، ولم يكن ليعمم في كافة الأرجاء لولا أنه راق النخب السياسية، فقد وجدت تلك النخب في الكهنوت الديني مملكة من المصالح يتم التحالف معها لتوطيد أركان السياسة، ولم تستطع النخب السياسية عبر التاريخ أن تجد أفضل من النخب الدينية، فهي الأكثر إقناعاً لدى العامة، وهي الغيبية القادرة على استلال ما تشاء اعتماداً على السلطة الروحية، وبدأت بالتدرج السلطة الدينية الكهنوتية تجد طريقها إلى عموم الملل الإسلامية وظهرت السلفية والوهابية والفرق المتصوفة بتعددها والأزهرية، وصار الصراع على أشده بينها لتكون واحدة من هذه الظواهر هي الوجه الهام لأهل السنة، وأغلب الصراع اليوم يقوم على هذا الجانب.. وكذلك أسهمت النخب السياسية في إذكاء هذه التوجهات لأنها تخدم مصالحها!.. أما ما يسمى بالنخب الدينية من علماء ومصلحيين وشيوخ سلطة وغير ذلك فقد

أسهموا في إظهار الفوارق الدينية والمذهبية بين أبناء الدين الواحد، وصار الخلاف خلافات والخلافات تحولت إلى مؤلفات طويلة، ومع ذيوع هذه الآراء بين الناس العامة كانت المشكلة الكبرى، فهم غير قادرين على الاستفادة من الخلاف فوصلنا إلى ما وصلنا إليه عبر التراكم المتعمد بين النخب الدينية.

ويضاف إلى هذا النخب المسيحية كذلك التي تم إنعاشها على حساب العلمنة أيضاً، وفي الوقت الذي رأى الغرب ابتعاد الكنيسة عن الواجهة السياسية، وكان من المفترض أن يعمل العرب على تحييد الدين عن الواجهة السياسية، لكن النخب السياسية التي رفعت من وجود النخبة الإسلامية تبنت المسيحية المشرقية، بل تم الحديث عن خصوصية كنسية شرقية تختلف عن الكنيسة الغربية روحاً وفكراً، هي أصل الكنائس في العالم، هذا كلام صحيح تماماً، وهو غاية الصحة، ولكن لأبحاث في اللاهوت وبقدرة قادر وبواسطة النخب الدينية المتعاونة مع النخب السياسية تماهت الخطوط، وصارت النخبة الدينية معاونة ومؤثرة وفاعلة مع النخبة السياسية، وربما تزيد، وشاعت النخب الدينية خاصة في المجتمعات الفقيرة، وتم استدعاؤها إلى المجتمعات الغنية للاستفادة من تأثيرها وفتاويها، فصارت أكثر تأثيراً..!

وبما أن الفوائد لا تحصى كان لابد من أن تكون المؤسسة الدينية العائلية والمذهبية، والشواهد أمامنا، وما من داع لاستدعاء الأسماء والشواهد، ومن لا يريد أن يرى فهذا شأنه، تصاعد بخور المعابد وصار رجال الدين والعلماء جزءاً من المشهد، بل الجزء الأكبر، وهذا ما يثير الحفيظة وليس كما يدعي كثيرون يخفف الاحتقان في الشارع، ما من داع لحرب ظاهرية غير حقيقية تتبعها مصالحة خاسرة جانب بخور المعابد.

النخب المصلحية المفصلية:

وبما أنه ما في حدا أحسن من حدا صارت كل ناحية في المجتمع العربي تسعى لتكوين نخبويتها وتدافع عنها، ولا أحد يجرؤ على المناقشة أو المحاسبة، فلكل مصلحة نخبويتها، فنشأت نخبوية مدنية وأخرى غير مدنية ونخبوية تنفيذية ونخبوية إعلامية، وتحولت جوانب الحياة إلى مهن أسرية عجز كثيرون عن تفسير هذه الظاهرة.

فالمذيع ابنه وابنته وصهره مذيعون، والإعلامي بإمكان زوجته الشابة حتماً أن تكون مذيعة وتلفزيونية حصراً، وكل صحفي يجد أن قلم ابنه أقوى وأرسخ قلم في الإعلام، وربما كان يرى فيه تباشير أنيس منصور أو مصطفى أمين وعلي أمين، ويعتب على مجلة العربي أنها لم تختره بدل أحمد بهاء الدين أو أحمد زكي والبواب في مؤسسة السينما - إن وجد - فإنه يرى أن ولده أهم من علي أبو شادي في مراقبة المصنفات الفنية!! وفي أكثر من مكان تحدثت عن أهم وسيلة للإصلاح، والتي تتمثل في استقدام قوائم العاملين ومقارنة الأسماء والقرابات عندها نعرف أهم أمراض النخبة التي تسلطت علينا فأفسدت المصلحة، وأفسدت المجتمع كله.

أخيــراً

مفهوم النخبة مصطلح لا أكتفي باسباغه على المتميزين، خاصة في جوانب سياسية وأيديولوجية.

وإنما أتوسع فيه إلى كل المجالات، لأن أمراض المجتمع ناتجة عن النخبة وتعاملها، إن كانت واعية وقاصدة لإنهاء المجتمع، وإن كانت مصلحية لا تدري ما تفعل!

اليوم مجتمعاتنا العربية بحاجة إلى مراجعة جادة جداً، خاصة في مفهوم النخبة وأدوارها.

ألم نجد النخبويين وقوداً لصراع مصلحي لبس لبوس الطائفية والمناطقية؟

ألم نجد أن العامة أكثر وعياً لما يحيط بالأمة؟

ألم نجد أن النخبة سعّرت الصراع لتبقى؟

ألم

ألم...

والعهدة على الشاهد والراوي

* * *

المبدع الحقيقي غياب عن الحياة وهدر للطاقات

على السلطة أن تفرّغ المبدعين والمخترعين وتؤمن حياتهم بعيداً عنها!

الإبداع جنون وحرية... والمسؤولية تنظيم ودقة وشتان ما بينهما

نشتم المبدعين وننتقصهم ضيقاً بما يمتلكون من خصوصية

مبدعون، مثقفون، شعراء، أدباء.... القائمة تطول بأسماء وصفات هؤلاء الذين يعيشون حياة قلقة فيها الكثير من الالتباس وعدم الاستقرار، ثم يوصفون بشتى الأوصاف، وبعض هذه الأوصاف تصل الى حد الازعاج القاتل، ومع ذلك يحسدونهم على حياتهم ومكانتهم، وصدورهم مملوءة بالحقد على ما حصله هؤلاء المثقفون.. السلاح ضد هؤلاء دوماً الشتيمة والانتقاص، ولو أمكن أن نجتمع مع كل أولئك الذين انتقدوا أو شتموا وعبر العصور لوجدنا قاسماً مشتركاً هو العجز عن الوصول وتحقيق الذات كما كانوا.. وفجأة يرحل المبدعون رحيلاً عادياً أو رحيلاً غير عادي، فتتضح الرؤية، ونكتشف أننا قد نوجد ألف مسؤول أو ما شابه، ولكن يصعب أن نوجد مبدعاً حقيقياً واحداً.. وتزداد المسافة بيننا وبين المبدع حين يكون المبدع من أولئك الذين دفعوا حياتهم ثمناً لموقف أو رأي..

ضحايا الألسنة:

ما من أديب أو مبدع حصل على موقع له قيمة في عالم الأدب حتى في الغرب - إلا وكان ضحية الألسنة، وخاصة إن كان بعيداً عن الناس بعض الشيء، لا لسبب، إلا البعد، فهذا مبدع يوصف بأقذع الأوصاف، وذاك يوصف

بأوصاف تنال من أخلاقه، وذاك من أسرته، وآخر من أدق خصوصياته بحيث يصبح كل شيء مباحاً متاحاً للانتهاك العلني دون أن نجد - من يضع على عاتقه مهمة البحث عن الحقيقة، ولا أقول الدفاع عن المبدع الذي أسعدنا، وكتب عن جوانياتنا، وضحى بخصوصيته وراحته كرمى لنا، ننسى بلمحة خاطفة كل ما فعله هذا المبدع لنا، فكم أبكانا حين عبّر عنا، وكما أفرحنا عندما عبّر عن أحلامنا، وكم كان رسولاً لأمانينا مع من نحب!! نغار منه ومن خصوصيته، ونشارك في نهشه لأننا لا نملك صورته أو إحساسه أو معرفته، يتهيأ لأحدنا أن هذا المبدع يملك القدرة على معرفتنا من الداخل إن كنا عاديين أم ساسة أم أنصاف مثقفين، بل أزعم أنه يعرفنا بدقة لذلك نقوم بذبحه بألسنة حداد، والقائمة تطول من جبران وتخوينه، ونعيمة وعلاقته بالسوفييت، وروز اليوسف وإحسان عبد القدوس والعجيلي البورجوازي وعبد الباسط الصوفي ومحيي الدين الدرويش معرب القرآن الكريم في أحسن إصدارات له وعمر أبو ريشة الذي حولناه إلى بائع للشعر، وبدوي الجبل الذي وضعنا عليه أوزارنا حتى ناء تحتها وغادرنا حزيناً لنكتشف بعد أكثر من عقدين أننا طمرناه حياً، وعندما رفعنا ما عليه كان قد فارق الحياة وتسرب إلى قبر مجاور لوالده الشيخ سليمان الأحمد ليشكو له حاله..! ونزار قباني المترع بالحب والألم الذي أزعجنا بحريته وطيرانه وتألقه وبورجوازيته المتوهجة، فلم نترك صفة إلا وأطلقناها عليه، بل إن أحد الذين أزعجهم بتعملقه قال: إن جسده أقرب للتكوين الأنثوي..! تباركت يا الله.. لماذا لا يطلب أحدنا أن يتحول البشر إلى هذا التكوين إن كان مبدعاً.

ولكن وفي كل الحالات عندما يموت أحدهم نبدأ البكاء، ونشهّر بالماغوط بأنه لم يدرس، ليس لتدوين حياته، بل للإشارة إلى من لا يعرف، ونتحدث عن زكريا تامر وعمله في مهن متعددة دون الدراسة ولا نشير إلى أن هذه المثلبة التي نراها ليست سوى مصدر فخر لهؤلاء المبدعين.

المرحلة والجيل:

يستوعب المرء ما يدور من صراع بين أبناء الجيل الواحد، إن كان أحدهم حصل ما لم يستطع الآخرون تحصيله، وخاصة إن كانوا يمتلكون من الإبداع كماً مقبولاً يقاربه، ولكن الشهرة جاءت له دونهم، وهنا يمكن لمشاركي المرحلة أن يتملكهم شيء من الغضب من زاوية الحظ التي جاءت لصديقهم وابتعدت عنهم، ولكن الأمر يجب أن يقف عند حد لا يتجاوزه ولا يخرج عن الحدود الإنسانية الجميلة والتنافسية، ولكن عندما يتجاوز هذا الحد يصبح حرباً غير شريفة.

النجاح الذي حققه إحسان عبد القدوس جماهيرياً فكان الأكثر قرباً من الناس والسينما والشباب لا يجعلنا نقف عنده شاتمين لنصل إلى أجداده وأحفاده، فما قام به مجرد رؤية شخص مبدع يقرأ المستقبل، وما كتبه في (أنا حرة) و(في بيتنا رجل) و(أنفس وثلاث عيون) ليس إلا تشريحاً للمجتمع... وبعد أن حورب ورحل جاءت المرحلة الحالية لتثبت أن عبد القدوس لم يكن مثيراً للغرائز بقدر ما كان استشرافياً ومكتشفاً، فلم نستفد منه أدبياً، ولم نقرأ رؤيته للمستقبل التي كانت أكثر وعياً من كل أبناء جيله، وإن اعتمد كثيرون على الواقع، فقد انتقل عبد القدوس إلى آفاق المستقبل.

وكذلك نجد العذر الكافي للجيل اللاحق المشارك في الإبداع والمهنة الذي يجد في السابق حاجزاً بينه وبين الشهرة والمجد وأن يأخذ مكانه! وهذا الأمر فيه كثير من الحق الملتبس، إذ لا يمكن لأي شخص أن يأخذ مكانة الآخر، فكوليت الخوري لم تمنع أي مبدعة أن تخرج من الإبداع لتكون ذات خصوصية، وغادة السمان ثارت، عاشت، كتبت، عشقت حملت معها البحر ويوده، والياسمين وعبقه وخرجت إلى العالم حورية بحر دمشقية ولم تشكل حائلاً، بل إن كثيرات حاولن تقليدها، فعاشت شخصيات مشوهة، ولم يكن للإبداع أي وجود..!

وحين كرمت نفسي من خلال علاقة مميزة مع المبدعين الكبار العجيلي وزكريا تامر وكوليت الخوري وسواهم سألني أحدهم: ماذا ترك لك هؤلاء حتى تكرمهم؟! بمعنى أين يمكن أن تحقق ذاتك الكتابية في ظل الحديث عنهم؟! فهل يمكن أن يحقق أحدنا مكانته العالية إذا نهش لحوم مبدعيه؟!

عندما يصبح المبدع هدفاً:

لست أدري السبب الذي يجعل أحدنا قادراً على إنكار قيمة المبدع وإبداعه، واستغرب كيف ينجعي أحدنا على كرسيه وهو لا يقيم بيتاً من الشعر، وغير قادر على كتابة نص رائق، وقلمه يحتاج إلى مجموعة بلدوزرات لتحريكه لكتابه عبارة، ينجعي هذا المنجعي وبجلسة واحدة يلغي كل القامات، فهذا نص تافه! وذاك كاتب سيئ! وتلك لا تملك سوى الجراة! وبالمحصلة يصبح هذا المنجعي الذي قذفت به المقادير قادراً على تقييم قامات تعجز الأرحام أن تأتي بمثلها..! ومثل هذه الأحكام لا تزال تدور ضمن فلك هذا أحبه هذا لا أحبه، وهذا يعجبني وهذا لا يعجبني.. وهذه الأحكام على غرابتها تحكم منطقنا لتضاف إلى الطامات التي نعاني منها، وأقصد الأدلجة والرؤية السلطوية والفئوية والمناطقية، التي تصل في المحصلة إلى إلغاء المبدع، فالمبدع صار هدفاً يحلو لنا اصطياده بكل الوسائل ليصبح منفياً مطروداً ومطارداً من رحمة الله ورحمتنا فلا نملك حياله أي بادرة إعجاب أو رغبة في الاقتباس منه والتعلم، وهذا الكلام ليس من قبيل الإنشاء، وأذكر له مثالين أولهما بدوي الجبل الذي أحيا روح الشعر العربي العالي، وجدنا من لا يقترب من مفردة من شعره ينتقص ويتحدث ويستخدم كل الوسائل السياسية والفئوية وغير ذلك للنيل من شاعر سلب طه حسين إعجابه وشفيق جبري شاعر الشام المهم والكبير شعراً وتجربة وخبرة وأكاديمية من كلية الآداب إلى معهد الدراسات العربية يأتي من يتحدث عن خصوصياته وحياته.. ولو تابعنا الأمثلة نصل إلى محمد البزم وخير الدين الزركلي ونزار قباني.. حتى

المبدع الذي طاله ناب الحزن والبؤس نجد من يحسده وينتقصه وليس نديم محمد ببعيد عنا وكيف تناول الناس حياته، وهم لم يقرؤوا له ولم يعايشوه..!

المبدع والسلطة:

أزعم أن العلاقة الملتبسة بين المبدع والسلطة هي التي جعلت المبدع هدفاً، ودفعت المبدع في الوقت نفسه إلى المبارزة والمزاحمة على مواقع ليست له.. منذ ابن المقفع والتوحيدي والمتنبي الطامح في الإمارة وأبي فراس الباحث عن المجد كانت هذه العلاقة غير عادلة، والسبب كما أرى يكمن في السلطة وأتباعها التي لا تعطي المبدع قيمته الحقيقية، فتدفعه دفعاً للبحث عن مكان يحقق من خلاله ذاته ومكانته ومجده ظاناً أن المجد كل المجد في السلطة والمنصب، وأذكر أنني منذ عقدين طرحت فكرة لا أزال أراها سبيلاً لكثير من الحلول، وتتلخص الفكرة في ضرورة تأمين المبدعين الجديرين وفي كل المجالات النظرية والتطبيقية، بل تفريغ هؤلاء في صوامعهم الإبداعية ومراكز الأبحاث للحصول على إبداعاتهم ومخترعاتهم ونصوصهم، ومكافأتهم عليها وتعميمها بين الناس والاحتفاء بهم وبما يقدمونه.. وعندما يتحقق هذا للمبدع، فإنه إن كان حقيقياً، فلن يكون ساعياً إلى منصب، وإن سعى فإنه ليس بذلك المبدع الذي يستحق لقبه، ما دامت السلطة لا تقوم بمثل هذه الخطوة فإن المبدع يضيع، وطاقاته تهدر بلا فائدة. والمجتمع يخسر طاقاته واحدة بعد أخرى.. أما ما تقوم به السلطة من استرضاء بعض المبدعين بمكافآت مناصبية فهو إيذاء للمبدع والمنصب معاً، لأننا سنحصل على منصب مشلول، ومبدع يجف إبداعه.. فالشاعر الحق لا يمكن أن يكون مسؤولاً فالإبداع جنون والمسؤولية عبء وتركيز، وهما لا يتفقان، وإذا ما نجح المبدع في المسؤولية فأمر إبداعه يحتاج إلى مراجعة.

المبدع يمكن أن يكون مستشاراً، أن يكون مرشداً أو أي شيء آخر، لكن لا يمكن أن يكون حتى جامع مال!! ألا نذكر جميعاً أن إينشتاين رفض أن يكون رئيس الكيان الصهيوني.

لماذا لم يكن تولستوي أوهوغو أو ديكنز مسؤولاً.

الإبداع جنون وحرية والمسؤولية التزام وتقييد..

ولأن الحرية ثمنها غال يصبح المبدع هدفاً لكل السهام التي تنال من الرمز والحرية والإبداع والتفوق.. إلا إذا كنا لا نرى الإبداع تفوقاً..!

إلى صفحة أخرى

يرحل المبدع.. غالباً ما يتذكره بعض الناس - وهم من الصنف الذي تحدث عنه دستوفسكي - الذين يفرحون برحيله، يؤبنونه بكلمات مختصرة قصيرة ويغادرون لتبدأ حكاية البحث في النقائص وما كان عليه الراحل من خصال سلبية رحمه الله.. وقد تجود عليه المؤسسات الرسمية الأدبية بمطبوع تأبيني يُكرم فيه المتحدثون أكثر من الراحل، وتطوى الصفحة نهائياً، إلا إذا كان لمبدعنا هذا أي نص في المراحل التعليمية، نأتي على ذكره بعض الوقت في قاعات الدرس..!

وحتى لا أكتسب عداء من يظن نفسه مقصوداً فإنني أحصر الإبداع في الكتابة الإبداعية غير البحثية، وفي الاختراعات والاكتشافات، أما من يعمل في البحث عن الأكاديميين فأرجو معذرتهم لأنهم لن يرغبوا في صفة الإبداع أمام المنصب.. مع أنني أرى الإدارة فناً خاصاً قد لا يجيده الكاتب المبدع والمهندس صاحب الرأي.. في النهاية سنجد من أنعم عليه بالمنصب يتمتع ويستمتع وينال كل شيء، ولكن عندما يغادر يحدثنا عن أسفه للسنوات التي ضاعت في الإدارة بعيداً عن الإبداع، ولا بد أن نحمل له جميله بأنه ضحى واكتسب الملايين فقد خسر إبداعه!!

في الوقت نفسه تخرج جنازة مبدع حقيقي ولا تجد مشيعاً يمشي وراءها سوى أسرة المتوفى.. هل أعدد؟ الأمر محزن للغاية والأسماء كثيرة!!

* * *

للطفولة مدارسها وتحصيلها ومستقبلها

عندما يتحول افتتاح مدارسنا إلى خبر أول لتصوير أطفالنا كما يشاؤون!!

الخاسر الأول الطفل والوحيد سورية ومستقبلها العلمي.

بالأمس بدأت المدارس دوامها، فتحت أبوابها، ومع البداية معزوفة الصغار المقدسة جاءت البداية الملتبسة وغير الجيدة، التي لا يفعلها الناس وهم يمتلكون حباً - حتى لذواتهم - قبل أن تبدأ المدارس، وقبل افتتاح أبوابها بدأ الاستعداد الإعلامي حول المدارس وما سيحدث فيها، فهذا يتوقع الدوام، وذاك يتوقع التوقف، وثالث وضع سيناريو التظاهرات، وعندما فتحنا الشاشات كانت مكتظة بالطلبة الذين لم يدخلوا قاعات التدريس!

الذي يراقب من الخارج يظن الأمر حقاً، ولكن الذي يعيش داخل البلد يعلم أن هذا المنقول ليس واقعاً، قد يكون هناك بعض المدارس التي حدثت فيها إشكالات، قد تعاني مناطق محددة من انتظام الدراسة.. وكما حدث في الامتحانات العامة قد يحدث مع بداية العام.. ولكن.

الطلبـــة والعلم:

أفترض أن ما تقوم به القنوات الفضائية عن قضايا المدارس والتدريس صحيح! وأقابل فرحهم بهذه الظاهرة الغريبة والشاذة - إن كانت موجودة - بكثير من الاستهجان..

إذ كيف يسمح المتحضرون لأنفسهم بأن تفرح للطفولة إن تخلت عن براءتها؟

أليست قضايا الطفولة هي التي تحرك الرأي العام في العالم؟

من المفترض - في حال صحة ما يتحدثون عنه - أن يسعى الجميع من الدولة والأهل إلى إبعاد الأطفال لأسباب عديدة:

١ - لن يقتصر ضرر الأطفال على ساعة أو يوم، وإنما سيؤثر هذا الأمر في عامهم كاملاً، بل قد يؤثر في مستقبل الجيل، فمن هذا الوطني الذي يضحي بحياته ومستقبله المتمثل بأولاده؟ ومن أجل ماذا؟

إن كان هؤلاء يتحدثون عن مستقبل الطفولة، فعليهم أن يجنبوا الطفولة مثل هذه المشاركات.. أفهم أن يحمل أحدهم ولده على رأسه ليعبر عن بهجته بأمر ما، ولكن عليّ أن أكون واضحاً تربوياً بأن هذا الإنسان أفقد ابنه معنى الطفولة والبراءة.. لذا فمن الحكمة الكبرى أن تستمر العملية التعليمية التربوية وحدها، وإن كان ثمة ما يقال، فليكن له أهله وناسه.

إن أهم الأخطار التي تواجهنا أيها السادة - الجهل - فهل يعقل أن أدفع مجتمعي وابني إلى الجهل بيدي؟!

ألسنة غير محتشمة:

٢ - الخروج عن الاحترام في التنشئة، كثيراً ما تسمع أن أحدهم يفرح ويتلذذ بسماع الشتائم من أفواه الأطفال! بل إن عدداً من كبار السن يدفعون لأطفالهم وأحفادهم مقابل سماع شتائم حتى للأهل، وتأتي عبارة (يقبر أهلو شو مهضوم) وكل من عرفت على هذه الشاكلة سابقاً كان مخفقاً وفاشلاً، وكانت شتائمه المقذعة لمن علّمه، فهل يعقل أن ينزل الأمر إلى هذا الدرك؟

قد أفهم ما يقوم به شخص واع، وهو يتحمل بطبيعة الحال نتائج أعماله، ولكن لا أستوعب ولا أفهم ولا أقبل أن يصبح لسان الطفل شارعياً شاذاً غير مهذب، وما يقوله هذا الطفل اليوم - إن كان صحيحاً - سيكون كارثة

مجتمعية مقبلة، ومن أي جهة كانت، فعندما تسقط الرموز والمحرمات، وعندما يضيع الاحترام المفترض بأي شخص، ولأي شخص يصبح من المحال أن يتحقق أي نوع من التقدم والتحضر.

الانتظام والتسرب

٣ - مما يترتب عن هذه الظاهرة ضعف المحاسبة من الأهل والإدارات التعليمية، وارتفاع نسبة التسرب، وسورية - سواء أعجبنا ذلك أم لا - عملت منذ عقود على منع التسرب، ورفعت سن التعليم الإلزامي لأن الواقع الحضاري العالمي لا يسمح بأنصاف الأميين، حتى في المهن العادية لا بد من وجود مستوى علمي مقبول وإلا فإنه لن يتمكن من التعامل مع أي مهنة!!

فهل يقدر الأهل الذين يدفعون أولادهم إلى الدراسة دفعاً أن يحاسبوا على الغياب والتسرب؟! والإدارات التي تمارس في عتباتها هذه الممارسات لن تكون ملزمة، بل لن تكون حريصة على الطلبة ودراستهم وانتظامها!

٤ - تعاني مدارسنا - وخاصة البعيدة عن المراكز - في الأصل من نقص في أعداد المدرسين، وخاصة مع نقل المدرسين إلى محافظاتهم، وهناك إشكالات لا تزال موجودة، وتسهم في تقسيم المناطق التدريسية إلى مناطق نامية وأخرى عادية.. وفي ظل هذه الظروف كيف سيتم استقدام الخبرات التدريسية التي تسهم في العملية التعليمية والتربوية؟!

تكثيف للوقت والجهد

٥ - ضيق الوقت: إن مناهجنا بحاجة إلى وقت كاف، ويذكر لوزارة التربية أنها أقدمت على ترتيب لوازم العام الدراسي مباشرة وفي موعدها حتى تكون الدراسة منتظمة، فالمناهج كبيرة ومتطورة، وتحتاج منا إلى بذل جهود كبيرة، بل إن عدداً – وأنا منهم - طالبوا بإلغاء العطل الكثيرة، والاكتفاء بالعيد الوطني والأعياد الرئيسية الإسلامية والمسيحية، إذ يكفي أن

يكون للطلاب عطلة الجمعة والسبت.. بقيت العطل كما هي فهل نضيف إليها أيام عطل أخرى؟! ماذا سيدرس الطالب؟ وإذا ما استمر العمل بهذه الطريقة - إن وجدت - فما النتائج التي سنحصل عليها؟

لكل دوره واختصاصه

طلابنا بحاجة إلى تأهيل وتدريب وعمل، طلابنا بحاجة إلى دراسة وفرص دراسية، طلابنا بحاجة إلى مدارس جديدة، طلابنا بحاجة إلى جامعات، وبالعلم وحده تتطور حياتنا - حتى السياسية - وننتقل من حال إلى أخرى بحب وعلم وسلاسة، طلابنا بحاجة إلى كل لحظة دراسية، طلابنا بحاجة إلى ممارسة حياتهم العادية، الطفولية واليفاع والشباب، هذه العبثية التي يدعون إليها تفقد المجتمع كل جماله وطزاجته، ولا بد من الإيمان بأن كل إنسان يوكل إليه عمل يناسبه، فلينخرط في العمل السياسي من يشاء من الشباب والرجال، وها هي الساحة قد بدأت تنتظم، ولكن اتركوا الأطفال وحدهم، حثوهم على الدراسة والانتظام ليخرج جيل مختلف عنا، أجبروهم على الالتزام بالدوام والدراسة، فلن يتضرر أحد من النافخين في كير الطفولة.. الشيء الوحيد الذي أنا متأكد منه أننا لن نجد من هذا الجيل مستقبلاً من يقف في الإعلام الخارجي ليكون رسولاً لسورية وما تريده!

فهل نقبل جيلاً متسولاً بعيداً عن الصدارة والهداية؟

هل يقبل مجتمعنا التوقف عن دور المصدّر للخبرات والطاقات؟

يحز في النفس

إنه لما يؤثر في الإنسان السوري أن ينظر إلى هذه الصور المبثوثة، ليرى انتهاك الطفولة وبراءتها على أيدي الأهل والمشرفين هذا الانتهاك الذي يصل إلى حد لا يطاق.. وإنه لمما يحز في النفس ذلك الاستقبال والتهليل والتطبيل في القنوات الفضائية، كأنه لم يعد لديهم إلا افتتاح المدارس في سورية!! لم يسأل أحدهم سابقاً عن هذا الافتتاح وعن الحاجيات المطلوبة لستة

ملايين طالب! لم يتقدم أحد لتأمين الأبنية اللازمة لإنهاء الدوام النصفي! لم يتقدم أحد المحسنين لتقديم الأجهزة التقنية والحواسيب للمدارس، التي من المفترض أن تكون من مفردات المناهج!

واليوم تحول افتتاح المدارس إلى حدث!!

لقد أنجزت التربية، ولأول مرة في تاريخها أبنية مدرسية خلال فترة الصيف لتنهي الدوام النصفي، وفي عز الأزمة كانت الورشات لا تهدأ من أجل دراسة مميزة وبجهود وطنية..

فلنعد إلى رشدنا، ولنترك للطفولة براءاتها، بل لنجبر الطفولة على أن تكون بريئة طاهرة متعلمة مثقفة.. الميدان مفتوح اليوم للعلم والنهل من موارد العلم، فلنخرّج جيلاً واعياً بعيداً عنا وعن تفاهتنا!

ولنبن سورية وفق رؤانا نحن، ويكفي أن نكون عمالة رخيصة للآخر، لقد قصرت حكوماتنا في أداء دورها، ولم تول العمالة والبطالة حقهما سابقاً، لكننا نؤمن بأن الوطن يحتاج كل الطاقات..

إن كان ثمة من يستنكف من الأطفال عن الدراسة فالخاسر هو وأهله ومجتمعه، وأكبر الخسائر سورية المستقبل.

إنها هواجس أب كتبها وهو يرقب الشاشة، وغير متأكد من الصحة والحجم، أب يظن أن البلاد ليست كذلك، وأن الأبناء ليسوا هكذا!!

النوع الأفضل

بالأمس حدثني أحدهم عن خروج الأطفال واستمر الحديث طويلاً وبحضور عدد من أصدقائه وقد استغرق النقاش وقتاً، ولم ينته إلا عند الحديث عن مستقبل الأولاد الذي مر، وعند الحديث عن بعض رموز المعارضة، فأنا كما غيري أعرف عدداً من أبناء السلطة الذين أساؤوا للسلطة والوطن، كما أعرف عدداً من الذين في المعارضة... وقبل الأزمة بأيام كنت عند صديقي

سامر بائع المجلات والجرائد وكان أحد أقطاب المعارضة واحتفظ باسمه - موجوداً، فدار حديث طويل والكل يستمع إلى هذا القطب المعارضي، ولكن عندما بدأ لوم الناس والشارع، لم أتمالك أن ذكرته بواقعة لا يعرفها الحاضرون لذاتيتها، فقبل أربعين عاماً كنت حاضراً جلسة فيها هذا القطب المعارض، وأحد أعضاء حزبه حصل على الثانوية، وأراد من حزبه أن يرسله بعثة إلى الخارج، ومصر تحديداً، ووعده القطب خيراً، ليقوم بعد أيام بإرسال ولده في هذه البعثة لدراسة الطب مكان أي واحد من أعضاء الحزب!!

هذا شـــأن الأقطاب وهم خارج السلطة، فما بالنا عندما يتحكمون بالمصائر؟!

هذا لا يعني أن يقنع أحدنا بكل ما يجري، ولا يعني أن أقبل تجاوزات الأفراد في السلطة، أو الظلم الواقع من جهات وصائية، ولكن يعني ببساطة هذا الذي يدفع الأولاد للخروج من المدارس لا يعنيه أبناؤنا فكما لم يعنه أمر أتباعه الحزبيين عندما كان قادراً، فإنه لا يعنيه شأن التلاميذ ولن نأخذ منه شيئاً يذكر للمجتمع لو أصبح فاعلاً - مع تأكيد لو -.

قبل عقود حدثني الدكتور عبد السلام العجيلي رحمه الله عن زيارته لليابان، وكيف رأى في المساء مشاعل تسير صامتة، وعندما سأل عنها، قيل له: معارضة عمالية تطالب بتحسين الأجور، وأمام استغراب التوقيت جاءه جواب الدليل: القانون لا يسمح، والياباني لا يتظاهر في أوقات الدوام الرسمي فهذا محرم، ولا يجوز أن يكون على حساب ساعات العمل.. رحم الله العجيلي الذي كتب هذه المادة في مجلة (الدوحة) التي تصدر في قطر الحريصة على طلابنا ومدارسنا.. هل يخرج اليابانيون وتلاميذهم للتظاهر جاراً نهاراً؟

* * *

في دوحة الأدب

وفي حضرته

مع طه حسين وعنه.. (١)

علماء وحوار

بالمصادفة البحتة، وبسبب عمل جراحي أجبرني على البقاء في البيت بدأت يدي بمعابثة جهاز التحكم.. وبين محطة وأخرى كنت أقف لحظة، فجأة ظهرت صورة بالأبيض والأسود، ووصل إلى سمعي صوت سمعته وأتعشقه لما فيه من هدوء وثقة وحدّية.. كانت صورة عميد الأدب العربي طه حسين والصوت صوته.. تسمّرت بوضعية محددة لم أغيّرها مع ما سببته لي من ألم.. أظن أن الحديث استمر أكثر من ساعة، وانتابني أسف شديد عندما ظهرت على الشاشة شارة نهاية ما سمي (سهرة مع التراث) وأرى أن هذه الشارة مصنوعة حديثاً، وليست اسم البرنامج الأصلي الذي قدمته مذيعة لا أعرف اسمها، ولم يكتب على الشاشة، لكنها بمنتهى الأدب والعلم ولباقة الحوار، فكانت مجرد ناقل للحديث بين الدكتور العميد طه حسين ومحاوريه، والإعداد كان مهماً، إذ كانت تقدم فكرة السؤال والنقاش مع اسم الذي يريد الحديث، وتترك الحوار المؤدب بين العميد ومحاوره، وعندما يعطي العميد إشارة الانتهاء من الإجابة تنتقل إلى سؤال آخر..

طه حسين طوال السهرة لم يغيّر جلسته التي تشبه جلسة الطالب والأستاذ في حلقة العلم والتدريس، والمحاورون على جلالة أقدارهم كانوا يتحدثون باللباقة العالية، وهم يتعاملون مع العميد كما لو أنه يراهم، بل يذكرون كلمة (رأيت حضرتك، شفت حضرتك) وحين كان العميد يجيب

يستعمل الرؤية وتوابعها دون أن تهزّ المشهد الصادق موسيقا تصويرية لتنبي عن جرح الإحساس.

حين تعب العميد قال للجميع (كفاية.. أنا تعبت) لم يحذف المخرج هذه الكلمة، بل بقيت عفوية تماماً، بينما كانت المذيعة تشير للمحاورين بضرورة التوقف.

سؤالي الآن: كم من هذه الندوات نحتفظ بها في أرشيفنا ولا نستفيد منها؟ كم هو ممكن أن نستفيد من أرشيفنا - إن كان موجوداً -؟

هل تغيرت ظروف الثقافة اليوم عن السابق؟

فهل يملك مثقفونا هذه الروح والإحساس بتلقي العلم أمام الأعلام؟

بقي أن أشير في هذه الوقفة إلى أسماء المحاورين الذين كانوا يتحاورون مع الدكتور العميد قبل خمسين عاماً، ويدل على الزمن أن العميد قال: أنا أكتب الآن الجزء الثالث من كتاب (الأيام)..

استطعت أن أدوّن فيما دوّنت من نقاط أسماء: الشاعر والروائي عبد الرحمن الشرقاوي، الأستاذ المؤرخ كامل الزهيري، الروائي الأشهر الأستاذ نجيب محفوظ، المفكر الدكتور محمود أمين العالم، الدكتور عبد الرحمن بدوي صاحب الإسهام الفكري والفلسفي، الأستاذ الدكتور ثروت أباظة، الروائي المميز إحسان عبد القدوس، الإعلامي المثير للجدل والذي رحل عن دنيانا منذ أسابيع أنيس منصور هذه الكوكبة من الكبار كانت تتحلق حول الدكتور العميد طه حسين لتأخذ خلاصة التجربة، ورواسم المرحلة المقبلة.. هل نمارس هذا الفعل في نقل المعرفة؟!

* * *

مع طه حسين وعنه.. (٢)

الشعر والنـــزوة:

عرف الشاعر عبد الرحمن الشرقاوي بإبداعه المتنوع والمتفوق الذي ينزع نزعة يسارية صوب الإنسان وهو صاحب الفيلم المعلمة الكلاسيكية (الأرض) وهو صاحب مأساة الفتى مهران، وهو من بعد صاحب الموسوعة المميزة (علي إمام المتقين).. عاش الشرقاوي هواجس الشعر والمسرح والإنسان والعدل، الشرقاوي صاحب هذا التاريخ يسأل طه حسين عن الشعر، وعن أشعار الدكتور العميد، ويأتي جواب الدكتور العميد صادماً صادقاً، «الشعر كان عندي نزوة، وانسلاخي عنه كان طبيعياً، وتركت الشعر للشعراء الحقيقيين» كذلك أجاب الدكتور العميد، فهو العميد الذي لم تجعله عمادته وأستذته مغروراً معتداً بقريحته الشعرية، بل اعتبر بتواضع الكبار ومعرفة القدر الحقيقي للأشياء أن الشعر ليس ميدانه، فتركه لمن يجيده..! لم يجد العميد حرجاً في أن ينفي الشاعرية عن نفسه، بل لم يجد حرجاً بأن يقول لمحدثيه: لا أحفظ من شعري شيئاً، فشعري نزوة.. وربما أراد العميد أن يقول: إن النزوات لا تعيش طويلاً.. كل يوم يخرج مقتدر على نشر قصيدة أو مجموعة ويروّج لها ما بوسعه، ويصلب المجالس ليسمعه شعره بصورة إجبارية، ويحرد إن قلنا إن المتنبي أكثر شاعرية منه! والعميد طه حسين يحفظ الناس أشعاره المميزة وفي مناسبات كبيرة، وفي شخصيات مهمة في تاريخ مصر، ومع ذلك لا يعتد الدكتور بشعره، ويراه نزوة لا تستحق الوقوف عندها..!

والذي يهمنا هنا أن موقف طه حسين من شعره الذي قاله في شبابه في غمرة النزوات، أن موقفه من شعره النزوة سمح له أن يكون ناقداً حقيقياً عندما تحدث عن شوقي وشعره المسرحي تحديداً، وعلى الرغم من مداورة الشرقاوي ومحاولة الالتفاف على طه حسين إلا أن طه كان واضحاً في تبرير نقده لمسرح شوقي، وواضحاً في حديثه عن الشعر المرسل في القصة والمسرح.

«ملاحظاتي على مسرح شوقي تتعلق بالوزن والأبحر الشعرية، لا يجوز الانتقال من وزن إلى وزن في القصة الشعرية أو المسرحية الشعرية، وهذا الانتقال هو عجز عن الاستمرار بوزن واحد.. أما ما تتحدث عنه من الشعر المرسل، فلا بأس به شرط أن يرتقي وتكون فيه الموسيقا والشعر، فمن حق الشعراء أن يكتبوا قصصهم شعراً مرسلاً متى شاؤوا.. وأنا لم أنكر حرية الشعراء في تغيير الأوزان أو التخلي عن الأوزان ضمن الشروط..».

هكذا هو الدكتور العميد طه حسين - إن اختلفنا أو اتفقنا معه، يقدم الأمر، أو بين يدي القضية، دون أن يفرض شيئاً على المتلقي أو المحاور، وعندما ينتقد ينتقد لعلة ما، أو لسبب محدد، أو لقواعد وشروط موضوعية..

بهدوء واقتضاب وكلمات موجزة ومعبرة وغاصّة بالاحترام يتحدث طه حسين عن شوقي..

والسؤال اليوم: أين أخلاق العلم هذه؟ حتى الذين يأخذون على طه حسين أشياء وأشياء، هل يمتلكون هذه الفضيلة من الدقة في الإشادة والاختيار؟

يلزمنا الكثير حتى نجد مثل هذه الأخلاق العلمية، والمؤلم أننا في سباق مع الزمن.. فقد ولّى..!

واليوم نسمع ونقرأ لمن لا يقيم جملة أو بيت شعر نقداً يطاول هامات كبيرة دون أن يرمش له جفن ضمير!!

* * *

مع طه حسين وعنه.. (٣)

مؤلفات لم تتم:

يتحدث طه حسين عن مؤلفاته بعفوية، لا يعتد بكتاب دون آخر، ولا يرى أن كتاباً من كتبه يحمل أهمية أمام المتلقين.. وفي هذا الجانب سأل ثروت أباظة طه حسين عن سبب عدم إتمام الدكتور لروايته (ما وراء النهر) التي بدأها ولم تكتمل، فجاء جواب الدكتور طه مفاجئاً لي عندما قال مجيباً: الأمر ببساطة أنني كنت أنشر هذه الرواية مسلسلة في مجلة الكاتب المصري، فوقفت المجلة، ولم أتمّ الرواية حتى الآن.. وفي هذا الجواب طبيعة وطبيعية، فنحن أمام أديب من الصنف العزيز الذي لا يتكرر، فهو يكتب إملاء، ومع كل عدد من المجلة يملي فصلاً، وعندما توقفت المجلة عن الصدور توقفت كتابة الرواية!!

وهنا يحسن بنا أن نتوقف عند دور الإعلام، والعلاقة الوطيدة بين الأدب والإعلام عبر الزمن، ويمكن أن نعرف الأسباب التي ربطت القراء بالإعلام، فأساطين الكتاب ينشرون إبداعاتهم وأعمالهم وقد تابعنا إلى أمد قريب روايات مسلسلة في مجلة الآداب وفي غيرها، كما تابعنا كتباً ودراسات وسيراً مسلسلة، وهذا ما يجعل ارتباط القارئ بالإعلام والكاتب قوياً، ويتساءل المرء: هل كان الإعلام دافعاً للكتابة عند المبدعين؟ هل كان طه حسين وغيره يكتبون بحافز الإعلام والقارئ والمتابعة الدورية؟

هل يعود لغياب هذه الروح التواصلية بين الأدب والإعلام السبب في تراجعهما معاً خطوات إلى الوراء؟ هل شكل غياب الصحافة الأدبية المتخصصة سبباً في غياب الأدب النوعي؟

لا تزال دوريات أدبية تصدر مثل مجلة القصة في مصر، وتقدم أعداداً مميزة، ولكنها تبقى في نطاق ضيق، وأين منا تلك العلاقة الوطيدة بين الأدب والإعلام؟!

الطريف أن الدكتور العميد لم يبد أي أسف لعدم إتمام رواية (ما وراء النهر) لتوقف كتابتها بعد توقف مجلة الكاتب المصري ولو تهيأ له أن يعود فإنه لابد أن يعود من البداية، لكنه وعد في الحديث بجزء ثالث للأيام وكان ذلك، وقد عزا سبب تأخره إلى ضيق الوقت، فقد أملى الأول والثاني في باريس وهو بحاجة إلى إجازة ليملي الثالث.

لكن ما يلفت الانتباه أن الدكتور العميد وقف مطولاً عند كتاب من أهم كتبه (الفتنة الكبرى) وقال: أتمنى أن أتم كتاب الفتنة الكبرى، وهو من الكتب التي لا تنتهي الكتابة فيها، وأضاف: هناك جزء بحاجة إلى كتابة عن تطور الأحزاب السياسية الإسلامية وخاصة بعد الترجمة وتأثر الناس بالثقافات، وقد تحولت هذه المذاهب إلى أحزاب تطالب بالعدالة، ونشأت عنها بعض الثورات مثل ثورة الزنج والقرامطة.. وهذا بحاجة للتفرغ والإتمام..

تمنى الدكتور طه حسين وقتاً وتفرغاً لإتمام كتاب (الفتنة الكبرى) ولكنه أضاف: الوقت لا يكفي، وإن لم أتمكن من إتمامه أتمنى أن يأتي الآن أو غداً من يتم الكتاب وفق المنهج العلمي.

ليست غاية طه حسين أن يضيف كتاباً إلى مؤلفاته بقدر ما هي معالجة موضوع ملح، ونحن اليوم في عصر الفتنة الكبرى والأكثر فتنة ألا نحتاج إلى دراسة الجذور واجتثاثها؟!

مع طه حسين وعنه(٤)

القصـــة والواقع:

بين كافكا وغيره من الكتاب الذين رافقوا زمنه، أو الذين تأثروا به في زمن ما دار حديث لطه حسين رداً على سؤال من رائد القصة العربية نجيب محفوظ، والذي يريد أن يعرف سبب سؤال نجيب محفوظ، وتأثير ردّ السيد العميد عليه، يجب أن يكون قد بدأ بقراءة نجيب قراءة شاملة في الموضوعات على الأقل، إن لم ندخل في التفاصيل.. الذي يهم هنا هو الفهم الذي يقدمه عميد الأدب العربي للقصة والرواية، فهو بدأ رده على سؤال نجيب محفوظ بعبارة فيها من القسوة في الحكم ما فيها (القصة الفلسفية إفلاس) هذا الحكم ولم يتردد في الجزم على مداخلة لنجيب محفوظ الذي وجد نفسه مضطراً لتغيير وجهة السؤال، ليميز طه حسين بين الحقيقة والخيال في فن القصة بقوله: (أرتاح للمنهج الذي يتاح للكاتب حسب القصة التي يتناولها.. فأنا عندما كتبت الفتنة الكبرى، مرآة الإسلام كنت مؤرخاً فقط، ولم أتجاوز، وعندما كتبت هامش السيرة، الوعد الحق فقد كتبت ما يسمى النثر الأدبي الذي يرجع إلى نصوص ثابتة، يبدأ بالخيال وينتهي بالتاريخ، ومثال ذلك قصة بلال مؤذن الرسول صلى الله عليه وسلم يمكن أن تكون فيلماً لأنها تبدأ خيالياً وتنتهي واقعياً وتاريخياً، الخيال بدأ مع أمه وأبيه حيث بإمكان الخيال أن يبدع، فبدأ الخيال معهما، ومن ثم تمّ الانتقال إلى الواقع مع وجود النصوص التاريخية) أما ما السبب الذي دعا العميد إلى رفض القصة الفلسفية؟ هل هو مذهب أدبي؟ هل هي الرغبة في الواقع؟

توجه طه حسين بحديثه إلى نجيب محفوظ الذي جرّب حظه في عدد من الأعمال الفلسفية، ويبدو أن الأمر كان في تلك الحقبة التي طرح فيها السؤال على طه حسين، ولم تجد تلك الأعمال قبولاً لدى العامة واقتصر قبولها على نخبة لم تستطع أن تخدمها أو تستفيد منها، وفي الجواب حذق لا يصل إليه سوى قلة من المتحدثين بوزن عميد الأدب العربي، فقد أجاب بأن القصة الفلسفية إفلاس بكل حسم وحزم، وتوجه إلى نجيب ممتدحاً رواياته الواقعية المميزة، خاصة الثلاثية، ومن يَعُدْ إلى مقالات عميد الأدب العربي في عدد من كتبه المجموعة (من بعيد وأشباهه) سيقف على مقالات عديدة تناولت روايات نجيب محفوظ وشخصياته، وفي هذه المقالات يعطي طه حسين درساً مهماً للكتاب والنقاد والإعلاميين في التعامل مع الإبداع، إذ لم يمنعه ولعه بالأدب والرواية، بل كتابته للحب الضائع ودعاء الكروان والرواية الذاتية الأيام من أن يقف بتقدير عند تجربة روائي من طراز نجيب محفوظ، وآخر من طراز يوسف السباعي.

أود لو أعيد نشر مقالات طه حسين التي تناول بها إبداع معاصريه، بل منافسيه دون أن يمنعه من ذلك مانع، وكل غايته كانت الترويج للأديب المصري والأدب الراقي معه قبل كل شيء، بينما لا نجد مثل هذا الاقتراب المنهجي أو العلمي أو الوطني لدى أغلبية ممارسي النقد والكتابة الإعلامية!

بعد هذا الاستطراد أعود إلى مغزى إجابة طه حسين على سؤال نجيب محفوظ، فالعميد يعرف قيمة نجيب محفوظ الأدبية والروائية، ويعلم أن نجيب جاء إلى الأدب مدججاً بدراسة الفلسفة، لذلك لم يشأ أن يكون جارحاً، فأعطى حكمه على القصة الفلسفية، وأردف: إن القصة الفلسفية عندما درجت ونجحت في فرنسا، فذلك يعود إلى إفلاس فكري وأبدي ومرحلي سرعان ما انتهى، وتخلى الناس عن الفلسفة في الأدب.. طبعاً هذه الإجابة أراد منها طه حسين

بذكاء وقاد أن يطلب من نجيب محفوظ الابتعاد ما أمكن عن القصة الفلسفية الصرفة، إذ لا تخلو رواية لنجيب أو سواه من الفلسفة، ولكن لم يشأ أن يجيبه نجيب محفوظ، وهو من هو، بإجابة قاسية، بل أشار إلى إفلاس القصة الفلسفية، وأشاد بتجربة نجيب الواقعية، ولعلّي بالسيد العميد يريد توجيه بوصلة الكتابة لدى نجيب محفوظ، وقد أفادت مثل هذه الملاحظات كثيراً، وكان نجيب محفوظ في مكان الذروة في الأدب الروائي والقصصي على مستوى العالم العربي والعالم أجمع.. فهل أدرك نجيب محفوظ وقارئوه وناقدوه أن ما أراده السيد العميد الدكتور طه حسين من انحياز إلى الواقع هو الذي جعل طه حسين في مكان الذروة العالمية..؟

ولكن الأهم هل نتعلم من مثل هذه الندوات فضيلة التوجيه الحسن واللبق مهما امتلكنا من علم؟ وهل نعرف كيفية الاستفادة من توجيهات الكبار دون أن يمنعنا من ذلك غرور ساقه الله إلينا من نجاح عارض أو أصيل؟

* * *

مع طه حسين وعنه(٥)

الوضوح والمنطقية...

(عندما كنت عميداً استقلت لأن الدولة تدخلت فيما لا يجب أن تتدخل فيه) كذا تحدث طه حسين إلى محاوريه عن أسباب استقالته من العمل الإداري في الجامعة والعمل الحكومي، وهنا عدت بذاكرتي إلى الوراء حين تابعت بشغف وحب فيلم (قاهر الظلام) حين جسد الكبير محمود ياسين بصوته المماثل وسحنته القريبة دور طه حسين، وإلى مسلسل الأيام ليحيى العلمي حيث جسّد الشخصية المؤثرة الكبير والمبدع أحمد زكي، وفي هذين العملين الفيلم والمسلسل عرفت قيمة أعمال السيرة الحقيقية التي أغنت ذاكرة الأجيال الجديدة والناشئة بسيرة رجل من الطراز الممتاز قبل أن تتحول أعمال السيرة إلى تجارة رابحة ورائجة وبعيدة عن الحقيقة.. عدت بذاكرتي إلى مشهد التظاهرة الظلامية التي كانت تنادي بسقوط الأعمى، وإلى مشهد العميد الذي قال لهم: أحمد الله أنني أعمى ولا أرى وجوهكم...!

طه حسين بوضوح شديد، ودون أي ادعاء بنزاهة وما شابه يقول: استقلت لأن الدولة تدخلت فيما لا يجب أن تتدخل فيه، وما هو الشيء الذي لا يجوز أن تتدخل فيه؟ إنه التعليم، فطه حسين يرى أن التعليم مؤسسة مستقلة ويجب أن تحتفظ باستقلاليتها، وهذا ما كان من العميد في كل قرارات الإيفاد وما شابه، وهناك من يأخذ عليه استبداده واعتداده لأصحابه، وهذا شأن آخر ومختلف يحاسب عليه تاريخياً، ولكن يسجل له حفاظه على الروح الأكاديمية...

ربما شعر عبد الرحمن الشرقاوي بأن العميد لا يريد الإطالة في الإجابة عن أسباب الاستقالة، فعاد به إلى الروايات التي لم تتم فتحدث العميد عن (طريق الحرية) التي كتب منها جان بول سارتر أربعة أجزاء ولم يتمها.. وأشار إلى أن الموضوع الذي يود الكتابة فيه مرة أخرى ومرات هو أبو العلاء المعري، وأضاف العميد بعبارته (القول في أبي العلاء لا ينقضي ولا ينتهي، فهو كنز لا آخر له من اللزوميات إلى سقط الزند ورسائله الغفران، وزجر النابح، والملائكة وغيرها.. أبو العلاء موضوع متجدد دوماً) العميد طه حسين بعد سنوات طويلة من (تجديد ذكرى أبي العلاء) يود أن يعود إليه، يقر بأن الموضوع أكبر من الباحث الذي هو، ولم يدع طه حسين، وهو من هو، أنه أشبع الموضوع بحثاً ودراسة، ولم يقل: إنه لم يترك بعده شيئاً لمستزيد، بل بقيت الزيادة للجميع، والكنز متاح لمن يريد، وبالمناسبة عند كل سؤال عن موضوع يحبه كان طه حسين يقول: أتمنى لو يدرسه أحد الباحثين، ولم يكن أنانياً في اختيار الموضوعات الخاصة له...! وهذا يذكرني بعدد من الباحثين الذين يعلنون أنهم يعدون أبحاثاً تراثية أو معاصرة، وينشرون أسماء الأبحاث، وبذلك يحرمون الباحثين، خاصة الطلبة الذين يختارون موضوعات للدراسات العليا من اختيار موضوع مشابه أو مقارب.. بل إن طه حسين لم يكن ليمانع، وقد كان واضحاً في حديثه عن تعريف القدماء بأبي العلاء، في الأبحاث التي ألقيت احتفالاً بالمعري في المعري قبل نصف قرن، لم يكن طه حسين ليمانع في أن يدرس أي باحث ما قام هو بدراسته، لأنه يرى ذلك تعزيزاً لآرائه التي وصل إليها بعد بحث طويل طويل.

ومرة أخرى يسأل عبد الرحمن الشرقاوي ليجيب طه حسين معلماً ومرشداً لمن بعده في الوضوح والمنطقية عند كل سؤال ومفصل، يسأل الشرقاوي عن المسرح وقصته فيضيف نجيب محفوظ مخاطباً العميد: الأستاذ عبد الرحمن له (مأساة الفتى مهران) ما رأيك بها؟

لا يتردد طه حسين في القول:

أنا لا أذهب إلى المسرح، ولا أعرف شيئاً عن الفتى مهران، فلم يقرأها أحد علي، وعندما أقرؤها سأقول رأيي حتماً.

لم يشأ طه حسين أن يكذب أو أن يجامل الشرقاوي وهو الأديب المجلّي، والذي يحسب حسابه من كبار الأدباء والنقاد..

وهل يتوقع المرء من رجل استقال لأن الدولة تتدخل فيما لا يجب أن تتدخل فيه أن يجامل أديباً ذائع الصيت؟ دروس مهمة في التواضع والوضوح والمتابعة نتعلمها من طه حسين، هذا إذا لم نتفق معه في أي مذهب أدبي أو رأي.

* * *

مع طه حسين وعنه (٦)

الكتاب والقراءة

ما قيمة ما يقدمه الكتاب؟

ماذا يقرأ العميد طه حسين؟

لمن يقرأ من الكتاب؟

أسئلة عديدة طرحها في لبوس مهذب الدكتور محمود أمين العالم على الدكتور طه حسين، وواضح من الأسئلة ومن تعامل الدكتور طه مع العالم في الجلسة أنه يكن له احتراماً خاصاً، ولم يشأ الدكتور طه أن ينهي الجلسة دون أن يتحدث عن أهمية محمود أمين العالم وما يقدمه.. قال طه حسين: «أستثني محمود أمين العالم فأنا أجد فيه متعة وتعمقاً فيما يكتب، وأنا أجد متعة فيما أقرأ له..».

وحين خلص من استثنائه، وهو هنا دقيق للغاية في التمييز بين المبدعين والكتاب عاد ليتحدث عن آفة موجودة في أوساط الكتاب العرب، ولنا أن نتخيل أن طه حسين قبل أكثر من خمسين عاماً عانى من هذه المشكلة التي نراها اليوم في مجتمعاتنا مستفحلة..

«أتمنى على الكتاب أن يقرؤوا أكثر مما يكتبون. كتّابنا قليلو القراءة، أظن أن الذين يقرؤون نادرون، وما يكتبونه لا يدل على قراءة عميقة.. أنا ليست قاسيا في حكمي، حبي لهم هو الذي يدفعني إلى أن أريد لهم أفضل مما هم عليه، أظن أن وسائل الإعلام السهلة منعت من القراءة، مع أنها وسيلة قراءة ومعرفة».

قد يكون هذا المفصل من أهم المفاصل التي أقف عندها وأجدها في غاية الخطورة، ولكننا لا نجد بين كبارنا من يقول هذا الرأي التقويمي المهم، ولا نجد من يتقبله، وأذكر هنا أنني كلما شاركت في لقاء مع عدد من الزملاء أفاجأ بأن بعضهم لا يعرف الآخر، بل لا يعرف شيئاً عن أنشطته، بل لم يقرأ له مقالة أو حرفاً أو كتابا!! معيب جداً اليوم أن نجد كتاباً لا يقرؤون للآخرين، ولا يقرؤون إلا ما يكتبونه هم! ولكن لم أكن لأتوقع أن يضع طه حسين يده على المشكلة بكل جرأة ووضوح قبل خمسين عاماً، ودون أي انفعال، ليظهر بما لا يقبل النقاش أن الخاسر في معركة الكتابة والقراءة هو الكاتب الذي يكتب ولا يقرأ، لأن أفكاره لن تكون عميقة.. كما هم في منابر وأماكن الذين يهبشون كلمة من هنا وأخرى من هناك، عن هذا الموضوع أو ذاك، فيخلطون ما هو سياسي بما هو ثقافي وما هو فني في مزج غرائبي عجائبي لتكوين صورة غائمة، ويتبعون فذلكة لغوية أو شكلية لمحاولة إضفاء الغرابة والخصوصية على ما يتم طرحه من موضوعات وأشكال! كثيرون هم الذين يتحدثون عن الأدب ولا يعرفون الأدباء.

كثيرون الذين يتحدثون في الصحافة وكل ما يعنيهم أن يصوغوا موضوعاً يصفونه بالمهنية تنتهي بحمد الله بنتائجه الكارثية بعد دقائق هذا إن قرئ!!

الحب هو الذي دفع طه حسين لهذا القول المهم، فهم ليسوا مضارعين له، ولا يخوض معهم معركة تنافسية أو من أجل البقاء أو الموقع، فمن استقال من الحكومة لأنها تدخلت فيما لا علاقة لها به لا يستطيع أحد أن ينافسه أو يتقرب منه أو يدانيه معرفة أو عمقاً، لكن طه حسين يريد للأدباء والنقاد أن يكونوا أكثر عمقاً، ولا يكون ذلك إلا بالتجديد والقراءة والمتابعة، وهذا ما لا يتوافر في الأدباء والنقاد، وربما رأى أن بعضهم سيعترض على جانب فأشار إلى دور وسائل الإعلام، ولم ينس أن يوجه إلى دور وسائل الإعلام التنويري والتثقيفي ولكننا لا نستغل هذا الواقع!

ترى لو كان طه حسين بيننا اليوم فماذا سيقول؟

لو رأى كل هذه التقانات والثورات التواصلية فماذا سيقول؟

من حسن حظ طه حسين أنه سمع بيانات حرب تشرين «أكتوبر» الأولى وسمع النصر ثم أسلم روحه والحرب دائرة، ولم يعش الزمن الذي صرنا فيه على هامش الزمن وحتى الثورة في الاتصال استفاد منها الآخرون وتحولت عراقة مصر وسورية إلى كائن يعيش تحدياً كبيراً مع العالم.. ولكن رهان العراقة سينتصر، وكل سيأخذ حجمه ومكانه ذات يوم، وكل من عمل على تحطيم كليوباترا وفرعون، وكل من عمل على قص جوانح طائر الفينيق والعبور من باب الجابية مرة أخرى سيعود أدراجه من جديد.

*   *   *

ميخائيل نعيمة صرخات موزونة

ومؤثرة في همس الجفون

منذ أيام، أسابيع كنت أتحدث إلى صديقة هي في مكان رفيع مبنىً ومعنى لدي، أحدثها وأنا أعلم ما فيها من وجع عاصف في هذه الآونة، وكانت مفاجأتي عندما حدثتني هذه الصديقة الغالية عن ألم ممض تحياه في روحها، انفلت الألم من عقاله ليدخل الجسد ويسبب آلاماً شديدة استمرت وقتاً حتى طمأنتني... وأنا في مثل هذه الأزمات التي لا تعنيني وحدي أكون واضحاً جداً، ولكنني في الوقت ذاته أهرع إلى أصدقائي لأقاسمهم رؤاهم وأفكارهم... فكان ميخائيل نعيمة الصديق الورقي الذي هرعت إلى فلسفته وفكره في (همس الجفون).

وللجفون همسها

منذ أمد عدت إلى جبران الرائع، وقرأته لمرة لا أعرف رقمها وخرجت من هذه القراءة بما يشبهني، واليوم أجدني أعود إلى ميخائيل نعيمة المهجري الأكثر عمقاً وعذوبة، الفكر الثرّ، والشعر الجميل، والرسم الذاتي والأيقوني المميز... أعود إليه في أرقّ أعماله (همس الجفون) فلا أقترب من غرباله، ولا أمتثل قوله (من غربل الناس نخلوه) فالوقت لا يحتمل الغربلة، وما نحن فيه من أزمة لم يُبق أحداً فوق الغربال، ومن أسف فإن الجميع ومن

كل الأطياف لم تساعده أنانيته ورؤاه الضيقة من البقاء فوق الغربال فانهال بسرعة إلى ما تحت الغربال واختلط بكل ما نزل بعد أن كان يمثل الاستعصاء وصعوبة النزول من الغربال... وأمام الغربلة التي لم تسمح لأحد أن يبقى، والتي كشفت هشاشة الذرات المتورمة كان لابد من الابتعاد عن الغربال والغربلة للدخول في مناطق يصعب أن تطبق على مرض، إنها الجفون التي تطبق على عين وهمس... ويزيد من الاطمئنان غرابة ما يريده ميخائيل نعيمة ففي أغمض جفونك تبصر دعوة لا تشبه سواها:

إذا سماؤك يوماً تحجّبت بالغيوم

أغمض جفونك تبصر خلف الغيوم نجوم

وإن بليت بداء وقيل داء عياء

أغمض جفونك تبصر في الداء كل الدواء

وعندما الموت يدنو واللحد يفغر فاه

أغمض جفونك تبصر في اللحد مهد الحياة

في الإغماض يكمن الإبصار عند ميخائيل نعيمة، ويمكن أن نفهم دعوى الإغماض حين نتعمق في قراءة نعيمة وفلسفته في الشعر والحياة، وهو الباحث دائماً عن جديد يضيفه إلى روحه وفكره من الشرق والغرب... وعندما يفتح نعيمة عينيه ويغمضهما فإنه يصل إلى العمق في أوائل القرن العشرين بعد انتهاء الحرب الكونية الأولى... ولكن هل كان نعيمة يقدّر بأن ما عانى منه سيبقى علامة للغيوم والبحث عن النجوم الدواء واللحود والموت والحياة بعد قرن كامل من الزمن الذي يفصل بين قصيدته وبيننا؟!

الأخوّة... الآخر والأنا

بين الموت والحياة خيط رفيع من الزمن، وإحساس بعيد الغور لا يلتفت إليه إلا القلة من الذين ملكوا البصيرة النافذة والعميقة إحساساً ومسؤولية...

وفلسفة الموت وعلته يدور في فلكه أحدنا ولا يدري الغاية... يغتالنا الموت وننسب الاغتيال إلى الخالق! بيده ملكوت كل شيء ولكن هل بيده الاغتيال؟... بحث نعيمة وهو بعيد الغور في رؤيته إلى هذه اللحظة فدارت رؤاه بين مواراة الموتى ومواراة الأحياء ليقدم رؤية متكاملة لدوران الحياة مخاطباً الأخ في الإنسانية، ومن ثم يخاطب الأخ العربي والمشرقي:

أخي، إن ضجّ بعد الحرب غربي بأعماله
وقدّس ذكر من ماتوا وعظم بطش أبطاله
فلا تهزج لمن سادوا، ولا تشمت بمن دانا
بل اركع صامتاً مثلي بقلب خاشع دامٍ
لنبكي حظ موتانا

وبفهم عميق ينتقل في أعماق الأنا ليصور ما يعتلج من الداخل، ومن هذه الأعماق يخرج نعيمة لتبدو المفارقة القاسية من حظ الموتى إلى أشباح الموتى، إلى أجياف الموتى، إلى مواراة الموتى... وتكون الخاتمة القاسية بمواراة الأحياء.

أخي، من نحن؟ لا وطن ولا أهل ولا جار
إذا نمنا، إذا قمنا، ردانا الخزي والعار
لقد خمت بنا الدنيا كما خمت بموتانا
فهات الرفش واتبعني خندقاً آخر نواري فيه أحيانا..

الأحياء نبحث عن مكان لمواراتهم:

والأخطر أن يكون هؤلاء الأحياء بحاجة إلى من يحفر خندقاً لمواراتهم.

كيف لا يكون ذلك ونعيمة يتحدث عن ضياع الأرض والوطن والجار، وعن الخزي والعار الذي يحيط بنا ويلبسنا ونلبسه، وعن تساوي الحال بين الموتى والأحياء على السواء؟

كان ذلك في نهاية الحرب الأولى ١٩١٧ كما هو مؤرخ فهل اختلف الأمر بعد قرن من الزمن؟

كم أتمنى أن يقرأ القارئ العربي هذه القصيدة التي تدخل في عمق الذات والوجع، فنحن لا نريد، ونحن لا ينبغي الخروج من واقع مترد، وفي الوقت ذاته الآخر لا يريد لنا الخروج أو النجاة مما نحن فيه وما بين إرادة الآخر، وكسل الأنا يحيا أحدنا تعساً ميتاً، بل نحيا نحن كما لو كنا خارج الحياة التي يجب أن نحياها. وقد كان ميخائيل نعيمة دقيقاً، فلم ينسب إرادة الحياة الجيدة للذات، بل بقي بين إرادة الغرب وكسل الشرق، وهل أعمق من تعبير المشيئة؟

أخي، قد تم ما لو لم نشأه نحن ما تما

وقد عم البلاء، ولو أردنا نحن ما عما

فلا تندب، فأذن الغير لا تصغي لشكوانا

بل اتبعني لنحفر خندقاً بالرفش والمعول

نواري فيه موتانا

حضور في الأنا لقد احتضن أدباء المهجر دون سواهم في الحديث للذات وعنها وللإخوة وعنها، أبو ماضي سأل أسئلته الكثيرة، وكان جهل الحقيقة مصيره، وكذلك فعل جبران والقروي وغيرهما، وربما تكاثرت القضايا الإنسانية والذاتية في المهجر الشمالي بسبب الابتعاد الجزئي أو الكلي عن الموطن الأصلي وهمومه، فالوطن وإن كان حاضراً إلا أنه لم يكن مؤثراً بالقدر الكافي إلا عند أبي ماضي ولكن العمق الفلسفي والبعد الإنساني عند ميخائيل نعيمة غير المنحى وأعطانا رؤية بعيدة الغور في خطاب نفسه، وهو هنا لا يحقرها ويعيدها إلى أصلها الطيني، ولم يعير النفس بمنطلقها ومآلها، بل عمد إلى إضفاء صفات من العشق والقداسة والألوهة على نفس الإنسان، على نفسه:

إن سمعت البلبل الصداح بين الياسمين
يسكب الألحان ناراً في قلوب العاشقين
تلتظي حزناً وشوقاً، والهوى عنك بعيد
فأخبريني، هل غنا البلبل في الليل بعيد
ذكر ماضيك إليك؟
هل من الألحان أنت؟
إنه نفسي أنت لحن في قد رنّ صداه
وقعتك يد فنان خفي لا أراه
أنت ريح ونسيم أنت موج أنت بحر
أنت برق أنت رعد، أنت ليل، أنت فجر
أنت فيض من إله

وبحثاً عن الأنا وأمانيها وأحلامها يكثر الشعراء من الحديث عن التمني، الواقع لا نشبههم أبداً، لذلك يسعون إلى تشكيل عالم من الأمنيات، عوالم مختلفة لا يرونها، وعوالم أخرى صعبة التحقيق.

«هو المغربل كما دعا نفسه، يهمه قبل كل شيء أن ينقي ما يغربله من الأحساك والزوائد، وأن يظهر ما فيه من جمال وقوة وغيرهما من الصفات التي تؤهله لأن يقرأ ويدعى أثراً أدبياً..» هكذا تحدث ميخائيل نعيمة عن نفسه لأستاذنا الراحل الدكتور عبد الكريم الأشتر، وتابع في الحديث عن شعره ومنهجه الشعري والروحي فيقول:

«وإذا نظم الشعر جعل للقصيدة وحدة، ونفر من الغزل المألوف والرثاء والهجاء والموضوعات الشعرية المعروفة عند العرب، ولم يبال بالقافية الواحدة فإذا قال في أوراق الخريف مثلاً، جعل الأوراق تتناثر أمام عينيك، جعلك تسمع حفيفها وهي تتناثر، وترى رقصتها وهي تسير مع الريح أو

تكرج على الأرض وخلق في نفسك جواً يماشي تلك الصورة بكل معانيها، ثم استخرج لك، من هذه كلها أفكاراً تستوقفك ويستغويك، كي لا يكون ما عرضه عليك تسلية لا أكثر...» أوراق مهجرية ص ٧١

وفي شعر نعيمة كله يصدق نقده الذي وضعه لنفسه على نفسه، وعندما يتحدث عن الأمنيات، يصف التمني بالمربوط بحبل، ولا يحدد أمنياته لأنه يدرك صعوبة تحديد الأمنيات.

نتمنى، وفي التمني شقاء
ونناديي يا ليت كانوا وكنا
ونصلي في سرنا للأماني
والأماني في الجهر يضحكن منا
غير أني، وإن كرهت التمني
أتمنى لو كنت لا أتمنى

ويتابع فلسفة الأمنيات:

أتمنى ما زلت أجهل نفسي
وأنادي يا ليتني ولو أني
وأصلي في داخلي للأماني
والأماني من الجهر يضحكن مني
غير أني لا بد أبلغ يوماً
فيه أمسي حراً عديم التمني

ما بين التمني الجمعي في المطلع والتمني الفردي في الخاتمة، قد يتحول الفرد إلى جماعة وقد يكون الفرد جماعة أو ناطقاً عنها، لكن الرحلة ما بين البداية والنهاية تهفو عند نعيمة إلى الحرية، والحرية فقط، ومن هنا كانت مسوغاً تلك المناقشة الفلسفية العميقة في الأمنيات، فالقصيدة قامت على

محاكمات ومماحكات وصور ليست حالمة بقدر ما هي من أعماق التكوين الفكري الجمعي والذاتي عند نعيمة ومجتمعه.

محاكاة الكون:

قلّما نعثر على شعر أو نثر لميخائيل نعيمة لا يقوم على حوار عميق لمفردات الكون، فهو متأمل دوماً، تائق إلى المثال من كل شيء، ناظر إلى كل شخص دون أن يغضّ من قيمة أحد من الناس أو الفعاليات، وسبب ذلك رؤيته الإنسانية بعيدة الغور، والتي قرأناها ذات يوم في قصته (أبو بطة) وهو ما يعزز رؤيته الإنسانية، وإحساسه بالآخر، وقد يكون الوحيد بين أدباء العربية الذي انتقل من الاتحاد السوفييتي إلى أميركا، فعاش الثورة البلشفية في أوجها وذروتها الفكرية، ويعيش فيما بعد النقيض الأميركي ويستمر في العيش.. وهذا الأمر يبعد الاستغراب عن فكرنا حيال نعيمة وأحاسيسه العالية.. وهو في (لو تدرك الأشواك) يحاكي مفردات عديدة: ساقي الجلاس، مرسل الألحان، ساكن القصر، الجالس بين اللحود، حاشد الأموال، حامل الإنجيل، الزهرة.. والجامع الوحيد بين هذه المفردات هو الفكر، فنعيمة قد لا يكون الشاعر المتفوق فنياً، وهو هنا ليس كذلك، لكنه صاحب رؤية وفكر لم يشأ أن يترجم فكره ورؤيته في حديث تنظيري، واختار لذلك الشعر..

يا ساقي الجلاّس بالله لا
تحفل بكاسي بين هذي الكؤوس
أترع لغيري الكاس أما أنا
فاحسب كأني لست بين الجلوس
لا. لست بالولهان يا صاحبي
فالقلب مني جامد كالجليد
لكنني مصغ لنفسي ففي

نفسي أوتار وفيها نشيد
يا ساكن القصر الجميل اغتبط
يا صاحبي واهنأ بقصر جميل
لا. لا تقل ما راقني قصرك العالي
أو أني لم يطب لي هواه
يا جالساً بين اللحود التي
سكانها أضحوا تراباً ودود
إي، إن من تبكيه يا صاحبي
لا شك خدن أو صديق ودود
يا حاشد الأموال فلساً إلى
فلس يكدّ الليل قبل النهار
لا والذي الأقدار خدامه
ما في قلبي غصة من غناك
يا حامل الإنجيل يدعو إلى
نبذ المعاصي منذراً بالعقاب
إما صممت الأذن عنك فلا
تغضب ودعني في ضلالي أهيم
يا زهرة ما بين شوك نمت
لولا شذاها ضلّ عنها البصر
هل تدرك الأشواك يا زهرتي
أن الشذا هذا شذاك انتشر

القصيدة كلها محاكاة عقلية بين سادر في حياته يفعل ما يحب ويشاء، ومجموعة من المكونات التي تحمل غاية نبيلة، وهو يدرك هذه الغاية لكنه لا يريد أن يغير مجرى حياته وفكره.. وبإمعان النظر في هذه القصيدة، وهي لا تشذ عن مجمل شعر نعيمة –نجده باحثاً أكثر منه شاعراً، ومتعمقاً في الفلسفة أكثر منه غائصاً في ماء بحور الشعر الندي.. وهنا تبرز قضية اللغة الشعرية عنده، فنعيمة في ديوانه ليس شعرياً في لغته، ولا ينتقي الألفاظ والمفردات الشعرية، بقدر ما يبحث عن الكلمة المعبرة والمناسبة لشعره وموضوعه.. وهو في هذا يشترك مع المفكرين أو العلماء الذين اختاروا الشعر وسيلة للتعبير، ولكنه كان بعيداً منهم على الرغم من أنه حمل آراءهم وقدمها للناس كالعقاد والمازني وعمر فروخ وغيرهم.

صدى الإيمان

هل كان نعيمة مؤمناً؟ وما معايير الإيمان؟ وهل من حق المرء أن يحكم على غير ما يقرأ للأديب الذي بين يديه؟ إن الاختيار دليل، وهذا ما قدّمه نعيمة في ابتهالاته.

كحّل اللهم عيني
بشعاع من ضياك
كي تراك
وافتح اللهم أذني
كي تعي دوماً نداك
من علاك
وإذا ما أملي يوماً مشى
تائهاً في مهمه العيش السحيق

عاد لمّا كاد يقضي عطشا
يحتسي الإيمان من قلبي الرقيق
وإذا الإيمان ولّى والرجا أضحى ضرير
فلينم قلبي إلى أن ينفخ البوق الأخير

وما بين الابتهال والرجاء الأخير يقف نعيمة محاولاً تقديم رؤاه الإيمانية التي وإن ظهرت مبتورة بين كلمة وأخرى وبيت وآخر إلا أنها تظهر إيماناً عميقاً، وإن كان مختلفاً في كثير من جوانبه العقلانية التي لا يقترب منها الإيمان الفطري عادة، وخاصة إن وضعنا في حسباننا أن الإيمان شعور فطري عميق مجهول المصدر، ومن العسير أن نقوم بتفسيره أو تأويله.. وفي حال حاولنا سنصل إلى عمق قد لا تدركه ذواتنا.

المحاكمة العقلية والشعر

يؤخذ على كثير من الشعراء تضمين الشعر بآراء أو أفكار فلسفية أو علمية أو غير شعرية، فمصطفى صادق الرافعي استخدم ألفاظ الكهربة والسيال، وتحدث عن القبر والجيفة فلم يستسغ ذلك منه وكثير من شعر المعري ابتعد عن الناس بعمق فلسفته وتحليلاته، ابتعد كثيرون عن ساحة الشعر، ولم يتم تصنيفهم بين الشعراء بتأثير ثقافتهم وعقلانيتهم وربما فقه بعضهم أو الروح التعليمية.. وميخائيل نعيمة بفكره ونقده وثقافته التشريحية نجح في الغربال والنقد، وأبدع في رواية قصة جبران، وقدم نثراً ناقداً وساخراً قصة وحبكة.. ولكن هل استطاع في شعره أن يداني المكانة الفكرية والنقدية؟ إن شعر نعيمة متعة حقيقية للقراءة والتمعن والاعتبار، ولكن لو عدنا إلى عناوين قصائده، بعض العناوين، فإننا سنجد البعد الفكري الذي قد يقف حائلاً أمام الصورة الغنائية (من أنت يا نفسي - تخدير أفكار - الخير والشر - قبور تدور - بين الجماجم - عهد قاطع... الجوع).

العناوين توحي بما وراءها، ولكن لا تظهر الأشياء إلا عند الدخول في صلب النص الشعري، وها هو في تخدير أفكار يعالج الشعر منطقياً وفلسفياً:

بربك، لا، لا تسرقي دمعة الباكي
ولا تخنقي، لا تخنقي أنّة الشاكي...
بربك، أفكاري، وعيني سابحاً
ببحر وجودي - دودة بين أسماك
ضريراً، أصمّاً، أبكماً، متجلبباً
بجهلي وضعفي، دون علم وإدراك
فنصحك تمويه، وصدقك حبة
من القمح في أكداس تبنٍ وأحساك

حكمة، فلسفة، فكر... هذا ما يقدمه نعيمة، والمعالجة العقلية والفكرية تغطي على الشعر وموهبته وجماليته وغنائيته كما تعودنا أن نرى في الشعر وهذا بحد ذاته أبعد نعيمة عن مصاف الشعراء... إذ لا يكفي أن يقوم أديب كبير بصياغة آرائه وفلسفته بقالب شعري قوي السبك ليكون شاعراً، فالفلسفة كانت أبعد غوراً وأعمق عند نعيمة من قصائد صاغها خالية من الغناء والشعر، غنية بالفكر والفلسفة.

وإن أردنا فلنقف عند حوار الخير والشر:

سمعت في حلمي ويا للعجب!
سمعت شيطاناً يناجي ملاك
يقول: إي بل ألف إي يا أخي
لولا حجمي أين كانت سماك؟
أليس أنّا توءمان استوى
سرّ البقا فينا وسر الهلاك؟

ويستمر الحديث كأي مناظرة قدمها إخوان الصفا أو الجاحظ أو التوحيدي في رحلة البحث عن حقيقة الإيمان واليقين، كما يسعى نعيمة في مواطن أخرى لمحاكاة الحكمة عند الفقهاء أو المتصوفة أو التائبين، وقد يتهيأ للقارئ أو السامع أنه أمام أبي العتاهية أو أبي نواس في أخرياته:

ذمّك الأيام لا ينفعك
فهي لا أذن لها تسمعك
لا ولا عين ترى عقرباً
في دياجير الأسى تلسعك
فهي منك الظل يا صاحبي
عجباً ظلك كم يخدعك!

يختم ميخائيل نعيمة همس جفونه بلوحة مؤرخة بـــ١٩٣٠ تحمل عنوان الجوع لا تختلف في شيء عن سائر الديوان بشعره ونثره وهمساته ليشكل بهذه المجموعة المتميزة عالماً من الفكر والعقل والمعالجة الفلسفية النادرة للوحات أخذت سمت الشعر، لكنها بقيت أبداً في طبقات عليا من الفكر وعالمه الذي تميز به نعيمة عن سائر الأدباء، وقد مزج فيه بين الرؤى الشرقية السوفييتية والشرقية بالأصول والفلسفات، والغربية الأميركية، والقائمة على غربة الروح والجسد لطائر عرف أن ما يرجوه من الكون والحياة لا يتعدى القليل من الحاجات، وأن ما يمكن أن يتركه كثير.

ما أحوجنا اليوم وسائر الأيام لميخائيل نعيمة وإنسانيته المبهرة، وإحساسه العالي بالآخر حتى وإن كان جماداً... معادلات مهمة في ميزان الإنسانية صاغها نعيمة شعراً، فكانت صرخات موزونة ومؤثرة لو صادفت من يقرأ ويعي ما يدور حوله في عوالم الأدب والإنسان.

* * *

الدكتور عبد الكريم الأشتر مثال العلم والانفتاح والموسوعية

«هو أصغر أولاد أبيه الثلاثة: قدري ١٩٢٥ وصالح ١٩٢٧ وعبد الكريم ١٩٢٩، ولد في رمضان ١٣٤٨ هـ ـ ١٩٢٩م وهي سنة الولادة الصحيحة وإن سجلت في السجلات الرسمية ١٩٢٨ من أسرة متوسطة الحال، قدم أجدادها من اليمن منذ نحو قرنين من الزمان».

هكذا بدأ أستاذي الدكتور العلم عبد الكريم الأشتر ترجمة حياته بقلمه عندما كتب عن نفسه في سيرته الذاتية المعتمدة، وقد اعتمد الدكتور الأشتر الحكائية في كتابة سيرته الذاتية في الحديث عن الآخر الذي هو ورحلته في الحياة، وبدأ من الميلاد وحقيقته إلى دراسته في كتّاب الشيخ صالح، ثم في مدرسة رسمية، ثم في المدرسة الهاشمية، والتحاقه بالتجهيز الثانية قريباً من سوق القطن. ويستعرض الدكتور الأشتر أساتذته عبد الوهاب الصابوني ومظفر سلطان وإلياس زحلاوي وعبد السلام الترمانيني، وجلهم من المشاهير الذين تركوا أثراً في الأشتر والوسط الثقافي.

الأشتر والتدريس

بدأ الأشتر تدريسه مبكراً ١٩٤٦ بعد حصوله على الشهادة المتوسطة في مدرسة عندان، وفي هذا العام مارس الأشتر مهمة المعلم الوحيد في المدرسة، وفي أثناء تدريسه حصل على الشهادة الثانوية ليلتحق بجامعة دمشق

عام ١٩٤٨، حيث بدأت ملكات الأشتر كما يقول في سيرته الذاتية التي كتبها بقلمه تكتمل، وتكوينه الفكري والأدبي يتبلور شيئاً فشيئاً.

وفي مرحلة الجامعة يقف الأشتر أمام أساتذته الذين كونوا شخصيته وأدبه فيذكر: الأستاذ النحوي سعيد الأفغاني، الدكتور إبراهيم الكيلاني، والدكتور جميل صليبا، والأستاذ الشاعر شفيق جبري، والدكتور أمجد الطرابلسي وذكر أثر كل واحد منهم في حياته ومسيرته فكان الأكثر تأثيراً الأستاذ سعيد الأفغاني، والدكتور الكيلاني الذي أشرف على بحث الليسانس عند الأشتر وهذا البحث الذي استمر معه حتى مراحل متقدمة.

الأشتر والدراسات العليا

عاد الأشتر إلى حلب عام ١٩٥٢ للعمل والحياة، فعين مدرساً، وتزوج عام ١٩٥٣ من السيدة بثينة الصابوني، وبدأ حياته التدريسية والصحفية، كما بدأ رحلة نشر الدراسات والكتب. وفي عام ١٩٥٦ نجح في مسابقة لإيفاد بعض المدرسين إلى معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة وكان ترتيبه الثاني بعد الدكتور شاكر الفحام وقبل الدكتور عمر الدقاق.

وفي هذا المعهد ظهر الدكتور محمد مندور الأستاذ الذي أحبه الأشتر وترك فيه أثراً كبيراً، سواء كان ذلك في الكتابة أم في الطباع، ولا أذكر مرة جلست فيها مع الأستاذ الدكتور الأشتر إلا وكان مندور في الجلسة، وفي سيرته يذكر محطات غالية عليه من محطات أستاذه في هذا المعهد.

ويذكر من أساتذته الدكتور عبد القادر القط، الدكتور إسحق الحسيني، الدكتور عبد العزيز الأهواني، الأستاذ أمين الخولي، الأستاذ شفيق جبري، الأستاذ سامي الكيالي، الأستاذ محمد شفيق غربال.

وفي هذه المرحلة اشترك الأشتر بتأليف ثلاثة كتب مدرسية (التسهيل في دراسة الأدب العربي الحديث) مع صديقه الأستاذ عاصم بهجة البيطار

وكتاب (الدليل) مع خليل الهنداوي والدكتور مازن المبارك، وكتاب (المنهج) مع الأستاذ عاصم بهجة البيطار.

وقد كان أثر هذه المرحلة، وأثر الدكتور مندور واضحين في أستاذنا الدكتور الأشتر رحمه الله، وأذكر أن الدكتور الأشتر عرف بالأدب الحديث ونقده أكثر من معرفته بالأدب العباسي، وفي تدريسنا للأدباء والنقد في العصر الحديث كان الدكتور الأشتر حميمياً إلى درجة بعيدة، ويكاد يستخرج هؤلاء الأدباء من شخصه وروحه، وفي هذا أثر واضح وكبير للدكتور مندور.

وكذلك فقد استمرت علاقة الدكتور الأشتر بالتأليف والتدريس حتى تقاعده، وبقي متواصلاً مع الإعلام والمقالات والكتب حتى سنواته الأخيرة عندما كنت أتواصل معه بشكل شبه أسبوعي، وقبل أن يحول السفر والمشاغل بيني وبين أستاذي الراحل.

الأشتر والأدب العباسي

انتسب عام ١٩٦٠ للحصول على الدكتوراه من جامعة القاهرة ثم تحول إلى جامعة عين شمس لأسباب إدارية، وسجل في دعبل الخزاعي مع الدكتور مهدي علام وناقش أطروحته في الأدب العباسي عام ١٩٦٢ ليعود عام ١٩٦٣ ويبدأ تدريسه في جامعة دمشق، ويذكر الدكتور الأشتر في سيرته أنه مع الإعداد للدكتوراه بقي على علاقة وطيدة مع الأدب المهجري والحديث، وطبع أبحاثاً ودراسات في المرحلة ذاتها، وأعطى هذه الحقبة حلاوة ما تخللها من حدث الوحدة بين سورية ومصر، وقد كان للأشتر كتابات ومشاركات في الوحدة وما تمثله، حتى وقع الانفصال الذي يقول فيه: «كان يوماً أسود مشؤوماً، سافر الشاب بعده إلى القاهرة ليلتحق بعمله في معهد الدراسات العربية العالية، كان منكسر النفس مشتت الخاطر، وهو إلى اليوم يذكر ما اعتراه من ذل ذلك اليوم وانكساره».

وفي جامعة دمشق شارك الأستاذ سعيد الأفغاني، والدكتور شكري فيصل والدكتور مازن المبارك والأستاذ أحمد راتب النفاخ في تدريس طلاب قسم اللغة العربية وفي أكثر من مادة.

التدريس في البلدان العربية

تنقل الدكتور الأشتر بين عدد من البلدان العربية من عام ١٩٦٩ - ١٩٧٣ في جامعة وهران الجزائر، وهناك تعرف إلى عدد من بلدان المغرب العربي وإسبانيا وفرنسا، وفي السنوات الأولى من الحرب الأهلية اللبنانية شارك في التدريس والإشراف على طلبة الدراسات العليا في الجامعة اللبنانية مع الدكتور إحسان النص والدكتور محمود الربداوي والدكتور أحمد طربين.

وأعير إلى جامعة الإمارات العربية المتحدة - العين مدة سنتين، وعاد ليدرس في جامعة دمشق حتى عام ١٩٨٨ حين ألحّ في قبول استقالته، وعند عودته بداية الثمانينيات درس كاتب السطور وأبناء دفعته مادة النقد العربي الحديث، وعرفنا أول مرة القيمة الحقيقية لشوقي والعقاد والمازني وكتاب الديوان، كما عرفنا بميخائيل نعيمة وغرباله، وأسهم في توصيل محمد مندور بمكانته النقدية اللائقة.

ولا تزال صورة الدكتور الأشتر ماثلة وهو يجهز نفسه للحديث الهامس الذي يصل إلى الجميع عن علم من أعلام النقد العربي.

وعلاوة على التدريس فقد شارك الأشتر في لقاءات ومؤتمرات وزيارات شملت القدس ومناطق الضفة الغربية صيف ١٩٦٥ قبل سقوطها بيد المحتل وزار ألمانيا للاحتفال بوفاة كارل بروكلمان، والمغرب والأندلس برفقة صديقه الدكتور عبد الرحمن عطبة، ويذكر الأشتر فيما كتبه كيف أذّن عطبة في كاتدرائية إشبيلية - جامعها السابق.. وزار روما ولندن وبغداد والهند والسعودية وطهران والكويت.

الأشتر والإعلام

يعدّ الدكتور الأشتر من القلة المتواصلين مع الإعلام من أبناء جيله من العلماء، وهو لم يكف حتى أخريات أيامه عن التواصل مع الإعلام والكتابة له، وهو صاحب رأي في تأثير الإعلام، وأذكر لأستاذي الأشتر رحمه الله مقالة مهمة كتبها عن التعليم العالي قبل أكثر من عشرين سنة في جريدة البعث، وقد أحدثت ردود فعل بعضها كان سلبياً، ولو عملوا بما جاء نتيجة تجربته لكانت الدنيا بألف ألف خير. يومها اقترح الدكتور الأشتر عدم الركون إلى التعليم الجامعي العام المجاني، وطلب من الدولة أن تقوم بافتتاح فروع مأجورة بأجور معقولة تتيح للطلبة متابعة الدراسة، وأخرى بأجور أعلى يدرس فيها الطالب الفرع الذي يريده كما لو كان في بعثة خارجية، وأشار الأشتر يومها إلى ضرورة هذه الخطوة وقيمتها، فهي من جانب تبقي الطالب في بلده وتحت رعاية أهله ودولته، والمادة العلمية التي يتلقاها تكون مدروسة ومعروفة، وتبقيه كذلك في بيئته، أما على الجانب الآخر فإنها تؤمن للأساتذة السوريين من حملة الماجستير وما فوق دخلاً مادياً جيداً ومهماً، وتغني الكثيرين عن السفر والإعارة والتدريس في جامعات أخرى غير سورية.

وبعد مرور أكثر من ربع قرن على هذه المقالة لا تزال طموحات الدكتور الأشتر أعلى بكثير مما وصل إليـــه حال التعليم العالي السوري. ترى لو كانت الأمور خاضعة للنقاش والمداولة كما أرادها هو وأمثاله أين نحن الآن؟

وهذا الإيمان هو الذي جعل الدكتور الأشتر يكتب لجريدة البعث وتشرين، وتشرين الأسبوعي والبيان الإماراتية، ومجلة المعرفة السورية التي غادر الدنيا وأبحاثه تطبع في مطابعها، إضافة إلى مشاركات مهمة في محطات الإذاعة والتلفزة.

والدكتور الأشتر يبين أهمية وسائل الإعلام في إيصال المعلومة وتعزيزها في الوقت الذي لم يؤمن فيه كثيرون من أبناء جيله ومن تلاهم بأهمية الإعلام، وتراهم يبتعدون عنه.

الأشتر والتأليف

إن أسلوب الدكتور الأشتر أسلوب رائق سهل، ومؤلفاته مرغوبة من القراء والمتخصصين لما تحمله عن فوائد كثيرة يصعب أن نجد مثلها في مؤلفات أخرى، وللدكتور الأشتر طبيعة في نشر مؤلفاته فهو يجمع المتشابه منها في الموضوع والمرحلة ليخرجه ولو في كتب صغيرة، لذلك نجد أسماء مصنفات الدكتور الأشتر عديدة وقد تنوعت مصنفاته بين:

الأبحاث الأكاديمية، الأبحاث التعليمية، المقالات العلمية، المقالات الوجدانية، المقالات الحياتية، الحوارات والأحاديث.

ولا حاجة لتعداد مصنفات الدكتور الأشتر فهي كثيرة، ومتعددة أماكن الطباعة داخل سورية وخارجها، كلها ينطبق عليها اسم (ألوان) الاسم الذي اختاره الدكتور الأشتر لأحد كتبه اللطيفة. وقد يكون كتابه ديوان العرب الذي نشر في ثلاثة أجزاء من أكثر كتبه فائدة ورؤية نقدية، وقد كان من المتوقع أن ينشر في خمسة أجزاء صغيرة، ثم عدل الدكتور الأشتر إلى طباعته في ثلاثة أجزاء كبيرة بعد أن أعلن عنه في كتبه. وهو عبارة عن أحاديث قدمها الدكتور الأشتر في الإعلام المسموع ثم جمعها دون تعديلات كبيرة في كتاب من الأهمية بمكان لما فيه من رؤى نقدية ونظرات تفرد بها الدكتور الأشتر.

وهذا الكتاب على قيمته طبع جزآن منه في دار الرضا للنشر بدمشق وحالت الظروف الاقتصادية القاسية للنشر الخاص دون نشر الجزء الثالث الذي نشر في دار أخرى، ما أدى إلى فقدان الكثير من الأهمية لعدم اكتماله بثوب واحد.

علاقاته الأدبية وغناها

من حسن الحظ أن الدكتور الأشتر اختار للماجستير وبإشراف محمد مندور بحثاً عن الأدب المهجري، ولم يكتف بالكتابة، بل راسل وحاور، وبما أنه كان شخصاً منظماً، فقد احتفظ بكل ما لديه من أوراق وحوارات ومراسلات، فقدم لنا هذه الشخصيات الأدبية كما لا يمكن أن يقدمها سواه، فهو المعاين للنص، المعايش للأديب أحياناً، لذلك كانت أبحاثه شكلاً مختلفاً وموثقاً علمياً..

فانظر إلى ما ينقله عن ميخائيل نعيمة وهو غير موجود إلا في حديثه له:

«ما الأديان - على كل ما فيها من تفاوت في الطقس والعقيدة - غير وعود للإنسان بالانعتاق من ربقة الأرض وشهواتها، ومن الموت ومخاوفه وأوجاعه».

«المحبة قوة شاملة لا تقبل الحصر والتجزئة».

«الكون كالحب وحدة لا تتجزأ، فمن أحبه بكامله كان حبه كاملاً، وكان مبصراً أبداً، ونحن لو كان لنا أن نبصر كل ما في الكون من نور الحب لما أبصرنا غير الجمال، لأن عالم الحب لا مجال فيه للمتناقضات».

وفي حديثه عام ١٩٦٠ مع عبد المسيح حداد صاحب مجلة السائح يتناول الأشتر كتاب نعيمة عن جبران وما لقيه من نقد قاس ومن حداد نفسه، ومما جاء وفيه شهادة ضمنية لنعيمة..

«كان بين جبران ونعيمة تنافس أدبي محمود، ولكن كتاب نعيمة عن جبران أسيء فهمه، وكنت قاربت أن أشترك مع نعيمة في كتابة كتابه في نيويورك ثم انفرد هو به، والحق أنه كان يستطيع أن يعرّض ببعض المواقف في حياة جبران دون أن يؤذيه بالتصريح، لكنه لم يفعل لأنه ناقد صارم.

مات جبران وقراؤه لا يعرفون شيئاً عن حياته الخاصة، وهم أحبوه من خلال ما كتب.. وقد كان لجبران مثل ما للناس جميعاً من نقائص، ألا تظن

أنه إنسان؟ فهو إذاً يحب ويكذب ويخدع ويسكر. إن الأميركان يذكرون لموتاهم الحسنات والسيئات، ولكننا نحن هنا في الشرق نجعل موتانا كلهم ملائكة، من هنا كان غضب بعض الغاضبين على نعيمة..».

ومراسلات د. الأشتر تحفظ لنا بعض الوثائق، وها هو جورج صيدح يقول في إحدى رسائله له:

«الرابطة القلمية أسطورة لا تصمد أمام التاريخ إلا بثلاثية من أركانها: جبران ونعيمة وأبو ماضي، الأول خلعوا عليه لقب عميد الرابطة مراعاة لشعوره الرقيق لكونه كالولد الصغير يتأثر لكل كلمة انتقاد، ويبكي، والثاني المحرك العامل الوحيد الذي يبشّر باسم الرابطة وينشر الدعاية لها، أما الثالث فقد خالفت دربه دربها من الوجوه كافة وقلما حضر اجتماعاتها، ولكنهم كانوا يحشرون اسمه بينهم لاكتساب ثقة الجمهور..».

ما قاله صيدح في هذا الجزء من الرسالة كما دونها واحتفظ بها الدكتور الأشتر، ونشرها في كتابه (أوراق مهجرية) يعطي إجابات حقيقية لكل راغب، وقد وجدت إجابات طالما تنازعتني أسئلتها عن الرابطة وطبيعتها.

والأمر في هذه المراسلات لا يقف عند حد معين، ويذكر للدكتور الأشتر أنه لم يبخل على قارئه، ولا على أدبائه..

وعجيب أمر الكثيرين ممن يدرسون حياة الأدباء، فيكتفون بجانب دون آخر، وها هو جورج جريج الدكتور يعلق على ما جاء في كتاب الأشتر (النثر المهجري.. إن جبران لم يكن ينتسب إلى الماسونية مدة وجوده في بوسطن كما جاء في مقال الأب لويس شيخو اليسوعي).

فيقول: «القول: إن جبران لم يكن عضواً في جمعية الحلقات الذهبية مخالف للواقع جملةً وتفصيلاً، فجبران كان من مؤسسي وأعضاء جمعية الحلقات الذهبية، الجمعية التي لم تكن على شيء من التكتم والسرية ولا سياسية.

ولم يكن مقصدها تحرير منطقة ما من النير العثمانية، بل كانت جمعية أدبية ثقافية غايتها إظهار السوريين للأميركان بأنهم من الشعوب الراقية السامية» في هذا النص يدافع جريج عن جبران لكن لا يخفي الحقيقة، ويقدم الرؤية العربية تجاه الأميركان منذ ذلك الوقت..

وأظن أن الأيام القادمة ستنصف أستاذنا الدكتور الأشتر الذي سيظهر مستقبلاً أنه الكاشف الحقيقي للأدب العربي في المهجر، وأن ما قدمه من أبحاث ودراسات يعدّ في مكان الذروة بشهادة ميخائيل نعيمة وسواه.

الأشتر والحياة العامة والسياسة

يعترف الأشتر في سيرته المحفوظة لدي بخط يده أنه ما أحب على طريقة المراهقين، وأول حب يذكره لزميلة في الجامعة، لكن ارتبط بأسرته الأولاد والأحفاد، وأخلص للتأليف في الكتب الدراسية والعامة.

وترك الأشتر نفسه للمحاضرة على المنابر وفي المنتديات لأنه يجد نفسه في هذه الأنشطة.

أما السياسة، فقد كتب يقول «أكره العمل في الميدان السياسي المكشوف لأني أخاف غدراته، وإن كنت أحمل آلام أمتي وآمالها في القلب، على أني كتبت كثيراً، فيما يحوم من حوله، تلميحاً في أكثر الأحيان، وتصريحاً في أقلها..».

أزعم أن الأستاذ الدكتور عبد الكريم الأشتر يمثل نموذجاً مهماً للأستاذ والأديب الموسوعي المتنور والمتواصل مع المحيط دون كلل أو ملل، وأعرف عنه تقديره للجميع، وعندما كتبت عنه مقالة في السيرة (كما عرفتهم) تعامل الدكتور الأشتر مع المادة بروح العلماء ولم يعترض على أي شيء.

وبرحيل الدكتور الأشتر خسرت الساحة الثقافية والأكاديمية واللغوية علماً من الأعلام الذين يتحاملون على أنفسهم ولا يقبلون أن يتعاملوا مع الناس إلا بإحساس عال.

من مؤلفات د. الأشتر

- التعريف بالنثر العربي الحديث وفنونه.
- معالم في النقد العربي الحديث.
- الرواية في أدب النكبة.
- شعر دعبل بن علي الخزاعي.
- دعبل بن علي شاعر آل البيت.
- تحقيق كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ.
- أوراق مهجرية.
- ألوان.
- فواصل صغيرة.
- ديوان العرب.

*   *   *

الأشتر وفاجعة الصمت

ثلاثون عاماً بالتمام والكمال مرت على لقائي الأول بأستاذي العلامة الدكتور عبد الكريم الأشتر رحمه الله في جامعة دمشق، كنا ندخل إلى قاعة الدراسة والمحاضرة ويدخل بعدنا مباشرة الدكتور عبد الكريم ليأخذ مقعده ويبدأ رحلة في التعليم والمحاضرة لم تشبه غيرها من قبل، ولن تقترب من أسلوب آخر لاحقاً.. وأذكر لأستاذنا في ذلك اليوم أنه قبل أن يسجل عدد من الطلاب معه حلقات بحث، وبسبب الوقت وضيقه وهيبة الدكتور اقتصر العدد على خمسة طلاب كنت واحداً منهم..

اخترت موضوعاً عن أعلام عصر النهضة العربية (جمال الدين الأفغاني - محمد عبده) وفي أثناء تنقيري في المصادر والمراجع عثرت على خطب لهما في كتاب عمر الدسوقي عن الأدب الحديث، وفي الخطب كلام يحتاج إلى نقاش، ومنها أن السيد جمال الدين الأفغاني يخاطب المصريين منبهاً من المحتلين لهم عبر التاريخ، والعرب والمسلمون ضمن هؤلاء المحتلين.. وعندما عرضت الأمر على أستاذي أبدى استغرابه وطلب مني المرجع، ولا أملك إلا أن أكبر هذا الأستاذ العلم فقد قال لي: هذا الكتاب لدي وقرأته مرات عديدة، لكنني لم أتوقف عند هذه العبارة في كلمة الأفغاني، وشجعني منذ ذلك اليوم على البحث والدراسة كما لم أكن أتوقع..

وحال العمل والسفر بيني وبين أساتذتي ومنهم الدكتور الأشتر، الذي اعتزل وتقاعد في حلب ولكنني كنت أتواصل معه من خلال كتاباته في مجلة المعرفة وغيرها من الدوريات.

وفي محنة أستاذي الدكتور الراحل نعيم اليافي رحمه الله كنت حريصاً على التواصل معه لحب واختلاف واتفاق، ولاحترام شديد أحتفظ به لأستاذي اليافي.. زرته في بيته في حلب محطة بغداد، وفي زيارة إلى حلب لم يكن الدكتور اليافي في بيته، ولم تكن السيدة أم حسن زوجه موجودة، فاهتديت إلى الدكتور الأشتر ولقيته في حلب ليخبرني بأنه في طريقه لزيارة الدكتور اليافي في المشفى.

وفي مشفى فريشو في حلب كنت ألتقي الدكتور اليافي، وغالباً ما كان ذلك بمرافقة الدكتور الأشتر، وهنا أكبرت أستاذي الدكتور الأشتر على تواصله الدائم مع الأصدقاء والزملاء، وإن لم يكونا على توافق تام في الآراء والأفكار، وما أزال أحتفظ بأطيب الذكرى لتلك اللقاءات التي غالباً ما كانت تنتهي بجلسة هادئة في مكتب الدكتور الأشتر في المشفى الذي يقوم عليه أبناؤه وبناته، وعبارته: الله يرضى عليهم تركو لي هذا المكتب لأكون معهم.

حاولت تعميم أبحاث أستاذي الأشتر وإخراجها من الأدراج فتشرفت بطباعة كتاب (ألوان) وكتاب (ديوان العرب ١ -٢) ولم أتمكن من متابعة خدمة الثالث لأسباب اقتصادية تتعلق بالناشر.. كما لم أتمكن من إقناع أستاذي بوجهة نظري ونظر الناشر، فخسرت تواصلاً مهماً مع واحد من أحب أساتذتي إلى روحي وفكري.. سألني أستاذي الدكتور عبد النبي اصطيف عن مآل الجزء الثالث، فسألته عن أخبار أستاذي الذي لم أعد أحصل على أي من أخباره!!

لم يكن الأشتر إلا علماً وأستاذاً وهادياً لطلابه ووطنه في كل ما قدمه وكتبه وحاضر به.. وكما يفعل العظماء، لم يحتمل الأشتر رؤية وطنه وسط تجاذبات فآثر الرحيل بهدوء وصمت.. ومع صمته كان رحيله فاجعة الصمت والألم المؤرق..

الكلمة الأنثى

كوليت الخوري وهاجس الخوف على الوطن

الكلمة الأنثى... ماذا تحوي هذه المجموعة بقصصها التسع؟ عن أي كلمة تتحدث؟ عن أي أنثى تنوب في الحديث؟

أي أنوثة في حياة كوليت خوري هي المعنية في هذه القصص؟ أي مرحلة من المراحل تتناول؟ أسئلة كثيرة كانت تأتي إلى الذهن وأنا أطالع العنوان الذي بقي مخادعاً مراوغاً أسابيع بعد أن حصلت على المجموعة.

يغري بالقراءة، ويأخذ جانباً على المكتب يحاول أن ينجو من القراءة وتقليب الصفحات... ولكن عندما بدأت ذات صباح باكر تقليب الأوراق والتهامها لم يمرّ الصباح إلا والقصص التسع كانت مستوعبة وذات حضور في الذهن والوجدان...

النشر وميزاته

تابعت منذ أيام حديثاً عن الأدب النسوي، وهالني ذلك الكم من أحكام القيمة، والضيوف في الجملة من السيدات ناقدات ومبدعات، وأصابتني الدهشة عندما قامت إحداهن بتعداد المبدعات فذكرت ثلاث مبدعات من فلسطين ومصر الشقيقة، ولم يكن بين المذكورات كوليت خوري ولا غادة السمان، والحديث عن القصة والرواية، وكانت تصفية الحساب بين السيدات سهلة للغاية، وقدمت كل واحدة منهن أدلة دامغة على غياب الإبداع النسائي -

حسب رأيها - بل إن إحداهن قصرت حديثها عن أديبات جعلن القضايا الجنسية الهم الأول، وذهب الظن بإحداهن مذهباً بعيداً حين عبّرت عن أن الأديبات خرجن من كمّ مبدعين من الذكور فهل تم الاستثناء بسبب إبداع حقيقي لدى كوليت وغادة؟ وهل تم تجاهل الحديث عنهن لأنهن لم يقرأن؟

أزعم أن عدم القراءة هو السبب، وأذكر أنني بحثت طويلاً عن كتب كوليت الخوري وحصلت عليها منجمة، وعندما تشرفت بأن قامت الأديبة الكبيرة بإهداء مجموعتها وجدت أنني لم أحصل على أكثر من نصف مجموعتها، وأن ما قدمته للمكتبة العربية القصصية والروائية أكبر بكثير... وبدأت أقرأ هذه الكتب بالتتابع لأكتشف مقدار الظلم الذي يحيق بمبدعنا السوري، فهو يخضع لعملية نشر وتوزيع ظالمة، هذا إن نشر أو وجد من ينشر له، فعشرات الكتب تطبع وتبقى أسيرة المستودعات والبيوت لضعف في النشر والتوزيع، بينما يتم طبع كتاب واحد خارج سورية وللمبدع نفسه فيحصل على أضعاف القيمة مادة وشهرة، وكوليت الخوري نفسها حصلت على شهرتها الروائية من كتب طبعت خارج سورية، وهي التي وصلت إلى أيدي أكبر عدد من القراء، أما الكتب المطبوعة في الداخل فإنها لم تصل إلا إلى المحيطين بها... وربما صدق في كثير من هذه الكتب لكوليت أو لغيرها من الكتاب السوريين ما قاله الشاعر الصديق جوزف حرب في ديوانه الجميل (الخصر والمزمار):

أهديت
لجاري ديواني
جاري فيما أعرف
صاحب مصرف
وعقارات ومباني

جاري

في إحدى الليلات

لم

يقرأ من ديواني

إلا

أرقام الصفحات

وأذهب مدى أبعد، فصاحب المصرف قرأ صفحات الديوان، ولكن المعنيين بالقراءة اليوم لا يفعلون هذا، وفي الحياة الثقافية اليومية قلّما أدخل على أحد المثقفين لأجده قارئاً أو مقلباً لصفحات كتاب.

أقف عند هذه القضية لأن ما حظيت به من كتب كوليت الخوري جعلني، وأنا من قرائها - أخجل لأن كتباً لم أقرأ فيها من قبل... وكوليت ليست (أيام معه، أيام مع الأيام، ليلة واحدة) فقط، بل هي مدى غير محدود من الكتابة المبدعة في عالم القص.

الكلمة الأنثى والصدمة

سمعت عنوان هذا الكتاب كثيراً، ولكنني لم أقترب منه، ظاناً أن موضوعه يناسب لحظة وجدانية خاصة لم تمرّ بي، وعندما بدأت قراءته ذات صباح تأكّدت، وبصدمة حقيقية أنه لحظات وجدانية لم تمرّ بي، فالإهداء الذي مرّ عليه أكثر من أربعين عاماً في طبعته الأولى إلى الجدَّ المميز في كل شيء فارس الخوري، وكم نحن بحاجة الفارس جدّ الفارسة اليوم... تحتفظ كوليت في الإهداء بالكلمة الغصّة لرجل أفقده المرض بصره:

«كيف تريدينني أن أشكو مما لا أرى، أنا الذي في حياتي ما شكوت مما رأيت؟» فعلى أي محمل حملنا هذه العبارة كانت معبرة ونافذة إلى دواخل المتلقي

يشكو من الرؤية؟

يشكو من فقدان الرؤية؟

يشكو من بشاعة ما رأى؟

يشكر لافتقاد رؤية ما كان يستحق الشكوى؟

عبارة ملغزة بعيدة عن عنوان (الكلمة الأنثى) الذي ظلم الكتاب ولم يعطه حقه، لتأتي بعد ذلك عبارة كوليت:

«قال لها:

أحب هذه البلاد لأنك فيها

ابتسمت في حزن، ولم تعترف له أنها

لا تحبه إلا لأنه من هذه البلاد».

وتدلف إلى قصة (الواقع) التي قرأتها سابقاً، وقبل ثلاثين عاماً، ولكن ليس في هذا الكتاب، ولم أكن أتوقع أن تكون فيه، فقد قرأتها مصورة عند أستاذي الدكتور نعيم اليافي رحمه الله عندما درسنا مادة الأدب الحديث في الجامعة، وكان يقدم لنا مصورات خوفاً على كتبه من الضياع والإهمال والسرقة...

واليوم عندما بدأت هذه المجموعة، وبهذه القصة وجدت ما أبحث عنه تحت كلمة موصوفة بالأنوثة، وهل هناك أقدر من الكلمة الأنثى في الوصول إلى عمق الحالة واستشعارها؟ ولعلّ غياب الخوف الأنثوي وإحساسها هو الذي يدفعنا من مشكلة إلى أخرى...

كوليت والخوف المستمر

في الأزمة التي تعرضت لها سورية عام ٢٠٠٥ كانت كوليت خائفة على الوطن، محبة لسورية غاية الحب، ولم تتوقف عن الكتابة عن سورية، فكانت الحصيلة في كتاب من الكتب المهمة (ويبقى الوطن فوق الجميع) نشر

الكتاب بعد انتهاء الأزمة، ولم يحظ بما يجب من عناية... واليوم تتعرض سورية لامتحان جديد وقاس وصعب، ومنذ بداية الأزمة كانت السيدة كوليت قلقة على سورية، منتمية إلى إنسانها الذي أحبته، وأرضها التي عشقتها، فحاضرت وظهرت في الإعلام وتحدثت مع الجميع من منطلق الحرص على الوطن... وفي عودتي إلى (الكلمة الأنثى) التي تعود قصصها إلى أكثر من نصف قرن، وإن ظهرت أول مرة عام ١٩٧٠ تتكرر تجربة كوليت مع الخوف على الوطن، وكأنه كتب عليها أن تعيش الخوف الطويل، والخيبة الشخصية المزمنة، ولكن التي تنتهي بنجاة الوطن...

«حين التقيت به ذات ليلة، كانت مدينتي تسبح في جو من القلق، وكان وأنا نفسين ممزقتين تبحثان عن مرفأ أمين...».

وفي مقطع آخر تعبر عن قلقها ويأتيها جوابه:

«لا تخافي... سورية قوية... قوية أبداً

وجدت في إيمانه بلدي...»

وفي مفارقة مؤلمة تحوي القصة مشهد موت الجد (فارس الخوري) وكوليت ترى نفسها دوماً أوْلى بجدها من أبيها، لكن الحقيقة أن والدها أخذ مكانها إلى جوار الجد في لحظة الاحتضار... وبعد حب جميل تجد نفسها في المرتبة الثانية عند الحبيب بعد زوجته وأسرته، وتكتشف دوماً أن الواقع ليس ما نصنعه أو ما نتوهم وجوده:

«كان يجب أن يموت جدي لأفهم أني في الواقع لست سوى حفيدته. لأفهم أن الواقع على الرغم من عاطفتي المجنونة قد وضعني في المرتبة الثانية..

نعم

كان يجب أن آتي إلى البلد الذي يسكن فيه حبيبي لأدرك أن الواقع كالموت لا مهرب منه... كم توجعني هذه العاطفة حين ترتطم بالواقع..».

كتب على المنتمين الخوف الدائم على وطن يحبونه... فقد جاء كثيرون وغادروا، أخذوا من خيراته وانقلبوا عليه! أخذوا ما ليس لهم، ومن ثم صاروا إلى ما هم عليه! وفي الحالين كان الوطن هدفاً للقنص، والمنتمي كان المطعون حباً وحرصاً وانتماءً وإلا فماذا أفسر أنوثة الكلمة الساحرة الثائرة؟!

بين الزنزانة والتهمة

تدلف كوليت الخوري من الواقع إلى المجتمع لترسم خطوطاً من الجمال الذي لا مثيل له للإنسان والوطن، وفي المجتمع تعرض مزايا الزيف الذي يحيط بنا، لينتهي الحفل التنكري بفوز الأصيل غير المتنكر، وفوز البساطة على البهرجة، فما الذي يحتاج إليه مجتمعنا؟ ومن الواقع والمجتمع تصل إلى الزنزانة المؤثرة لتبدأ:

«قالت له: لو سألوني رأيي لقلت لهم أن يجعلوا هذه القلعة مطعماً كبيراً لا يقدم سوى الألوان الشامية والفواكه الشامية، ولو سألوني رأيي أيضاً لقلت لهم أن يجعلوا سجن المزة كازينو لأن موقعه رائع ومناسب..

- وأين تضعين المساجين؟

- وهل يكون هناك مساجين لو سألوني رأيي؟...»

وتتلاحق الأنفاس، وتكبر صورة الزنزانة، وتدلف الأوجاع إلى جسده، ويجري حوار بين صديقتين غريبة وابنة بلد عن سجين صديق لتختتم القصة:

«كيف تريدينني أن أبكي يا عزيزتي؟ أنا ابنة هذا البلد، ومنذ سنوات وسنوات وسنوات وأنا أعمّر كل يوم في قلبي زنزانة جديدة لأب أو أخ أو صديق... فلا تلومي الدمع إذا جفّ!».

ومن زنزانة الصديق إلى التهمة والممنوع والحكم...

الثالث: حكمنا أن تقلع عيناك

الفتاة: تأخرتم لم يعد لي عينان.

الأولى: كيف؟

الفتاة: فقدت عيني منذ زمن..

الأولى: حكمنا بأن نزرع لك عينين

الفتاة: لا... لا

الأول: حكمنا عليك بأن تري

الفتاة: لا... لا... أرجوكم

الثلاثة: حكمنا عليك بأن تري

الفتاة: ويلي ويلي ويلي

وبصورة مدهشة تبدأ حديثها عن القفص «وأمام السور القديم وقفت تشرح للشاب الغريب: كانت دمشق محاطة بسور وكان لها سبعة أبواب...

سألها مستفهماً: وحالياً؟ كانت ابتسامتها غامضة وهي تجيب:

كبرت دمشق كما ترى... وكبر السور... كما لا ترى...»

وبقيت كوليت تقول:

ما زلت أرى العندليب يتخبط وسطه مذعوراً يائساً...

فماذا عن حال القفص؟

حتى الكلمة الأنثى حاملة العنوان لم تكن أنثوية بقدر ما كانت بحثاً عن هوية ما بين فكر وأنوثة قرر الآخر أنهما لا يجتمعان، وبقيت الأنثى تلوب المكان بحثاً عن جمعهما... وفي صراع قوي بين الحب وموعد الطائرة وسفر النص المكتوب، وسفر الرجل المحبوب، وكبرياء الأنثى التي تريد الإحاطة بكل تكوينها تنحاز المرأة إلى فكر مشتعل وإلى طمر الأنوثة تحت رماد الانتظار الممضّ.

(الكلمة الأنثى) مجموعة فيها من الانتماء والفكر ما يغني المرحلة وكل مرحلة، وفيها صورة مثلى لأدب كوليت الخوري العالي.

البندقية والوطن... الانتماء والهوية

رحلة البحث عن عروس الكاتب وريتا الشاعر والضياع

تتكرر المأساة كل يوم

تُعاد التجارب بأسماء جديدة، بنكهة مختلفة...

قد تكون أكثر جمالاً، قد تكون أكثر عمقاً، قد تكون وجدانية لا يدانيها الوجدان ذاته...

وطن نفتديه بكل ما نملك، نحبه ونأخذ منه، نعطيه ذواتنا - في الانتماء - ولا نحتفظ بشيء لأنفسنا... نحبه كما أحبه صاحب «العروس» غسان كنفاني، نسبح في ملكوت «أم سعد» وخبز التنور والأم المطلقة...

ومع البندقية العروس، وأم سعد والمخيم، ومحمود درويش الذي حالت بينه وبين ريتّا بندقية هي علامة الوطن والانتماء... ورشيد سليم الخوري وفرنجية، التي حال بينه وبينها كونها فرنجية مع كل شيء يبرز الوجه، تصل الضحكة السكرى، يطرب لها سامعها على الجانب الآخر، يستحثها أن تفرح لعله يخطئ بنكهة عذوبة الضحكة.

تتكرر التجربة

وطن وحب

إمكانية واستحالة

اقتراب وابتعاد

جود وحرمان

يبقى الوطن مسرحاً للتمرّغ على العتبات، وفيلماً طويلاً عن عناق أبدي بين ذرات التراب وذرات الجسد، ومسلسلاً لا نهاية له، كل واحد يزعم أنه البطل الأوحد، وأنه المحب الحقيقي للعروس، لريتا، لأم سعد، لشام... وحدها تدري من هو الذي منحها وقادر على منحها كل لحظة... وربما وحده يبقى مرتقباً أن يحمل عروسه على كتفه ليصل إلى السفوح وينزرع على تراب الأرض...

تتكرر المأساة بطبعات جديدة...

غادر غسان كنفاني وبقيت غادة في روحه يصرخ عليها من القاهرة من فندق كليوباترة، لعله يلتقيها ذات حلم على النيل على أنغام شمس الأصيل الكلثومية، وعندما يتعب من الصراخ تبقى كليوباترة محتفظة بذاتها ويدلف إلى تلفريك في جونية، تكون غادة ولكن عدسات المصورين تلاحقه...

غادر غسان ولم يشأ له القدر ولم تشأ غادة أن يكتبا سيرتهما كما يريدان: وطن وحبيبة... حرية وغد مشرق... فكر وانطلاق انزوى كل منهما

ضاع البريق... بقيت الكلمات

هل تغني كلمات؟ هل ترضي غروراً؟

راح درويش... تخيلنا ريتا

صورناها كما شئنا... تعاطفنا معه ومعها

أردناها أجمل فكانت...

لكن الطريق الممتدة جعلتهما غريبين... بعيدين

ولا تزال البندقية حاجزاً

عندما تغيب البندقية ماذا يبقى؟!

حين غابت الحواجز صنعناها لنظهر مقدار مسكنتنا!

وحين تماهت البنادق حولنا أحاسيسنا إلى رصاص!

أما بالإمكان أن نعتصر لحظة الفرح؟

وطن وحب ممكن... كلاهما قضية الإنسان.

نستمتع بآلامنا... ونحن ندرك أننا يمكن أن نكون أفضل...!

نقفل الأبواب

نرخي الستائر

نستنجد بآهات الألم

نستجدي من يشعر بنا ليتألم علينا

لا نستحق أكثر من نظرة عجلى

بقيت أم سعد غسان طويلاً لأنها لم تسمح لشيء أن يبعدها عن يدي صانعها ومبدعها فأعطته الخلود، بينما كان منداراً بكليته إلى غادة...!

خلدت بندقية درويش المتخيلة، وتماهت صورة ريتا الواقع، وعند حدود الجدارية كانت ملهمة الإنسان المطلق، وضاعت التفاصيل التي لم يكن من المفترض أن تضيع!

وحده أرغون

أحب إلسا

وحدها إلسا أعطت أرغون، تغلغلت في شعرات يديه ورأسه وصدره فكانت ملحمة (مجنون إلسا) فعاد المجنون بثوب أندلسي وحب مشرقي وروح حديثة غربية.

قرأنا... أحببنا... لكننا لم نفهم أن أرغون عاش بالمطلق الإنسان، وأن إلسا خلدت بثوب واحد رماه عليها أرغون عندما كانت مستلقية أمامه ليكتب لوحة مختلفة من كلمة ولون وعشق...

تتكرر المأساة

نتكوّم على ذواتنا، نتوهم البقاء

نستلذ بإرهاق المدنف

نستحث كلماته وعذاباته

نأمره أن يقول ويكتب أكثر لأننا نستحق

وعندما حان موعد السفر

لم تعد البندقية وحدها حاجزاً، بل تعددت الحواجز، وجلسنا لنندب حظاً عاثراً، ونتحدث عن كوننا ضحايا قلوب قاسية...

الوطن والحب

كلاهما انجراف لا أول له

لا زمن له

يمكن أن يكون بلحظة واحدة، وينتهي بلحظة واحدة

لا يحتاجان إلى دراسة

إما أن يكونا أو وإما ألا يكونا

وإلا فلماذا فاخر المجنون بليلاهُ؟

ولم تحمل جميل اللوم؟

ولم شهّر بنفسه كثيّر؟

لم تحدث القروي عن سُعاد... وعن سعادته مع الفرنجية؟

لِمَ لم يكتف غسان بأم سعد والعروس، وكانت غادة محطة غالية؟

أزعم أن ذاته الغادية كانت أقدس لحظاته، لكنه ولكنهما طمراها ونحن لأننا لا نجيد الحب أردنا الطمر...

لِمَ كانت ريتا محطة الأنوثة الأعذب عند درويش؟

عجيبة هي الأرض

عظيمة هي الأوطان

دوماً تكون معادلاً للحب العظيم...

تتبدل الأشخاص

تبقى الأوطان

تضيع الحكايا

تتغير الأيديولوجيات

يصبح الصواب خطأ والخطأ يصبح صواباً

وتضيع الحكاية الأجمل، حكاية الإنسان

بحمق من الإنسان الذي أضاعها

أو من الإنسان الذي قرأها...

الحب يصنع أوطاناً

يفعل أي شيء

ولا غير الحب يفعل

لماذا يصمم القدر على فجيعة ذات صفة فردية، لكنها لا تلبث أن تتحول إلى فجيعة مجتمعية قاتلة تترك أثراً لا يُمحى...

أما ترك شعراء وأدباء وشخصيات من شتى بقاع الكون أغنيات حزينة يتردد صداها في جنبات الروح؟

من سارتر إلى كامو

ومن المعري إلى دانتي

وإلى المتشظى على عتبة الحلم الصارخ: لا تصالح أمل دنقل

وإلى المسافر عبر جوارية وخبز أم بعيداً عن ريتا والبندقية درويش حلم العودة لا يزال تائهاً

هل من عودة إلى يافا؟

وهل من رجاء عودة ولو حشو الكفن؟

حين يلبس الإنسان ألماً أوسع من قدرته، يصيبه المرض يتقرّح جلده، يتســـاقط، ثم ينسرب في باطن أرض بحثاً عن شخص آخر يعود من خلاله أو به...

لو أدركت بثينة

ولو تنبهت ليلى

ولو لم تهرب غادة ذات ليلة

ولو لم تكن ريتا بعيدة

لو... ولو

هل كان الحلم مستحيلاً؟

لا شيء يعرف المستحيل أمام سطوة الإبداع وشهوة أن يكون المرء مختلفاً ومنسجماً...

دخلت الأم، جهّزت التنور، عجنت الطحين الأسمر، وبدأت تعدّ الخبز، الخبز يتراكم وعيناها ترقبان القادم لعله يأخذ رغيفاً أي رغيف، وفي أي لحظة... تغرق عيناها في ذاتها لتعود العينان وقد أثقلهما الانتظار وأرمدهما نار التنور المشتاق لأوبة عائد...

حين تخبز أمي لا يهم أن تعود ريتا والبندقية

وحين تعجز أمي عن الخبز تعود ريتا ولكن لا تكون معجونة بالأرض...

تغترب عني

تنسى أنني أقف في العراء

تنسى أو تتناسى

تتكرر المأساة كل يوم

تعاد التجارب بأسماء جديدة، بنكهة مختلفة...

تعاد... جاؤوا... ذهبوا... جئنا... سنذهب

وحده الوطن أنشودة البقاء...

لنتشبث بالأرض، وننزرع فيها، وفي أعماقها

وحدها تعطينا ما نريد، ولا تغيب إن غابت أمنا

إنها أمنا الأرض

لا تبرح أرضك يا أنا، وانزرع في الحقيقة الوحيدة الوطن وكل ما عداها وهم...

* * *

المرأة موضوعة وكاتبـة لرواية قد

لا تمثل المرأة العربية

الجنس منطلق الرواية وغايتها والتفاصيل طريق إلى القارئ

عالم سري ومسحور وقف وراء نجاح كتابه وكاتباته حصراً!

لم تعد الرواية بشكلها التقليدي المحتشم الذي يقدم خلاصة الحياة والتجربة تروق للكثيرين، وضمناً روايات نجيب محفوظ وحنا مينة وإحسان عبد القدوس كذلك، فهؤلاء الأدباء تجاوزوا عبد الحليم عبد الله وعبد الحميد جودة السحار ومحمد حسين هيكل وغيرهم من الروائيين بما في ذلك معروف الأرنؤوط وجرجي زيدان ورواياته التاريخية، وقد كان عالم نجيب محفوظ ضاجاً بالحياة والحركة، بل الإيحاءات الجنسية التي كانت تروي غلة العطش، وتجلب الكثير من الرفض، وكذلك الأمر مع حنا مينة وعالمه الذي سحرنا في «بقايا صور» و«المصابيح الزرق» وغيرهما.. وإحسان عبد القدوس كان عالماً مختلفاً في «الأنف وثلاث عيون» و«أنا حرة» و«في بيتنا رجل» ويزداد هذا العالم إشراقاً عندما يتم تشخيصه سينمائياً، ومع كل هذا، ومع النقلات النوعية روائياً بين السحار ومحفوظ وعبد الله وعبد القدوس، والأرنؤوط وحنا مينة، إلا أن هذه النقلات النوعية لم تعد مستساغة لدى جيل يرى نفسه معولماً، وكنت أتمنى أن أرى هذا الرأي من قبيل المبنى والفن الروائي، وأنا ممن يتعاطونه، ولكن المفاجأة كانت مختلفة وكبيرة..!

القادم ونحن

ارتفعت أسهم الرواية اللاتينية في وقت قياسي وبسرعة خرافية، بدءاً من سيد الرواية اللاتينية غابرييل غارسيا ماركيز، ولا يزال الروائيون اللاتينيون يحظون بمكانة رفيعة لدى النقاد والقراء، وحصدوا جوائز عالمية في معالجاتهم لعمق الحياة اللاتينية، فقرأنا «شيطنات الطفلة الخبيثة» وما فيها من تناقضات وشذوذ وأمراض، وتتابعت القراءات، وانجذب القارئ العربي إلى كويلو وسواه، فحفظ الروايات التي قرأها لهؤلاء الروائيين، وخاصة لما فيها من حياة تضج بالحرية التي يتوق إليها الكثيرون منا.. الروائيون العرب لا يزالون يتعمقون في الرواية وفنها ودورها، وكذلك هناك روائيات عربيات أسهمن إسهاماً كبيراً في تعميق الفن الروائي وإعطاء الدور له: ولكن هناك موجة كبيرة من الروائيين العرب رجالاً ونساء أسهموا إسهاماً كبيراً في تسطيح الفن الروائي، وقدموا موضوعات حساسة وغاية في الأهمية ولكن ضمن أسلوب ساذج ومسطح، فأفقدوا الموضوعات المهمة أهميتها.

تجارب خليجية

أسهم المجتمع الخليجي وطبيعته في تكوين رؤية خاصة وخاطئة، فها هم الكتاب يقدمون أدباً روائياً يشرّح المجتمع ليس بغاية التحسين والإصلاح بقدر ما يكون الغرض من هذه الروايات الشتم والانتقاص وتهشيم المجتمع.. قد يحتاج مجتمعنا إلى المزيد من الخضّات، ولكن لا يحتاج إلى مثل هذا الهجوم غير المسوّغ.

قد ترد الحياة الجنسية في الرواية محوراً من البداية إلى النهاية، لكن هذا المحور يكون مدروساً ومؤسساً ومكسواً بحياة اجتماعية عميقة، ولكن أن تكون الرواية من أولها إلى آخرها مجرد عمود فقري ينتهي بأطراف علاقة جنسية بحتة فهذا أمر موجود، لكنه ليس أدباً روائياً، واختيار منطقة الخليج

العربي لتكون مكان التجربة والدراسة هو الذي يدفع إلى الوقوف مطولاً أمام التجربة، سواء بالرفض أم بالقبول.

رجاء الصانع وبنات الرياض

يقول الدكتور الروائي غازي القصيبي في كلمته عن رواية بنات الرياض للكاتبة رجاء الصانع: «في عملها الروائي الأول تقدم رجاء الصانع على مغامرة كبرى تزيح الستار العميق الذي يختفي خلفه عالم الفتيات المثير في الرياض، وعندما يزاح الستار ينجلي أمامنا المشهد بكل ما فيه من أشياء كثيرة، مضحكة ومبكية، بكل التفاصيل التي لا يعرفها مخلوق خارج هذا العالم الساحر المسحور».

وفي هذا الرأي يقدم الراحل القصيبي رأياً علمياً قائماً على دراسة الرواية وأسباب رواجها، فهي لروائية سعودية، وتحاول اختراق عالم المرأة والفتيات وأحلام هذه الفئة من المجتمع السعودي، ويشير إلى سرية هذا العالم، وإلى أنه عالم مسحور مملوء بالتفاصيل الصغيرة والدقيقة.. ولو لم يكن هذا العالم السعودي مغلقاً ومسحوراً لما أحدثت الرواية هذه الضجة وردود الفعل المتباينة التي أدت إلى طباعتها ثلاث مرات في سنة واحدة.

إيميلات، رسائل، مقبوسات، قصائد، أغنيات، أحياناً آيات، لغة فصحى وأخرى عامية أسلوب رواية رجاء الصانع، وقد أحسن الراحل القصيبي عندما بيّن سبب نجاح الرواية، فهي تتحدث عن عالم مسحور وسري مخبوء وبعيد عن الأعين.. ولو كانت الرواية بعيدة عن عالم السعودية والرياض والعالم النسوي في السعودية لما نالت هذا النجاح والإقبال، ولا نستغرب أن يكون الإقبال الأكبر على الرواية من السعوديين أنفسهم، فالرجل يريد أن يرى صورته، والمرأة تبحث عن ذاتها..

عندما تنتهي الرواية لا يبقى في الذاكرة سوى مشاكسات لبنات فيها الكثير من البراءة في مجتمع يمنع كل شيء، ومن هنا نجد أن الموضوع الذي اختارته الروائية لعملها الأول هو الذي أسهم في تقديم العمل الذي لا يحمل فنياً مقومات العمل الروائي على وجه الدقة.. لكنها مغامرات لأشياء لا تستحق المغامرة في مكان آخر.

ليلى وجنس في المدينة

في عام ٢٠١١ أيضاً نشرت رواية «جنس في المدينة» لـــ ليلى ب وهذه الرواية عملت أيضاً على نساء السعودية بقلم مضيفة طيران مغربية دخلت إلى عالم النساء السعوديات عن طريق إحدى صديقاتها، زبوناتها في الطيران وهذه الرواية تحاول كاتبتها أن تكون أكثر جاذبية ابتداء من العنوان، وهذا ما كان من عنوان (جنس) الذي يكفي وحده لجذب كمية كبرى من القراء، ولمنع العمل في أماكن عديدة من العالم العربي، وقد اختارت الكاتبة شريحة مختلفة عن شريحة بنات الرياض، فقد اختارت نساء السعودية، ومما لاشك فيه أن هذه الشريحة منتقاة فنياً، وإلا فكيف تهيأ للكاتبة أن تحوي في شلة واحدة أصناف النساء، وبالتالي أصناف الرجال، لأن حكاية كل امرأة من نساء الرواية يتممها رجل آخر، فهذه تعتني بالألبسة الداخلية، وتلك تشكو من عنة زوجها وعدم استجابته لرغباتها متذرعاً بالشرع والدين، ومطالباً زوجته بالاحتشام والاكتفاء، وهو في الوقت نفسه يمارس الشذوذ، وتتميز الرواية (جنس في المدينة) بأنها أكثر وضوحاً وحديثاً في تفاصيل الجنس والحياة الجنسية، والكاتبة تصرح بأن صديقها المضيف كان يبيعها المعلومات التي تزود بها النسوة، بل كان يطلب منها التطبيقات العملية.

بعد قراءة ٢٥٠ صفحة من الرواية تنتهي الرواية ويحتفظ القارئ بسرد لرؤية النسوة في الجنس والحياة الجنسية، وبعناوين أقرب ما تكون إلى

إرشادات مجلة طبية نفسية، وبإمكان أي شخص أن يكتبها ويدعي وجودها في مكان ما.. والرواية كذلك كما بنات الرياض تأخذ مشروعيتها الشهوانية من أنها تتناول مجتمع النساء في بلد يغلق هذا المجتمع أمام الآخر.

سلوى النعيمي والعسل

قدمت روائية عرفت عن نفسها بأنها سورية (سلوى النعيمي) رواية لقيت رواجاً، لطيفة الحجم، لكنها تبدأ من الصفحة الأولى بالحديث الجنسي غير الممتع، والذي يشبه فيلماً إباحياً مزعجاً، وقد اختار الناشر عباراتها المنفرة للغلاف الخارجي، والرواية يستطيع أن يعرف مصدرها ومرادها القارئ التراثي أكثر من غيره، فهي لا تعدو أن تكون إعادة تشكيل كتاب (رجوع الشيخ إلى صباه) فالشخصية الرئيسية تسترجع هذا الكتاب وغيره من كتب الجنس العربية بين يدي أستاذها في الجنس الذي تعلمت على سريره كل أشكال الجنس الصريح.

سمعت عن الرواية الكثير، بل بعضهم أشاد بها وبجرأتها، وحين وقعت في يدي عندما أهداني إياها صديق قرأتها في وقت قصير وأعرتها لصديق عزيز، لأفاجأ وبعد شهور بقوله: قرأت منها صفحات، مللت، شعرت بعدم الفائدة ولم أكمل وهذا الرأي مهم جداً من قارئ محايد لا يحكم حكماً أخلاقياً ولا يعتمده.

مكون الجنس في الرواية والرواية النسوية

الجنس تحول إلى مكون أساسي في الرواية العربية الحديثة، ولم تعد كافية إشارات نجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس وحنا مينة، وقد تجاوزت الحكاية الجنسية في الرواية العربية ما قدمه سيد القصة القصيرة يوسف إدريس في مجموعته (بيت من لحم) ذات الشهرة الكبيرة وبولغ في الحديث

عن الجنس كما لو أن العرب جوعى للجنس، وهذا غير صحيح وغير دقيق، فأغلب العرب يعيشون حياتهم الجنسية ويمارسونها بحرية داخل المؤسسات وخارجها، وأي كلام آخر غير دقيق.. ولكن الذي يلفت الانتباه أن أغلب الأعمال الأدبية التي اتخذت الجنس موضوعة لها، بل موضوعة منفرة وغير مقنعة كانت لكاتبات عربيات!! فهل تعاني المرأة العربية حقاً من هذا النقص.

مع صدور هذه الأعمال وتتابعها بدأت الارتدادات السياسية العربية في أقطارنا العديدة، بما فيها الأقطار التي يعيش أبناؤها حياة عادية اجتماعية وجنسية، وهذا يعني أن هموم هذه الروايات ليست هي هموم مجتمعاتنا العربية، فهي ذهبت في جانب والحياة الاجتماعية والسياسية كانت في جانب آخر.. كان من الممكن لمثل هذه الروايات والموضوعات أن تكون مقنعة في ظروف أخرى أفضل وأكثر هدوءاً، ولكن في مثل هذه الظروف لا تتعدى أن تكون صرخات نشاز من فئة مجتمعية محددة أرادت شيئاً تراه الأهم، فكانت المجريات عكس التوقعات.

* * *

البحث عن نجم الأدب والثقافة!

عندما يتسيد الجهلة الموقف الثقافي تضيع الأوطان

هل صارت الثقافة بضاعة كاسدة لا يرغب بها أحد؟!

بين المفهومات الواسعة ضاعت حدود الثقافة وصارت عبئاً!

صفة مثقف، صفة أديب، بل صفة الأستاذ كانت مرغوبة ويسعى إليها المرء حياته لعله يصل إليها، فقد كانت الثقافة الحقيقية حلماً يراود الإنسان، بل يعمل حياته بجد وإخلاص لعله يقنع الآخرين، ويصبح واحداً من سدنة الثقافة وحماتها.. فيوسف السباعي انتقل من الجيش إلى معسكر الثقافة وعمل وتعب وكتب الرواية لعله يكون مستحقاً كصفة الثقافة، وترك إرثاً روائياً جميلاً، وسعى لكسب رضا طه حسين والمثقفين يومها، وحاول التملص من كل تاريخه ليبقى في خانة الثقافة.. وكذلك فعل ثروت عكاشة وغيرهما كثير، فماذا عن حال الثقافة والأدب اليوم؟

بريق الثقافة والأدب

ليس اليوم هو الذي ظهر فيه بريق الثقافة والأدب بقريب، بل إنه قديم موغل في القدم، ومنذ الإغريق اختلط السياسي بالثقافي فبقي سوفوكليس وذهب سواه وحتى العصر الحديث، بقي أندريه جيد وضاعت الأسماء الأخرى، بقيت هذه الأسماء إلى جوار أسماء الآلهة والأرباب والمعارك الكبرى، في حين ضاعت الأسماء التي لم تحمل بريق الأدب.. وفي تاريخنا

العربي، حاول ابن العميد الأدب، وتقرّب من الأدباء، وكذلك فعل أبو الفداء صاحب حماة، وصاحب حلب لم يتوانَ عن إلصاق نفسه بالأدب، وابن عباد وابن جوهر وغيرهم كثير، من المشرق إلى المغرب، ومن الأندلس إلى دمشق رحلة طويلة كان الأدب فيها نجماً وغاية، والناس سعاة بين يديه لعلهم يحظون بالمكانة المؤثرة.. فماذا عن الثقافة اليوم؟ وكيف يكتسب أحدهم صفة الثقافة؟ وكيف تحول المثقف من نجم يتقرب منه الآخرون إلى فراشة تسعى إلى ضوء وهمي تموت على حافته؟!

المثقف الفاعل دوماً

لم يكن الأديب إلا مثقفاً، الوعي سمته وطبيعته، والحدس شعاره، والإيقاظ مهمته، وإن تغير الفهم اليوم، فلأسباب يمكن الوقوف عندها إلا أن الدور الفاعل والمؤثر دوماً للأديب هو الذي جعله غاية، وجعله هدفاً إيجاباً وسلباً، هدفاً وغاية يحاول الناس الوصول إلى مستواها أو مقاربتها والتقرب منها، وكذلك هدف وغاية يتم النيل منها ومحاسبتها بسبب الدور التأثيري أو التنويري أو القيادي، ومن هنا يمكن أن نفهم العداء القائم دوماً بين المثقفين والسلطات، فبشار بن برد لم تقتله زندقته ولا شعره، وابن المقفع والحلاج وسواهم مروراً بالمتنبي ووصولاً إلى أحدث المثقفين الذين لم تسمع بهم إلى اليوم، فالعداء يقوم على الدور التنويري، ويتأسس على الدور الفاعل للمثقف الذي يتميز عن السلطة بالقدرة والإقناع والحجة، وهنا، ومنذ ابن المقفع، وإحراق كتب التوحيدي، وكوبرنيكوس وغاليله وغيرهم كثير نشأ التباين بين السلطة والمثقف، والذي أسس لعداء طويل مستحكم لا يمكن التصالح فيه إلا بانتصار أحدهما، وبما أن سلاح المثقف كلمة فاعلة، قد تكون سامة، فإنه يلجأ إلى ابتلاع كلمته أو لسانه وربما أجبر على هذه الفعلة، فمات مختنقاً أو مسموماً، فهل من عبث أن يبقى المثقف منتحراً أو منحوراً بكلمته منذ ذلك الزمن البعيد؟!

أغرقوه بالوهم فما غرق

العلاقة بين المثقف والسلطة، أو بين المثقف والمجتمع علاقة ملتبسة تقوم على الجهل والدراية، على الحقيقة والوهم، فالثقافة حقيقة باقية وما سواها وهم، والثقافة تأسيس لقادم عاصف على سابق راسخ والمجتمع يمارس أبداً مهمة متابعة الرائد وهو المثقف، قد يستطيع وقد لا يستطيع، قد يصل إلى نتيجة، وقد لا يصل، ولكنه في النهاية يقف مشغوفاً بالأدب والثقافة، لا يكفيه ما وصل إليه، ويتقدم مسرعاً لخطف جوهرة الإبداع وجمرته من بائس فقير إلا من غنى الروح والفكر.. قلت: كان السباعي ضابطاً، وكان وزيراً، لكنه وقف طويلاً يبحث عن مجد في محاماة ورواية، فكتب (إني راحلة) وسعى إلى صداقة الفن، ودفع إلى تقديم رواياته سينمائياً، وكان له ذلك وهو الوزير، وكل ذلك في إطار تكريس الثقافة، وذهب أبعد من ذلك عندما تقرّب من طه حسين الذي كتب فيه مقالات عدة مشيداً بأدبه وخلوده! استكثر السباعي مكانة طه حسين فحاول أن يقربها من ذاته، وأن يأخذ من بريقها، لكن ما كتبه طه حسين عن السباعي ضاع في غمرة النقد الكثير والرؤية الصحيحة، فبقي طه حسين، وذهب ما كتبه عن المتقرب من الثقافة والمثقفين..!

إنها الثقافة الإيجابية التي تشكل حامل المجتمع، والتي تبعد المجتمع عن أي محاولة من محاولات الإغراق بالوهم، ألم يكن المثقف مقصداً للشهادة والترويج؟

ألم يكن مجلس شوقي في كرمة ابن هانئ مقصداً؟ ومجلس العقاد في شارع العقاد اليوم ألم يكن غاية؟ وجلسة نجيب محفوظ كذلك كانت، وجلسة الناقد عبد القادر القط في القاهرة الجديدة كانت تستقطب كل القادمين والزائرين والمقيمين، وأذكر أنني عندما زرت جلسة الدكتور القط كانت يوم الجمعة، وقت الصلاة وكانت الجلسة مليئة بالمثقفين، بل إن دلالات المكان دوماً تكون بالمثقفين وجلساتهم وبيوتهم..

الثقافة أثر باق وتأثير لا يزول

من الهافانا إلى الرشيد وأبو شفيق أماكن كان للثقافة فيها الأسهم الكبرى، كان الصافي النجفي والجندي والعيسى والعجيلي والماغوط.. فمن بدوي الجبل إلى نزار قباني، وجبرا إبراهيم جبرا وعلي فخرو والبردوني مثقفون كانت ثقافتهم ذات أثر باق لا يزول.. فهذا عبد الغني العطري يعرف الحي بمكتبه، ومطبعة ألف باء تدلك على المكان الأكبر وهي الأشهر، وإذا ما جاء اسم الأسرة عرفت بثقافتها، ولم تعرف بما ملكت، ألم يضع كثيرون وبقي حبيب كحالة ضاحكاً باكياً؟ ألم تغب الشخصيات وبقي الريس يصدح في جنبات سجن أرواد: يا ظلام السجن خيّم إننا نهوى الظلاما.؟!

ارتفع الفندق الكبير مكان البيت العربي، فضاع المجلس الجميل لمجلة الثقافة وتفرق زواره بين القبور والأحياء ما رحل العطري وسعد صائب وعبد السلام العجيلي وبقيت الجلسة الثقافية التي لا يستطيع أن يأخذ من بريقها أحد.

إنه الفعل الثقافي

إنه بريق الثقافة

وحين يطمئن بك المجلس تدرك أنك مع الفاعلين المؤثرين الذين يحركون الحياة ثقافياً واجتماعياً وسياسياً كما يريدون، ولكنهم الحوامل لحياة معقدة اكتسبت جمالها منهم لا من سواهم، كانوا فاعلين، وحين خرجوا كانوا فاعلين، ذلك لأن الثقافة كانت لديهم أصيلة وعميقة، وكانوا جديرين بها أوفياء لها..

غاب المثقفون أم الثقافة غابت؟

لم يغب المثقفون في يوم عن الحياة السياسية والعامة، والثقافة بمفهومها العام كانت فاعلة إيجاباً، فالعجيلي للثقافة والخارجية وبدوي الجبل للصحة

والإسعاف العام، ليس لتخصصهما، بل لقدرتهما على الفهم والاستيعاب والانطلاق، فمثقف من هذا المستوى قادر على الفعل وعلى الرفض وإبداء الرأي، لذا نجح المثقف الحقيقي في إدارة الأزمات لأن عباءته أكبر من الأزمة، وألوانها وطنية بامتياز، وأنا في هذا السياق أقدر الثقافة الأصيلة لدى المرء، والتي تعطيه أبعاداً إضافية، بحيث لا تكون المساحة جزءاً من اللعبة بقدر ما تكون جزءاً من المهمة التي أنيطت به! وفق هذه الرؤية أفهم غياب المثقفين والأدباء اليوم وأعرف أسباب التردي الحاصل في جوانب حياتنا كافة فقد غاب المثقف الحقيقي أو غيّب لمصلحة المثقفين الجدد الذين تم فرزهم وانتقاؤهم بعناية شديدة ليمثلوا الثقافة الحديثة، كما في مفهومي البرجوازية الوطنية والبرجوازية الحديثة.. وفي هذا السياق أفهم أن يعتزل العجيلي الحياة السياسية في الستينيات من القرن العشرين ويبقى وفياً لسورية، وأن يخرج علينا نصف أمي، لا يجيد بناء الجملة العربية أو سواها ليعطي صورة للثقافة التي دمرت مجتمعاتنا، وجعلتنا كيانات ضحلة أمية..

قد تكون الإجابة معروفة وواضحة، ولكن من حقنا أن نسأل: من أين جاء هؤلاء المثقفون الذين لا يصلون بوعيهم إلى وعي الشارع؟

من كرّس هؤلاء على حساب المثقفين الحقيقيين؟

من الذي جعل الجهلة حاملي ثقافة؟

هل يقدر هؤلاء بضيق أفقهم أن يستوعبوا الآخر؟

هل يجيد هؤلاء فهم أنفسهم قبل فهم الآخر؟

نعم.. لهذا ولأسباب أخرى كان مثقفونا مع التحفظ على التسمية خصوماً للوطن ووقوداً ضده أكثر من العامة والجهلة.. وهل أجدر بحمل المصيبة من جاهل أسبغوا عليه صفة الريادة في المجتمع؟!

منذ أحرقت كتب التوحيدي

وعلى أعواد الحلاج

وعلى درجات ابن عربي

ضاعت ثقافتنا، وصارت تابعة للسلطة لا رائدة

هل هناك من يعدّ لي خمسة مثقفين عرب؟ لا أظن وخاصة إن كانت بمفهوم الثقافة الحقيقية والانتماء الوطني الصرف.. لا الانتماء الذاتي وما ماثله من جيب ومكان وسلطة.

*   *   *

أسرار الإبداع.. تعدد الزوايا

كاتباً مسرحياً، وناقداً مهماً عرفته، قرأت أول ما قرأت للدكتور رياض عصمت كتابه (ضوء المتابعة)، وقد كنت شغوفاً بالمسرح وقراءته ونقده، فأحببت هذه الومضات أو الإضاءات الناقدة المتابعة للحركة المسرحية في سورية، وقد أعجبت بمكانته النقدية حين وجدت الناقد المسرحي الكبير الدكتور علي الراعي يأخذ بآرائه في دراساته للمسرح العربي والمسرح السوري ضمناً، وقد تحولت وقفاته النقدية في زمن الألق المسرحي السوري إلى مراجع معتمدة في الدراسة والتوثيق.. ولا تزال صورة الناقد التشريحي القاسي في ذهني وأنا أتابع قراءاتي له في ميدان النقد المسرحي علاوة على القصة القصيرة وخاصة مجموعة الثلج الأسود، إضافة إلى متابعة إسهاماته الدرامية المتميزة في الميدان التاريخي والفصيح.

للإبداع أسراره

يطل الدكتور رياض عصمت بكتاب يحمل عنوان (أسرار الإبداع) دون أي إضافة أو عنوان فرعي، والعنوان بحد ذاته مبدع وفيه إمكانية البوح بهذه الأسرار، قرأت الكتاب بتمامه فوجدته مجموعة من الدراسات في شخصيات فنية عالمية، أغلبها ينتمي إلى عالم المسرح، ثلاث وعشرون دراسة تبدأ من شكسبير وحقيقته والتأويلات وأعماله وخلوده، وانتهاء بدان براون ونوبة الابن الضال مما اقترفته يداه أو نسب إليه بعد نشر روايته الملغزة شفرة دافنشي..

معلومات تبسيطية

في هذه الدراسات، أظنها مجموعة، يقترب رياض عصمت من قارئه بتلطف، ولا يحمل أي سمة من سمات الأستذة التي يتمتع بها حقاً، فقد حدد الشريحة المستهدفة، وقدم دراساته كما ينبغي في منبر أقرب إلى أن يكون عاماً، وهذا ما نقرؤه في شكسبير ودراسته التي لم تترك شيئاً من تفاصيل حياته وأدبه، ولكن بلغة ومعالجة تبتعد عن صرامة الأكاديمية والبحث، ليصبح شكسبير قريباً من القارئ العادي، بل من القارئ المتخصص الذي يحصل على معلومات جديدة من هذا الطرح، وربما يصبح مدفوعاً لمعرفة المزيد، وكذلك الأمر مع إبسن ومسرحه الذي ترك أثراً عالمياً، وفي برشت يؤصل لتأثير برشت عربياً، وهنا يعود إلى ما كان قد بدأه في ضوء المتابعة.. وفي سارتر وكامو برع في قرنهما بدراسة واحدة لعقد موازنة بين أفكارهما الوجودية، فبين أين يجتمع الكاتبان وأين يفترقان، في الوقت الذي أنصف الجوانب الإبداعية لكل منهما، كما ركز على علاقتهما بالعرب.. وفي هارولد بنتر بلباقة وعلمية تحدث عن مكانته الأدبية التي تظهر استغراب حصوله على نوبل في هذه الفترة..

تنوع في الشخصيات واهتماماتها

لم يقتصر اختيار رياض عصمت على المسرح مع تخصصه وشغفه، بل كانت الاختيارات متنوعة متعددة، تدفع القارئ إلى تتبع الشخصية المدروسة باهتمام وشغف:

هل وجد شكسبير حقاً؟، هل ما زال إبسن حياً؟ مقاربات لمسرح برشت هارولد بنتر، آرثر ميلر، تنيسي وليامز، إدوارد أولبي، وهي شخصيات مسرحية عرفت مسرحياً أكثر من أي فن آخر.

دورليس ليسنغ، نورمان مايلر، أغاثا كريستي، سارتر، كامو، لوكيلزيو، خالد حسيني، إيان فلمنغ، دان براون، شخصيات تعددت اهتماماتها بين الفكر والرواية والمسرح، لكنها عرفت بالرواية والقص.

ستانسلافسكي، موريس بيجار، مارسيل مارسو، مارلون براندو، جوان بيز، مارتن شين، وهي شخصيات فنية مهمة للغاية في ميادين الفن العديدة.

غيفارا، كارين أرمسترونغ، شخصيتان فكريتان أثرتا في الفكر.

وهذه الشخصيات متنوعة الإبداع والبلدان من العسير أن يلمّ بها القارئ، ومن الصعب أن يجد غايته عندما يريد القراءة عنها في كتاب واحد، وفي الوقت نفسه فإن الجامع الذي يجمع هذه الشخصيات هو الإبداع، لذلك سلكها المؤلف في سلك أسرار الإبداع الذي يبعد أي نوع من الغربة عنها، بل يجعلها متآلفة متجانسة لا تعاني أي اغتراب.

أهمية الشخصيات الإبداعية

لو استعرضنا هذه التراجم والدراسات في الشخصيات والقضايا والهموم الإبداعية والفكرية لوجدنا أنها شخصيات إشكالية، وذات مساس بالشرق، فمن شكسبير الذي تطرح إحدى القراءات علاقته بالشرق والعرب إلى إبسن وأثره، وبريشت وتأثيره الكبير في كتاب المشرق واليسار، وصولاً إلى كريستي وعلاقتها بالشرق، وقوفاً عند سارتر وكامو وعلاقتهما بالقضية العربية والفلسطينية، والخلاف الذي لا نزال ندفع ثمنه بين الالتزام والإلزام حسب رأي الأحزاب اليسارية التي ولدت من رحم الماركسية.. حتى براندو ومشهده التاريخي في القيامة الآن بصلعته ونظرته الخاطفة القاتلة، ومعالجة قضايا الظلم، ومن ثم الانحياز إلى الذات.. أما غيفارا فهو رمز لنا ولهم وقد يكون في مراحل للمسكين أكثر وأرمسترونغ وقضايا الإسلام.

وهناك أهمية خاصة، فمن خلال دراسة الدكتور عصمت، ومهامه في الداخل والخارج أتيحت فرصة اللقاء المباشر بعدد من هؤلاء، وهذا يعطيه قدرة في مراجعة قراءته السابقة في ضوء المعرفة حتى وإن كانت خاطفة في مؤتمر أو لقاء أو ما شابه ذلك.

(أسرار الإبداع) كتاب مهم يقدم صورة بانورامية لمبدعين عالميين يحسن أن نقف عند إبداعاتهم الأهداف عديدة أهمها تغييب النظرة الأحادية التي لا تزال تحكمنا.

* * *

البطل التراجيدي بحث عن بطل

أو أيديولوجيا؟

رحلة سقوط الأقنعة واحتراق المسرح بأبطاله..!

ربما كان مصادفة، وربما لم يكن أن يصدر كتاب الدكتور رياض عصمت (البطل التراجيدي في المسرح العالمي) بحلته الجديدة هذه الأيام، وأزعم وأنا ممن قرأ هذه الدراسات أنها خرجت في وقت مأزوم يشهد بحثاً عن بطل، وبحثاً عن تراجيديا، وبحثاً عن ايديولوجيا في زمن انهيار الأيديولوجيات! سقطت الأيديولوجيات اليسارية شيوعية ووجودية في معمعة الاقتصاد، وتحت قبضة السلطة المطلقة.. ولم تلبث أن عادت الأفكار مجدداً.. سابقاً أفرزت تلك التنافسية الأيديولوجية فناً ومسرحاً وأدباً وسينما.. فهل تعود فترة الاصطراع الحالية بأدب مميز ومسرح وسينما؟!

ربما نعم.. ربما لا..

عودة إلى المجد

تستيقظ العقود من المقالة الأولى في أبحاث (البطل التراجيدي) إذ يتحدث د. عصمت بشيء من الاقتضاب عن المسرح وتاريخه وفنونه ليختم مقدمته (أنا أميل إلى الاعتقاد أن الاهتمام بالبطل التراجيدي هو ما طور بعضاً من أهم اتجاهات المسرح الحديث في الإخراج والتمثيل أيضاً) وبهذه الكلمات

يظهر المؤلف وهو الدارس والناقد والخبير المهموم بالمسرح العناصر الأساسية التي تجعل المسرح مسرحاً وهي: النص - الإخراج - التمثيل، وهذا التحديد في الصفحة التاسعة من المقدمة يؤيد أن النص المسرحي، وإن كتب مسرحياً، فإنه يبقى أدباً مسرحياً، ما دام لم يخضع لعمليتي التشخيص والإخراج.. وأهم ما يمثله هذا الكتاب بأبحاثه الرشيقة العميقة في الطرح، والبسيطة في التناول هو العودة إلى مجد المسرح على المستويات العالمية والمحلية، وإن كنا نعاني اليوم عربياً وسورياً من أزمة مسرح، فالعالم كله اليوم يعاني وإن اختلفت الحجوم في المعاناة.. ومن مجد المسرح الذي صنع فكراً وإنساناً وأيديولوجيا تنبثق الفكرة في أهمية الأبحاث.

أنساق في المسرح

قدم الكاتب أبحاثاً، وأهمل أبحاثاً أخرى، درس شخصيات وابتعد عن أخر وعزا ذلك إلى ضيق الوقت وحجم الكتاب، واعداً باستكمال الدراسات والشخصيات، والمتابع يعلم أن د. عصمت وفى بعض ما وعد في كتابه أسرار الإبداع عندما تناول عدداً من المسرحيين الذين لم يدرسهم في (البطل التراجيدي) مثل تينسي وليامز، وقد قسم كتابه حسب التاريخ والمدرسة فكان القسم الأول: البطل التراجيدي في المسرح الإغريقي والإليزابيتي والكلاسيكي الجديد، وضم دراسات في أدويب - إلكترا - فاوست - ماكبث - فيدر.

والقسم الثاني: البطل التراجيدي في المسرح الحديث والمعاصر وضم وقفات مع نصوص وشخصيات وقضايا في هنريك إبسن - بيزاند يللو - لوركا - حياة برشت - حياة غاليليلو - انتينغون لجان آنوي - آرثر ميلر والتراجيديا المعاصرة في موت بائع متجول - العبث وبيكيت.

وبالعودة إلى هذه الدراسات المختارة من تراث دارس متعمق في المسرح نجد أن المنجز الفكري كان ينال العناية الكبرى من المؤلف، وكثيراً

ما عرج على قضايا المجتمع والالتزام والاشتراكية والعبث عند المؤلفين الأصليين، أو عند من قام على تقديم هذا العمل من المخرجين، وهذا يحسب لمصلحة النص النقدي الذي اتخذ من النص أرضية، ومن العرض إن وجد مجالاً لتطبيق رؤاه النقدية بل الفكرية الأيديولوجية التي شكلت المنطلق الذي نظم هذه الدراسات، وما يجري اليوم على الساحة السياسية العربية يؤكد أحقية إيلاء الجانب الفكري العناية التي يستحقها.

بين الدراما والبطل

يميز الدكتور عصمت بين البناء الدرامي الذي قد يكون قوياً، والبطل الشخصية الرئيسية التي قد تكون مرسومة رسماً دقيقاً بارعاً، وهذا ما دفعه إلى الاختلاف في التناول، فهو لم يعرض القضايا والنصوص، وإنما ركز على مفهومي الدراما والبطل، وهذا ما جعله يقف مع تجربتين لعلي عقلة عرسان ورفيق الصبان، فكان في الأولى ناقداً قاسياً، وفي الثانية ناقداً مشيداً، والاعتماد في النقد على زاوية التناول ووجهة النظر التي اعتمدها المخرجان لأوديب وإلكترا، قد نختلف في منطلق المخرج أو الناقد، والخلاف يحكمه الظرف الذي أظهر لي النص، والعرض، وهذا ما يؤكده الناقد خلافاً للمقدمات (لكن التفسيرات جميعاً تنطلق من البطل التراجيدي: الإنسان حسب مفهوم ذلك الزمان، وحسب كل زمان) وهذه النتيجة هي ذاتها ما خلص إليه د. عصمت في إلكترا عن المسرح اليوناني (تطور من الوعظ المباشر واستخلاص النتائج الأخلاقية إلى طرح التساؤلات الفلسفية العميقة أمام موقف يستدعي من أبطاله التراجيديين التفكير والاختيار، إنه باختصار نموذج للمسرح الإنساني).

وفي فاوست يقول: «فاوست هو وحده المسؤول عن لعنته، ونحن لا ننتظر من الشيطان على أي حال أن يكون طيباً».

وفي ماكبث يخلص عصمت إلى «إدانة الفردانية في الحكم، ورفض لأن تكون السلطة تسلطاً، فالذي يعزل نفسه عن مسيرة شعبه، ويوغل في تأكيد ذاته عن طريق القسوة، يتحول إلى ديكتاتور، ويحفر بالتالي قبره بيديه».

وفي الحديث الطويل نوعاً ما عن إبسن يخلص إلى «كان إبسن باحثاً عن النبل، وعن الإنسانية الحقة في روح الإنسان التي بدأ الجمود يحلّ فيها، ويحول دون تطورها وتحررها، وإن أفضل ما يعبر عن الفترة الأخيرة من حياته وأدبه هي كلمات كيتس: «الموت هو ذروة الحياة».

ويختم عصمت دراساته العميقة بعبارة تلخص ما يمكن أن يكون من دور الفكر والأدب «إن القرن العشرين هو عصر تحاور المدارس، وليس عصر ديكتاتورية مدرسة أو فلسفة بعينها، وعندما سئل بيكيت: من غودو؟ أجاب: لو كنت أعرف لقلت ذلك في المسرحية.. بدأ بيكيت البحث في عالم العبث، ألم أقل لكم إن اللامعقول معقول جداً؟

البطل التراجيدي والبناء الدرامي

أولى المؤلف عناية خاصة في الحديث عن البناء الدرامي للأعمال المسرحية التي عرضها أو عرض لأصحابها وقضاياهم، وهذا الحديث من الأهمية بمكان لأنه أدى عملاً تشريحياً للعمل المسرحي في البناء الدرامي، ليخلص إلى أسباب بقاء بعض الأعمال دون غيرها لمؤلفيها، وأسباب بروز بعض الكتاب من خلال شخصية واحدة قام بإتقان صنعتها، وقد أشار في مواضع عدة إلى أن بعض الأبطال هم نسخ لأبطال سابقين، لكن المؤلف برع في صناعة بطل تراجيدي من نوع مختلف.

والمؤلف هنا يقترب من المقولة المعروفة إن كل الحياة هي صراع بين خير وشر، ومن مقولة الجاحظ المعاني مطروحة في الطرقات، والبراعة تكمن في نقل صورة الخير والشر وتعميق هذه المفارقة، أو في براعة التقاط المعاني

المطروحة في الطرقات لصياغة نص مختلف، وربما لصناعة شخصية واحدة مميزة تصبح رمزاً مطلقاً للبطولة التراجيدية في حياة الشعوب.

والسؤال المهم هنا: هل مثّل هؤلاء الأبطال رؤاهم وحدهم أم إنهم حملوا هموم المؤلفين؟

يبدو من المقاطع التي اقتطعتها أنهم عبروا عن عصورهم، وعن رؤى المؤلفين، بل تناغموا مع آراء الدكتور عصمت، وربما وصلوا إلى أعماق مخرجي نصوصهم لذا عملوا على تقديم النصوص برؤاهم.

سقوط الأقنعة

رغم تقليديته اعتمد الكتاب شكل القناع وستارة المسرح، وربما كان هذا من باب الإيحاء إلى سقوط الأقنعة، وانهيار المسرح واحتراقه بالممثلين الذين يشخصون حياتنا منذ الأزل، فهل تتكرر التجارب كما نظن؟ وهل يتلو انهيار الأيديولوجيات نهوض جديد لها؟ قد يتهيأ لنا ذلك، لكن الأكيد الذي لا يقبل أي نقاش أو جدل أن المستمر هو مقولة الخير والشر، الحاكم والمحكوم، البطل التراجيدي والمسحوق من بني البشر، تبقى العلاقة الجدلية بين إنسان وإله، مستعيذ وملجأ، والأمل كل الأمل أن تتنفس الحياة الصعداء على مسرح قد يحتاج إلى بطل تراجيدي وربما هزلي وفي الأغلب لا يحتاج.. لكنه البطل على كل حال..

كتاب نقدي غني في صورة جديدة تكرس عناية خاصة بالمسرح تقترب من النص لتصنع نصاً على شاكلته، إن اتفقت معه في الرؤية أو اختلفت.. قد نقرأ وفق النظريات الفلسفية أو الفكرية وقد نعود إلى الجرجاني ونظريته التذوقية البحتة.. لكن المهم أن نقرأ.

ومثل هذه القراءات على اختلاف مناهجها عند الدكتور عصمت يمكن أن تشكل منهجاً لدى دارسي المسرح في وقت نحتاج فيه إلى تجارب مسكوبة في صياغة رشيقة قريبة تقرب ما أصبحنا بعيدين عنه للغاية.

قمر كيلاني رحيل حبر الياسمين

الأديبة المميزة والإنسان النبيل الراقي من قلم مغادر

معاناة طويلة مع المرض.. معاناة مع المرض قصيرة أو متوسطة.. معاناة مع الحياة والأدب والإنسان.. بمعاناة وبغير معاناة نأتي ونرحل دون أن يشعر بنا الآخرون.. عندما تبدأ الياسمينة سكب روحها في الأرض لتغادر لا يشعر أحد أن الخير بدأ الانسكاب بالأرض.. لا يلتفت أحدهم إلى الذبول الذي يتحرك أمامنا.. وحين تحدث الحادثة، حين يرحل النازفون بالحبر والحب والوطن نسمع عبارة ممجوجة مرفوضة مفادها: رحل بعد معاناة مع المرض!

متى عانى؟

كيف عانى؟

أين كنا؟

ماذا قدمنا؟

أسئلة كثيرة تدور في الأذهان ونحن نودع أعلامنا الذين أحبوا كما يجب وأكثر، والذين انزرعوا في تراب الوطن فعطروه وتعطروا به.. ها هم الأحبة الذين كانوا رواداً فأغنوا الحياة الأدبية يرحلون تباعاً.

رائدة تبزغ قمراً

عندما نتحدث عن قمر كيلاني، فإننا نتحدث، من تكلم سابقاً والذي يتحدث اليوم، والذي سيتحدث لاحقاً، نتحدث عن أديبة رائدة ومهمة في الفنون الأدبية التي تناولتها، ففي الرواية استطاعت قمر كيلاني أن تثبت جدارتها، وأن تكتب

روايات بوزن الدوامة تعجب القراء، وتأخذ مكانتها، إلا أن الظروف وطبيعة النشر جعلت هذه الرواية غير ذائعة كما يتم التعامل في أماكن أخرى، وقراءة قمر كيلاني لا تحمل صفة قراءة الأدب النسائي بقدر قراءة أدبها رائدة في الأدب في سورية وعلى المستوى العربي.. فقمر ليست امرأة تتناول قضايا المرأة بسلبية أو معاداة للطرف الآخر من المعادلة، بل تتناول قضايا المرأة بكون المرأة من التكوين المجتمعي كله.. ظهرت قمر كيلاني في وقت مبكر أديباً لذا أخذت مكانة تستحقها لريادتها أولاً، ولفهمها الصحيح للأدب ودوره في الحياة.

قمر كيلاني والمقالة

لا غرابة أن تكون مقالة قمر كيلاني الأسبوعية هي صلة الوصل بينها وبين القارئ في زمن العولمة والسرعة، وأكاد أزعم أن عدد الذين يذهبون إلى قراءة الرواية والقصة قليل أمام الإعلام، ومن هنا تظهر أهمية انحياز قمر كيلاني للزاوية والتزامها بها، فبقيت صورتها محفورة في الورق والذهن وبقيت كلماتها طازجة تتحرك أمام القارئ الذي كان مستمتعاً بأدب رفيع ولغة مميزة قد لا يجدها في مكان آخر، فقمر كيلاني هبطت من عالم الأدب واللغة لذلك كانت تعتني بلغتها عناية بالغة، ولم تكن لتركن إلى كتابة مقالة أسبوعية كواجب صحفي، وأنا أذكر هنا من باب الإنصاف لا أكثر أن عدداً من الزوايا التي كنت أقرؤها لقمر كيلاني قد لا تعالج أمراً ملحاً، وقد لا أتفق معها في رأي ذهبت إليه، ولكنني كنت أستمتع بقراءة نص أدبي مميز بلغة شفافة راقية.. وهذا ما لا يتحقق لكثيرين ممن يكتبون، فهم يلهثون غالباً وراء الفكرة والقارئ وهنا تضيع الغايات والطرق، لذا كانت قمر كيلاني تكتب وتحتفظ بجمهورها الذي يتابع زاويتها حتى في العطل لأنها كانت تسهر على حدود الأدب ولا تغادره، ومصداق ذلك أنها لم تبحث يوماً عن زاوية حادة فيما تتناول، بل كانت متصالحة مع ذاتها ومحيطها ومجتمعها إلى درجة يصعب فيها التمييز بين الشخص والمحيط.

الصمت والبوح

عاشت قمر كيلاني هادئة غير متطلبة، وغير باحثة إلا عن الأدب واللغة، لم تعتن بما يعتني به الآخرون والأخريات، فوهبت نفسها للآخر فكراً ولغة، واكتفت بما يمكن أن يعطيه الآخر دون أن تثقل عليه، لذا كان اسم قمر كيلاني يدور في فلك الإبداع والأدب فقط، ولم يكن يتردد في أماكن أخرى، والسبب يكمن في أن قمر كيلاني اكتفت بكلمة ونص وصورة وابنة تحبها، ولم تبحث عن أمر آخر، حتى في حواراتها أو الموضوعات التي دارت حولها لم تكن متمركزة على ذاتها، فهي أديبة تعرف مكانتها وحجمها الكبير، وتؤمن بأن الزمن لن يهمل كلمة قيلت لإنعاشه وتحضره وتقدمه..

كانت صامتة بحق ذاتها

وكانت تبوح من أجل الأدب

وضعت ابنتها لينا يدها على مكتبها وأشارت إلى أن أمها لم تكن تجلس على هذا المكتب إلا عندما تعطي درس لغة عربية، وهي عاشقة للتدريس، وهذا يعني ببساطة أن لحظة عناق النص مع قمر كيلاني لم تكن محددة أو رسمية، بل إن ما تمارسه من طقس كتابي كان مشابهاً لها في طبيعتها وخصوصيتها.

لم أستغرب هذا الاحتفاء بقمر كيلاني في رحيلها، فهي أولاً تستحق أدباً وشخصاً، ولكن الأهم أن قمر كيلاني حسب تعبير صديقي مروان ناصح إنسان نبيل، وهذا يعطي صورة عن تصالحها مع الذات والآخر، فهي شخصية غير إشكالية في علاقتها مع الآخر، لذا لا نستذكر منها إلا صورة النبل والرقي والهدوء!

التقيت قمر كيلاني مرات عديدة، لكنني لم أرها يوماً تبحث عن حوار أو حديث أو أمسية أو نص، فهي تكتفي بنفسها وبما يفتح لها من الأبواب دون أن تسعى إلى تكريس ذاتها وفرادتها كما يحاول غيرها!! لذا أستغرب ولا أستغرب ألا يحتفظ جيل الشباب من قمر كيلاني إلا بزاويتها الصحفية.

تكريم ورضا

رأيت الرضا في السيدة لينا ابنة الكاتبة الراحلة، وهي كاتبة ومتفوقة أيضاً، وقد أثبتت مكانتها وموقعها في الوسط الإعلامي والأدبي في مصر، ونشرت في كبريات الدوريات المصرية، ولها جهود عديدة ومنشورة، رأيت الرضا، فهي ابنتها واكتسبت منها الكثير من الصفات الأدبية والإنسانية، ومنها الهدوء والبعد عن الشللية والتكريس، وظهر ذلك الرضا في الشكر الذي توجهت به للإعلام، فالسيدة قمر كيلاني - برأي ابنتها - أخذت تكريماً لائقاً من الإعلام والجهات المكرمة، وهذا يسجل للسيدة لينا التي لم تكن متعالية على ما تم من أجل الأديبة الراحلة، وأثبتت العلاقة الأسمى بين أم وابنة، فرحيل الأم الحنون الأديبة والصديقة والملازمة يغطي على ما سواه..

أما التكريم فقد كان لائقاً بقمر كيلاني وأرجو من وزارة الثقافة، وهي المبادرة دوماً إلى طبع أعمال الأديبة قمر كيلاني كما طبعت أعمالاً سابقة لأدباء آخرين، ويكون ذلك بإشراف ابنتها الأديبة لينا، ويضاف إلى الأعمال المطبوعة سابقاً مختارات من مقالاتها الثقافية المنشورة في زاويتها الأسبوعية، وأعمال قمر كيلاني من أدب وأبحاث ومقالات يمكن أن تكون موسوعة لطيفة تكرم من خلالها سورية بتاريخها المعاصر.

رحلت قمر كيلاني معززة مكرمة، تاركة إرثاً أدبياً راقياً، وسيرة نبيلة فيها الكثير من الأدب والحياة المختلفة والمتصالحة مع الذات والآخر.. رحلت عن دمشق لتسكن باطن أرضها حتى تطمئن إلى أنه ما من أحد يمكن أن ينزع جذورها منها في رحلة الأبد الطويلة جداً، بعد رحلة قصيرة جداً، لكنها اكتسبت قيمتها من العطاء المميز.

* * *

«شبه لي» والسقوط في أتون الفكر..

لم عليَّ أن أسمع أشياء لا أراها
لم عليَّ
أن أفرغ من الشعر
عندما أذهب إلى النوم

سامي أحمد شاعر ومثقف، شاعر بإحساس عالٍ مغلف بالسخرية اللاذعة، واللقطة المرّة مرارة حياتنا، لذلك كانت مجموعته «شبه لي» المملوءة بالأسئلة الكثيرة، والمتحركة أمامنا كما نتحرك نحن... فيها الكثير من الاحتجاج لما هو مفروض علينا، كأن يذهب الشاعر إلى النوم تاركاً متعته أو حيرته أو ما يؤلمه وهو الشعر!

عندما أمسكت «شبه لي» عرفت من العنوان والإخراج والقياس أنني أمام ديوان مختلف يذكرني بتلك الإصدارات التي حملت تواقيع الرواد من الشعر الحديث، وصدرت عن دور متخصصة.

في غيابك أتحدث إليك
في حضورك أتحدث إلى نفسي
أطالب وحدتي
بحصة أكبر منك

فهل تدري أن الشاعر يحتاج إلى حضورها ليتحدث إلى ذاته، ربما تحولت هي إلى ذاته التي يخاطبها ليطلب حصة أكبر منها في غيابها..

يعتمد الشاعر الومضة الشعرية المكثفة التي توجز رحلة طويلة من الثرثرة اللغوية، بما فيها الثرثرة الشعرية، ورضي الشاعر هذا التكثيف الذي يمنح القارئ مزيداً من التفكير والقدرة العميقة على الرصد، وها هو يعرّف أناه:

أنا السلّم المعلّق على الغبار

والباب الذي لم يُصرع بعد

أنا المعلّق بثياب متعبة

وبعقول تجهل المعنى

فهل قدر السلم أن يبقى معلقاً بانتظار المزيد من الغبار؟

وهل من المفترض لكل باب في حياتنا أن يئن ويصرع؟ لذا فرح الشاعر بكونه الباب الذي لم يصرع، وما بين الثياب المتعبة، وربما المهلهلة، والعقول التي تجهل المعنى يقضي الشاعر بحثاً عن الأشياء المشبهة عليه، وهو الذي شبه له..!

شبه لي

أن الشمس في بلادنا

تشرق من الشرق

والأرض تدور

شبه لي أن لي بلاداً

قد يكون أمر الشبهة مقبولاً في كثير من الأحيان، ولكن أقسى ما يكون عليه المرء هو أن يقول: شبه لي أن لي بلاداً، البلاد الملاذ والأمان والوطن لا يملك المرء أن يتيقن من وجودها، وهذا الاتكاء الناجح من الشاعر على التراث الإنساني أعطاه زخماً معرفياً كما أعان على التكثيف.

كان عليَّ أن أقتل الماء

في جسد النهر

لأحيا التدفق

لأرى الأشياء كما تراني

من العمق إلى السطح

فكل داخل

سوف يقرأ سفر خروجي

سيعرف جهلي

بأن الكتب هي قهوتي

وفراشي

وناري التي لا تخبو

يبدأ الشاعر مجموعته بـــ«شبه لي» أن لي بلاداً في غلاف أول، ليختم «عشت دهراً بلا لحم» في غلاف أخير، وما بينهما هموم امرئ، ومعاناة فكر، وهل أصعب من أن تكون الرحلة في حياة أحدنا بلا متعة.

بحثت فيَّ

إلى أن نمت

وصحوت بلا متعة

هو الجدل

من يستخدم عصمة الحياة في كل شيء

مريض ومن أتباع السماء

كهذه النقاط المكثفة الإشكالية يقضي الشاعر مجموعته ويقدم أشياء أكثر جرأة، وهي - كما أعرف - تشكل مشروعه الشعري والفكري عموماً، وبعيداً

عن الشكل فإن مجموعة سامي أحمد «شبه لي» تقدم ذاتاً وأبعاداً لا تحصر بشخص شاعر بقدر ما تتوزع على المجتمع، ربما لتظهر الكثير من العصيان الفكري الذي أوصلنا إلى شواطئ من الغربة داخل بلداننا لم نكن نتخيل أن نصل إليها..

قلت بعيداً عن الشكل..

وكذا قريباً من الشكل، فأنا لست متحيزاً لشكل، وأرى الاختيار الموفق للشكل هو الأقوى وقد أجاد سامي اختيار الشكل الذي كان موفقاً للغاية..

شكراً لكثير من الألم الذي قرأته في هذه المجموعة، ولما قدمته المجموعة من معرفة بشعر وشاعر ألوم ذاتي لتقصيري في المعرفة.

أمواج من الشعر

يحضرني ذلك اليأس المرضي من الأدب وتأثيره، والشعر وحضوره، هذا اليأس الذي خرج من واقع مزر لا يؤمن بالاستمرارية والتفوق أحياناً والتبلور بأشكال أخرى عديدة وجديدة في كثير من الأحيان.

كما يحضرني قول الشاعر الكبير سليمان العيسى عندما قال لي: لدينا شعراء متفوقون ومهمون، ولكننا لا نعرفهم، إنهم مثل الرمل في أرضنا لا ينتهون.. هذا أمل الإبداع عند سليمان العيسى، ويأس النقد لدى قراء لا يقرؤون أو نقاد توقفوا عند نزار قباني عام ١٩٤٤، ولم يتابعوا خمسين ديواناً اعترف نزار في آخرها بأنه مجرد رجل، وأنها قبيلة من النساء.

نص يقدم ذاته

أنا من الذين يقفون باحترام أمام القامات الإبداعية والقامات المتفوقة على مختلف اختصاصاتها، وأنادي بأن تأخذ هذه القامات حقها من التقدير والتخليد، ولكنني أرفض الوقوف عند صنمية انتهت وأخرى لا تزال بيننا على حساب الشباب الذين كنت واحداً منهم ذات يوم، فللأجيال إبداعات يفترض أن نقف عندها باحترام وتقويم، وخاصة إذا كان النص هو من يقدم نفسه.

(أمواج عارية وشيء من هذا القليل) ديوان وصلني منذ أيام على موعد مع الشعر، ودون انتظار للشاعرة قمر صبري الجاسم، والمجموعة الديوان فيها الكثير من التحريض النصي لشاعرة تحدد مقياس نصها وغايته، وتقدمه طازجاً ومدهشاً.

شعر تراكمي

أعترف بتقصيري فأنا لم أقرأ سابقاً لهذه الشاعرة مع أن الغلاف يعدد لها ثلاثة أعمال غير المجموعة الجديدة، وربما كان لسوء التوزيع الدور الأهم في عدم وصول النصوص لقمر أو لسواها إلى شريحة كبيرة من القراء... وعندما تمد قمر يدها بالشعر لا بد من الوقوف طويلاً أمام نصوص شعرية فيها الكثير من الإدهاش اعتماداً على تجربة شعرية تراكمية وليست وليدة اليوم، بغض النظر عن لافتة أمير الشعراء التي حملها الديوان، وربما كان لهذه اللافتة الأثر الذي يتفوق على التراكم!!

بين الأنا والآخر

نصوص قمر ليست نصوصاً شعرية وجدانية غنائية خاصة، وقد تعودنا الشعر الغنائي شعراً بوحياً، بل أذهب أكثر من ذلك، فإن كثيرات من الشاعرات يتقوقعن حول الذات ما يفقد النص الشعري بريقه الذي يحوله إلى شأن عام وإلى صوت للآخر الذي قد يكونه المتلقي.

حسين أحسّت
أني ذبت أمام حكايتها الأسطورة
طأطأت حنيني
خجلت أحزاني من غربتها
حزن الأمل عليها
أنبني وجعي
نظرت نحو حناني، لحظة عطر
ثم بكت أشواك قصائدها
في منتصف البوح ندى
الاحتفال بالموروث

قمر شاعرة حديثة العصر، عربية الثقافة والموروث لذا نجد في عدد من قصائدها إشارات وتضمينات لنصوص قرآنية وتراثية، وهذا ما يعزز أهمية النص الشعري غير المنبتّ عن جذوره الفكرية واللغوية.

لا حول لك

إلا على ماء تسربل

من مفاصل ضفتيك

وبعض ما ملكت يداك

قدوا قميص حنانك المتجعد الأمواج

من قبل وأرقهم هواك

ورموك في بئر اتزانك

لم تكتف الشاعرة بمرافعتها أمام يوسف وحسنه وقميصه وإخوته، وها هي تعود إلى سليمان كذلك.

نشرت أهازيج البلابل

في الفضاء حماسها:

يا أيها النمل اخرجوا

واستنكر الصمت الكلام

الذئب طأطأ رأسه للوعد

محترماً بلاغة شوقه

واسترسلت كل الضفادع بالنقيق

حين وصلتني الأمواج عارية لم أشأ إلا أن ألقي نظرة، فإذا بي أتابع وأتابع حتى أتيت على المجموعة بسلاسة وعذوبة، لأقف أمام نص شعري مميز حقيقة فلا التباس، ولا إغراب حتى في النصوص الدرويشية المهداة إليه، وهذا ما يدفع في النفس الأمل بوجود نص يليق بالجيل ولا يبتعد عن موروث قريب أو بعيد... فإلى اليد الشاعرة والروح الشاعرة رد التحية التي قد لا تدانيها.

نوافذ الروح سورية الحضارة والأبجدية والوجدان عبر الزمن

تسجيلي سوري يقدم قصة سورية من الفرات إلى حلب وشام في نوافذ مدهشة

رياض عصمت: فكرة السيدة أسماء الأسد لاستثمار سورية متحفياً

جمال سليمان: سورية الدولة الأهم في السياحة الدينية لكنها لم تستثمر

الليث حجو: أنا سعيد لكنني ترددت أمام مسؤولية إنجاز هذا الفيلم

إنها سورية، العريقة الموغلة في القدم

نوافذ للرؤية الممتدة في عمق التاريخ البعيد، وروح تؤنس الإنسان وتعطيه فيضاً من الألق الروحاني المختلف الذي قد لا يجده الإنسان في مكان آخر في الدنيا، بل لن يجده حتماً..

إنها سورية التي تعاقبت على الحضارات، ولم تتعاقب الحضارات عليها، تعاقبت على الحضارات، صبغتها بصبغتها، ثم أرسلتها إلى شتى بقاع الكون.

فكانت الحضارة

وكانت الزراعة

وكانت الكتـــابة

وكانت الأبجدية

وأخيراً، ومن نافلة الحضارة السورية العريقة كانت الأديان، ولدت فيها أو جاءت إليها، وفي الحالين قامت سورية بإعادة الصياغة، احتفظت بالجوهر النقي ثم أرسلت نورها للعالم أجمع، فكانت نقطة البداية للحظة الهداية..

وبعد هذا ينتابنا الألم

هل يقدر هجين أن يغير ملامح سورية ودورها؟

وهل تستطيع مؤامرة أن تأخذ من بريق سورية وحضارتها؟

وهل يصمد أي شخص - مهما كان - أي شخص أمام نور سورية ونقائها؟

رحل أولئك وبقيت سورية

هدأت الزلازل وأعيد اكتشاف سورية

نسيت الألسنة لهجتها، وسورية قالت: كذا تكلم المسيح!

سورية فرات الحضارة على الجانبين

سورية طائر الفينيق على ساحل ورّد الحضارة

سورية ماري وإعمار المدائن

سورية تدمر ومدينة بناها الشيطان

سورية حلب الهند الصغرى

سورية المنطقة الجنوبية ملتقى الديانات أذرعات

سورية بصرى والرومان، معلولا والبيزنطيون

سورية شام الهوى والعبق والنشوة والسلاف

هذه سورية الأمس، وهذه سورية اليوم، ولا عجب أن تكون سورية بلا ماض ولا حاضر، فالزمانان واحد فيها يضمهما شارع مستقيم

كنيسة وجامع وعبق بهارات يختصر الزمان والمكان

هذه سورية لا دعوة ولا ادعاء، أي حجر ترفعه تجده حضارة، وأي إنسان - وإن اختلفت معه - هو الجوهر، لذلك رحل القادمون، وعجزت الكوارث، وتماهى كل شيء أمام سورية، وعاد سوري اليوم ليرفع شيئاً من تراب عن وجه الأرض ليقرأ الكون تحت قدمي سورية، وما من عبث قال ابن المعرة وحكيمها وشيخها الجليل أبو العلاء:

خفف الوطء..

لم يقصد الأجساد المتفسخة، ولم يعن الإنسان البالي، لكنه عنى ذلك الإنسان، الأزلي بحضارة وعظمة..

نوافذ الروح مشروع قيد الإنجاز

لم يخطر ببال أن (نوافذ الروح) الذي أعلن عنه منذ أسابيع يمكن أن يملك هذه الشحنة من الفن والحب والعلم الآثاري بسورية، وهنا يسجل لجميع العاملين في الفيلم من عمر أبو سعدة في السيناريو الرشيق وحتى المخرج حجو والعاني، يسجل لهم هذه الروح الجماعية التي لم تترك شيئاً دون أن تستغله وتستفيد من وجوده، ويلفت الانتباه ذلك التعاون غير المسبوق من فعاليات وزارة الثقافة الموسيقية والآثارية والعلمية والانتاجية.

لم يكن الإعلان عن نوافذ الروح مبالغاً فيه، بل إن الظروف ظلمت هذا الفيلم الذي أريد له أن يشق منهجاً جديداً في عالم الأفلام الوثائقية... فقد اختار له القائمون عليه شكلاً جديداً يجعل الفيلم الوثائقي بين الدراما والتوثيق، ليكسب رشاقة ويكون أقرب إلى المشاهد وذهنه وتفكيره ووجدانه، وهذا ما كان في تلك الأمسية الدمشقية المميزة في الآرت هاوس حيث اجتمعت وزارة الثقافة مع مؤسسة جذور لإطلاق باكورة التعاون لمشروع طويل هو قيد الانجاز، لم تكتمل إلا حلقته الأولى التي حملت توقيع عمر أبو سعدة وعمار العاني والليث حجو، وطابع الفنان الكبير جمال سليمان صورة وصوتاً وحضوراً مميزاً دليلاً وأستاذاً ومحاوراً وعاشقاً للروح ونوافذها..

التعاون المثمر

قبل عرض الفيلم تحدث وزير الثقافة الدكتور رياض عصمت عن المشروع الثقافي المتحفي الذي كان فكرة السيدة أسماء الأسد من أجل استثمار الآثار السورية، وجعلها قبلة للسائحين، فأعاد الفضل في المشروع إلى أصحابه، وقدم لهذه التجربة المتميزة كما يليق شاكراً التعاون المثمر بين الوزارة ومؤسسة جذور، كما تحدث رئيس مجلس أمناء جذور ففصل في المشروع وفكرته، وتحدث عن جذور المؤسسة غير الربحية، واعتذر من أن هذا المشروع كان مأمولاً له لقاءات كبيرة لكن الظروف حالت دون ذلك، وتحدث النجم جمال سليمان عن الثقافة والاستثمار في الميدان الثقافي، والنظرة إلى الثقافة وبأنها تستهلك ولا مردود لها، مستغرباً أن تكون الثقافة في هذه المكانة، وأشار إلى تجارب عالمية عملت على إعلاء الشأن الثقافي.. وكان موفقاً في الحديث عن تجربته الفنية التي أعطته فرصة التجوال في كل سورية فرأى وعرف وتعلم.. ليخلص إلى أن سورية تستحق منا أن نحب أرضها أكثر، وأن إنسانها يستحق أن يعيش في هذه الحضارة كما يجب.. لم يشأ أن يستمر في الحديث، وترك الحديث للفيلم.

الروح مدى

نوافذ الروح فيلم الستين دقيقة، بطاقة سورية لها وعنها وإليها، وهو من المحطات القليلة التي يمكن للمرء فيها أن يصنع هدية لائقة لنفسه يقدمها بنفسه.. للفيلم الوثائقي طقوسه، وكنت متخوفاً للغاية من هذه الطقوس.. فكان الفيلم محاور عديدة:

- المسرح الميداني
- الإنسان الذي يعمره
- الأثر الذي نراه

- العلاقة مع الآخر

- حامل الرسالة

أما المسرح الميداني، وهو سورية الأثرية، فقد كانت مفتوحة أمام نوافذ الروح، ويتم التنقل بين الواقع الأثري الحالي، والمتاحف التي تضم بعض الآثار في خزاناتها وقاعاتها، وقد تم الحديث مع المشرفين والخبراء بشكل مباشر، وفي دردشة أقرب إلى البساطة، وهذا التجول الرشيق جعلنا نتعلق بالآثار أكثر، بل يتهيأ لمن زارها أنه يلتقيها، أول مرة، ومن زارها صار من الواجب عليه أن يعود مجدداً ليلمس مناطق نوافذ الروح تحديداً، سواء في المدن المأهولة أم المدن المنسية، وهنا أذكر أن الفيلم تمكن وبأسلوب غير دعائي أن يستحث المتلقي على سياحة من نوع جديد، فهل تتضافر الجهود بين الثقافة والسياحة من أجل خلق سياحة ثقافية آثارية وداخلية وخارجية من نوع مختلف؟ أظن ذلك ممكناً في ظل بروز فهم اقتصادي جديد للسياحة ودورها..

أنسنة الآثـــار

دخل الفيلم بكاميراته الماهرة إلى المناطق التي تضم الآثار فزار الناس، وعاش معهم، فهذه المناطق لها أهلها، ولها خصوصيتها، ولها عاداتها وتقاليدها التي قد تكون أكثر انفتاحاً من المدن، ومهارة الليث حجو الدرامية قربته من هؤلاء أكثر، فرصد تفاصيل دقيقة من حيواتهم الاجتماعية ليقدمها بين يدي سورية وتاريخها الموغل في القدم، الحديث جداً، وما بينهما الانسان المتمسك بعراقة الماضي وحياة الحاضر دون تخل عن أحدهما.. فكانت المدن والأسواق والإنسان نوافذ تفتح للروح آفاقاً تمتد من الفرات وقلعة حلب وأرواد إلى تدمير وشام.. وفيما يتعلق بالآثار، فأنت أمام أدق التفاصيل الجميلة والرقم وتحليلها فتمت الاستعانة باستاذ جامعي بحلب، ومشرفي المتاحف، والخبير الدكتور محمد محفل الذي كان له فكرة غاية في الندرة،

وهي إن بلادنا وهبت الديمقراطية للعالم بالكتابة، فالكتابة والأبجدية جعلتا العلم متاحاً للجميع بعد أن كان للنخبة، ومن ثم وهبت هذه الديمقراطية للعالم، قال هذا وكانت أرواد أرضه والبحر أمامه مدى يمتد إلى قبرص واليونان حيث توجهت الأبجدية لتدور العالم.

الآخر على المسرح

لم يختر المخرج الراحة، ولم يخل الأماكن ليتحدث عن الآثار، بل رأينا السائح الأجنبي والمحلي يتحرك في الآثار، يتحدث، يتحاور مع البائع، يلبس التراث وبعفوية دون تحضير، بعضهم يحمل الأشياء، بعضهم يتركها، وأنت تتابع المحنكين الأجانب يقفون أمام الآثار بكل تقدير واحترام، ومن ثم كان دخول الحياة الاقتصادية والاجتماعية وبعض الصناعات، فكان التعريج المهم على معلولا استكمالاً لحديث بدأ عن دير سمعان والمسيحية وبولص الرسول لتكون تقلا الناجية بدينها التي انشق الجبل لتنجو محطة مهمة في معلولا مروراً بجبعدين والصرخة وهما مع معلولا المناطق التي لا تزال تتحدث لغة المسيح الآرامية حتى يومنا.. وفي المولوية ورقصها ودورانها الروحي كانت راحة النفس بعد جولة لم يدر المتابع انها تجاوزت الفرات والمتوسط والمدائن المنسية لتحط في دمشق وسط نوافذ الروح القادمة من سقف الأموي والحميدية والسوق المستقيم.

الحضور لحامل الرسالة

قبل عرض الفيلم سألت نفسي: كيف سيحكي الفنان جمال سليمان الحكاية؟ وما دوره؟ ولكن مع العرض قدرت الدراسة المطولة للمؤلف والمخرج والفنان والكادر بتمامه للوصول إلى الطريقة المثلى، فلم يجلس حامل الرسالة يقرأ وتذهب الكاميرا وحدها لتعود إليه بنفسها بل كان يسابق

الكاميرا، يرقب الآثار، يدفع الأبواب، يدخل المدافن، يحاور المتخصصين بكلمات خاطفة، ويعود ليمتطي صهوة الرشاقة، ويتجول في الحاضر ليعود إلى الماضي، من اللحظة الأولى وحتى لقطة النهاية، بقي جمال سليمان بألقه وحبه للمادة التي يتحدث عنها، فأعطى صناعة السفن والصابون والمولوية الكثير من الألق، وأكره نجوميته التي نحبها على الخروج من الكادر ليكون المكان بطلاً، ويحول نفسه إلى شاهد من نوع مختلف على النور المنبعث من نوافذ الروح السورية التي نحبها.

تجربة مخيفة ترددت فيها

كان المخرج الليث حجو يقف هامساً لاحد المنظمين وهو يقول: ظلمنا عمر أبو سعدة والعاني، وأنا لا يحق لي الحديث لأن العاني شريكي في العمل، وقال: ترددت كثيراً في قبول هذا العمل، فأنا أمام مسؤولية كبيرة، عندما وضع أمامي هذا السيناريو خفت كثيراً من تقديم سورية في ستين دقيقة ومع الرضا عن التجربة ورضا الجمهور إلا أنني سأتردد وقد لا أعيد التجربة، كما أعرب عن سعادته عن العمل، وقال: هكذا كان السيناريو مكتوباً، وأضاف: سورية تستحق منا أجمل الأعمال.

لم نستفد مما في سورية

النجم السوري جمال سليمان كان حاضراً وألقى كلمة في الافتتاح، وفي دردشة جانبية أضاف إلى الغصة التي كانت في كلمته: إن سورية لا تحتاج إلا لمن يحبها ويعمل من أجلها، وقال: إن سورية وحدها مؤهلة للسياحة الدينية فما من احد في العالم ومن أي دين إلا وله في سورية مكان، وضرب لذلك أمثلة من برنامج أعمدة النور، وعلاقة الموارنة بمار مارون كما أبدى سعادته لهذا الفيلم ومشاركته فيه.

جزء من نشاط

وعن هذا الفيلم وإنجازه من المؤسسة العامة للسينما، أشار المدير العام لمؤسسة السينما محمد الأحمد إلى أن انجاز هذا العام من المؤسسة غني وفيه أفلام طويلة انتهى مخرجوها من تصويرها مثل «هوى» لهيفاء بيطار وواحة الراهب من بطولة النجمة سلاف فواخرجي، والفيلم اليوم في مرحلة المونتاج ليصبح جاهزاً قريباً، إضافة إلى أفلام عديدة سيتم عرضها في عروض خاصة، وأكد الأحمد رضاه عن الإنتاج ضمن الامكانيات المتاحة والظروف.

نوافذ الروح فسحة للروح وللفكر في سورية التاريخ والحضارة والتنوع، سورية التي احتضنت الحضارات واستوعبت ما فيها ضمن أرضها فتحولت إلى كنز غني أيما غنى، تستضيف سورية كل من تعاقب عليها وسكن أرضها لتعيد إنتاجه من جديد، وربما تصدره للعالم بطريقة أخرى..

* * *

شـام

في قلب الأزمة

خيط الحكمة

ما بين وبين خيط دقيق جداً قد لا يراه غير الحكماء، ما بين المستحيل والممكن ويا ريت خيط دقيق عبّر عنه كثيرون منذ الأزل، ولا يزال القرّاء يدورون في فلك هذا التعبير، فما من شخص - حتى من الذين لا يملكون قراراً - لا يذكر ويتذكر ويستشهد بقول معاوية بن أبي سفيان (بيني وبين الناس شعرة) وصارت هذه الشعرة تدعى شعرة معاوية لكثرة تداول حديثها... ولكن الكثيرين لا يذكرون لمعاوية أول حاكم عصري مدني في الدولة العربية الإسلامية حادثتين، الأولى مع عمرو بن العاص حيث سأله معاوية: ما الدهاء يا عمرو وأنت أحد الدهاة المعدودين؟ فقال له عمرو: الدهاء عندي إذا دخلت المدخل أحسنت الخروج منه، فقال له معاوية: أخطأ من سمّاك الداهية، أما أنا فالدهاء عندي ألا أدخل مدخلاً أحتاج الخروج منه... إنه خيط معاوية... أما الثانية فهي أنه عندما تفقد خصومه يوماً لم يجد أقواهم شكيمة وأخطرهم عليه، فأرسل له صرة من المال أعطية ليسكته بها، فما كان من ذاك إلا أن أعاد الصرة مع ولده وقال له: اذهب واضرب بها وجه معاوية... توجه الولد – الشاب - وهو خائف من لقاء معاوية الخليفة ووصية والده، وما إن دخل على معاوية حتى قرأ معاوية المهمة التي أوكلت بالشاب الذي أخفى الصرة وراء ظهره، فتقدم منه معاوية وقال له: اضرب بها وجه عمك يا بني إن أردت، فخجل الولد، واحتفظ بالصرة وصار من أنصار معاوية...

إنها شعرة الحكمة وشَعيرة الحكم... التي تفصل ما بين المستحيل الحدوث، فما من أحد من الناس يرغب أن يكون قلقاً، ولو فهم الكثيرون شعرة معاوية لكان من الاستحالة بمكان أن تحدث الأحداث الجسام، لأنها تتنافى مع رغبة الحياة الكريمة...

إنها الشعرة التي تجعلنا نتعامل مع الواقع بأشهر تعريفات السياسة (فن الممكن) فالمداورة قد تكون في زاوية صغيرة، وقد تكون على مساحة الأوطان، والمهارة أن نستفيد من الممكن قبل أن تضيق المسافات... هذا ما تذكرته وأنا أستمع إلى ما تحدث بأنه فهم الشعب، وإلى من تحدث عن خدماته للشعب، وإلى مستشار مبارك الفقي الذي قال: المشكلة أن القرار يتخذ بعد أسبوع من وقته، وهذا ما دعوته بـــ«يا ريت»، فالرؤية الاستشرافية عندما تغيب عن الذهن المتوقد دوماً تحل الكارثة ويكون الخيط الدقيق مؤذياً للغاية... الوطن بحاجة إلى إنسان وجهوده، والإنسان بحاجة إلى وطن وكرامته، إنه الخيط الدقيق أو الرفيع أو خيط الحكمة ما بين المستحيل والممكن ويا ريت.

* * *

تأقلم وتقلّم وتألم!

يحفل تراثنا بمفردات وعبارات تثير لي الغضب الشديد، ومن المؤكد أنها أثارت غيري، ولكن ما كتبوه لم يصلنا أو لم تحتفظ به الذاكرة! فالتأقلم عبارة عن حالة سلبية للغاية، وأنا ممن يتمتعون بصفة التأقلم كما يخبرني أصدقائي، والتأقلم جاء من تعبير (لكل مقام مقال)، وفي العامية (حسب السوق نسوق) فهل التأقلم يساعد الإنسان على حياة من أي نوع كان أم يساعد المجتمع على التحرك قدماً دون أن يعبأ بالفرد ومشاعره؟!

أليس الفرد شكلاً مصغراً للمجتمع؟ وهل نسعى لتحقيق سعادة مجتمع أو دولة إن لم يكن الفرد سعيداً؟! قبل أن تتكاثر الهموم، وعندما كنت قارئاً نهماً، حفظت أقوالاً لا حصر لها، وبعض هذه الأقوال لا أعرف قائليها، ولعلّ أهم قول حفظته، ولست متأكداً من ترجمته هو قول: «إذا كانت سعادة البشرية قائمة على قتل طفل بريء فلا كانت هذه البشرية ولا كانت سعادتها» والقول (لعمانوئيل كانت) الفيلسوف الألماني، وهذا القول لا يزال يؤلمني ولم أستطع أن أتأقلم مع عبارة تعارضها، ولم أستطع أن أقلّم أظفار فكري تجاه السعادة المجتمعية، وبعد أن دلفت إلى مرحلة الشيخوخة واستطعت أن أحقق بعض ذاتي، وكل هذا البعض كان بجهد فردي ومن باب الخلاص الفردي، لا أزال مؤمناً بقول الفيلسوف الألماني، وأزعم أن ما نحن فيه من تدهور عالمي يقوم على إهمال الفرد المجتمع وتحويل المجتمع إلى فرد... ساقت إليّ الظروف حظاً جديداً قلّم الكثير من غرور الشخص، وسبب لي ألماً، ودفعني إلى غربة

جديدة أشكرها، فقد التقيت الأستاذ الدكتور العَلَم غانم هنا في حوارات فكرية ساخنة، وكنت قبل ثلث قرن أتسلل إلى محاضراته في جامعة دمشق لأحضر شيئاً من الفلسفة التي لا أفهمها، وبالمصادفة خصني القدر بموافقات وإيماءات من الدكتور ورأسه الذي كان يومئ بالموافقة على بعض ما أقول... ومن ثم ترافقت مع الدكتور في الطريق، ودار بيننا حديث طويل وعميق... وأول شيء سألته عنه مقولة الفيلسوف (كانت) فكانت إجابته: (يايا) لإيمانويل كانت قول بهذا المعنى وإن لم يكن حرفياً، إنه من روح الفيلسوف... وفي اليوم الثاني جاءني الدكتور غانم بكتاب من ترجمته لكانت وعليه عبارة شكرت من خلالها قدرتي على التأقلم للجلوس إلى الأستاذ الكبير، وهذه العبارة جعلتني أحافظ على سياسة التقليم التي أتبعها مع نفسي عملاً بقول الإمام علي كرم الله وجهه: (النفس تجزع أن تكون فقيرة).

وسببت عبارة الدكتور غانم الكثير الكثير من الألم على زمن عاد ولم يعد، عشته ولم أعشه...

عدت سنوات وعقوداً وجلست أستمتع وأستمتع بمحاضرات غانم هنا والطيب تيزيني ونايف بلوز ذهب منهم من ذهب وغاب منهم من غاب... وبقي الحاضر شاهداً على إخفاق فكري أسهمنا في دفعه إلى الإجهاض إكراماً لذات فوق المجتمع أو مجتمع يطحن الفرد طحناً متناسياً أن هذا الفرد هو الذي صنعه...

أيكون لكل مقام مقال...؟!

أيكون الفرد مساوياً للمجتمع إن كان بهذا المستوى؟!

* * *

إسلاموي.. إسلاموي!!

إسلاموي!! والله إنه إسلاموي.. هل تعرفه؟ سأله. لا.. لكن لا تدافع عنه، إنه ابن المؤسسة الدينية! وكيف حكمت؟ إن شواهده فيها التراث الإسلامي والقرآني، وها هو يكتب مدافعاً عن المفتي، وكل ما يكتبه يدل على إسلامويته ويتابع محدثاً صديقي الذي نقل التفاصيل: لا تدافع عنه، فهو صاحب فكر إسلاموي..!

هذا ما كان من صديق صديقي الذي لا يعرفني، ولم يلتق بي، ويعجب كل العجب من إسلامويتي، ومن نشر «الوطن» لحوار مع المفتي، ومن ثم الدفاع عنه يقوم على الحجة والبرهان، وأنا هنا سعيد ولا ألوم صديق صديقي على ما قال، وسعادتي ناتجة عن إيماني بوصول ما أردته، وعن يقيني بأن من يدعون العلمنة لا يميزون بين الشخص ونهجه والنظام، فهم يميلون إلى فلان المتشدد لأنه لا يوافق النظام، ويرفضون المعتدل لأن رأيه في قضية ما توافق مع النظام، وهذا الأمر أقل ما يقال في توصيفه: الجهل..!

أما حول هذه الازدواجية الممزوجة بالجهل، فأذكر أحد أصدقائي القدامى وكيف كان ينتقد بشدة السادة العلماء، ويذكر أوصافاً لا تليق بحقهم، ولكن عندما توافق هؤلاء مع ميله الغريزي، ولا أقول الديني صار يستشهد بآرائهم مضيفاً عليهم أعظم الألقاب والتبجيل، وحين اعترضت عليه حرد صديقي ولم يكلمني منذ ذلك الوقت، وكل ما قلته له: لا يجوز أن تبجل من انتقدته بقسوة قبل مدة بسيطة.. لست آسفاً لحرده وخصومته، وصديق صديقي

ينتمي إلى الفصيلة نفسها.. فهؤلاء لا أراكم الله مكروهاً، وأعرف أنه بعد قراءة هذه الجملة سيصفني بالإسلاموية، فأعيد لا أراكم الله مكروهاً، إقصائيون رافضون للآخر، ينتقدون الآخر، لكنهم يرفضون رفضاً مقيتاً اعتماداً على ما يناسب ميولهم وآراءهم الغريزية!

أما عن إسلامويتي فإنني أجدني مضطراً للحديث فيها أول وآخر مرة، فأنا أنتمي إلى الإسلام ديناً وأفتخر وأنتمي إلى الريف مكاناً وإلى النحو والإعراب تخصصاً، وجدت في طفولتي في بيئة لا يوجد فيها أندية وكل ما فيها مدرسة ومسجد لتحفيظ القرآن، فتعلمت على يدي شيخي أحمد لوظا وقومت لساني ولغتي، ومن ثم تخصصت في اللغة العربية، مع أنني كنت أرغب بالإخراج، لكن مسؤولاً متنفذاً حرمني البعثة وأعطاها لغيري فاستقبلتني اللغة العربية وأعطتني فعشقتها وتماهيت معها ومع علومها ذات الصلة الوثيقة بالقرآن والحديث والأدب، ولأنني أحب الإتقان لم أتعاط مع موادي وسيلة للاختبار والنجاح، بل دخلت في منهاجي وموادي في رحلة عشقية سكنتني وسكنتها.. لهذا أنا سعيد عندما يصفني أحدهم بالإسلاموية، فهذا دليل على تعمقي في دراستي وأبحاثي، فإن كنت أنعت بهذه الصفة للغة واهتمام ودراسة فأنا فخور بها وأنتمي إلى الإسلام الذي أعشقه ولا أرفضه، وأتمثله في عدم السرقة والاعتراف بالآخر والحرية، لكن ما أرفضه هو ما يعفيه صديق صديقي (الإسلاموية الإيديولوجية) وقد نشرت في ذلك كتباً وأبحاثاً ومقالات لا يريد صديق صديقي أن يراها لأنها تضعف موقفه.. أما التعمق في التخصص فأنا فيه إسلاموي حتى النخاع يا سيدي.

ولا بد من الوقوف على استنكاره حديثي عن سماحة المفتي فله حديث طويل أختصره بعبارات بسيطة، فالسيد هذا علماني يدعي العلمانية، لكن انسجاماً مع الغريزة السياسية يميل إلى جهة محددة، وهذه الغريزة أبدعته عن

سماحة المفتي الأقرب إليه فكرياً بسبب الموقف السياسي.. أما أنا يا صديقي وبسبب إسلامويتي القديمة والمتأصلة فعلاقتي مع سماحته عمرها أكثر من عقدين، وأعرف من دواخله وصدقه وعلمه وإيمانه ما لا يعرفه صديق صديقي العلماني، وعندما كتبت عشرات المرات وليس مرة واحدة عن سماحته وعلمه ودوره فقد كتبت ذلك من إيماني بمجتمعي وحسي الذي قد لا يوافقني عليه كثيرون، وعندما أنشر أتمنى أن يتم النقاش فيما نشرت وليس في شخصي وشخص سماحته.. الصداقة والمعرفة القديمة تقتضي إيضاح الحقائق، وليس الدفاع، فسماحته أعلى من أدافع عنه أنا وسواي وهو ليس في مجال اتهام كما يدعي صديق صديقي ومن لف لفه.. طب نفساً أيها الرجل الذي لا يعرفني ولا أعرفه، وهذا أيضاً استخدام تراثي إسلامي، طب نفساً.. وأنا أدافع عن رأيي ومذهبي الفكري حتى لو صدر عنك وليس عن سماحته فقط، وأشكر رأيك وأحترمه، ويكفي أنه حفزني للكتابة، والشكر.

* * *

لم أحظَ بتلك الصورة!!

ثلاثون عاماً بالتمام والكمال مرّت على معرفتي بهذه الأسرة، أرادت سيدتها يومها أن تعلمني وأنا القادم من الطزاجة أشياء كثيرة أعلاها الانعتاق والحرية، تعلمت أشياء كثيرة لكنني لم أستطع أن أتعلم منها الرفض والنقمة، فهي تعيش عيشة مرتاحة وترفض وتنقم!! مضت الأعوام الثلاثون والأسرة من شأن إلى أعلى، ولكن مع الاحتفاظ بلغة الرفض.. أخذوا كل شيء ممن يرفضونهم وأعطوهم كل شيء أيضاً، وفي أي لحظة يمكن أن يستيقظ الرفض.. وفي حال.. سأبقى مكاني وهم سينتقلون إلى رفض آخر!!

حين سمعت صوته ورأيت صورته على الشاشة انتابني إحساس بالقرف ليس منه فقط بل من كل الذين لا تعنيهم بلدهم، فهذا الذي أسمعه وأراه كان قبل عامين الآمر الناهي، وكان لا يسمح لأحد بانتقاده، وله منابره، وخطرفاته تطبع في أرقى شكل، ويجلس في أفضل النوادي... حين اصطدمت معه استعدى عليّ متنفذي الحي، وكاد ينال مني لو لم أكن حذراً في كل ما أعمل.. اليوم يمارس نقده المجلي ويعرّج على من استعداهم عليّ ليشتمهم!! والطريف أنني قد أسأل عن علاقتي به، ولا يسأل المتنفذ! وقد يرى بعضهم عداوتي له ناتجة عن انتظار محبة! وفي الغد، قد يصبح هذا الأحد شيئاً لكنني لن أتمكن من التحول من رفض إلى آخر..!

حين فتحوا له كنوز سليمان على الحقيقة، كان الجوع يهرش معدات الآخرين، والخواتم الذهبية في يديه، فتحوا له كل الأبواب المغلقة، فهو يتحدث عن سورية، ويجب أن يعرف كل شيء ليخدمها أفضل خدمة، ومن حبه لسورية الأمس واليوم ربط أفضل شبكات العنكبوت المصلحية، ووصل إلى كل ما يريد مالا ومكانة، وحين أراد تحول خلال أيام ليصبح شريفاً، لكن شريف من نوع آخر، ابن النظام، ابن سورية اليوم، وعدو النظام، عدو سورية الغد.. من السهل أن تجد ولداً عاقاً لوالده، لكننا لن نجد شخصاً أقوى من وطن ومستقبل، فهو صناعة تافهة لحرفي تافه!

حين حظي بصورة مع شخص ذي مكانة في القصر، جاءني يحمل الصورة والخبر، ويرجو أن أنشرها له، فالسيد استقبله، وهو يريد للناس أن يعرفوا أنه مقرب وتم استقباله! كان عيداً حقيقياً له عندما نشرت الصورة، شكر كثيراً، وربما وزعها على كل أصحابه، ومنذ مدة غاب عن المشهد، عرفت أنه صار معارضة، وأنه لا يتذكر تلك الصورة ولا يريد لأحد أن يتذكرها، وربما ادعى أنني أنا من ولّف ولفق له هذه الصورة التي نشرت قبل عامين لأسيء إلى سمعته... وبما أنني أحب شام ولا أرغب بالمغادرة إلى أي مكان في الكون، فإنني أشكر الله أنني لم أحظ بتلك الصورة حتى لا أتحول إلى معارضة أو مهارشة، بل أشكر الله أنني لم أتموّل من أحدهم لأصبح معارضة شريفة ولا يعجبها حتى نبيذ الريان وتسأل عن كسارا!!

حين كنت أبحث عن عمل إضافي منذ عشر سنوات بعد عودتي من الخارج، التقيته في دار نشر كان كالطاووس يدخل ويخرج، ويحمل أوراقاً، ويهمس في أذن هذا، ويتحدث مع هذا، وعندما تحدثت معه في الشأن العام، لم يعجبه رأيي، ولم أتوانَ عن المتابعة، ولم تفدني كل حركات صاحب الدار في العض على الشفاه، بعد أيام أخبرني صاحبي بأن الرجل مقرب جداً،

وكتب فيَّ أنني معارضة.. لا أشك لحظة واحدة في كل ما قاله صديقي فكل أعداء النظام هم أبناؤه أو مقربوه، لكن هذا الشخص الذي كتب فيَّ أنني معارضة كتب تعقيباً على أحد موضوعاتي: إنه ابن النظام ولا يؤمن بالحرية الفكرية!

ولكنني لم أحظ بما حظي..

حين يتسيد الأوباش تكون النتائج كما رأينا وسمعنا وقرأنا..

لك الله يا شام...

* * *

ماذا يكمن في التفاصيل؟

قالوا من عبث: الشيطان يكمن في التفاصيل الصغيرة، قالوا وصدقنا، ومشينا وراء هذه المقولة فاعتنينا بالخطوط العريضة، وأهملنا التفاصيل، فهذه التفاصيل إما أننا لا نرى لها أي قيمة وإما أننا نتركها مؤجلة! وفي الحالين نعيش على حافة الخطر، فقد تكون التفاصيل الصغيرة من الأهمية بمكان لتتطابق مع ذواتها ومجتمعاتنا، لنكتشف لاحقاً أننا عشنا خارج ذواتنا، وهذا ما أثبتته الأزمة التي تمر بها سورية والمنطقة بشكل عام، فقد بدا أن الحضارة والتقانة والثقافة والاقتصاد والعيش والفكر والتحلل ليس إلا من مظاهر الحياة اليومية التي عجزت أن تكون مدنية، وفجأة ودون سابق إنذار يتبين - ومن جميع الأطراف دون استثناء واحد - أن ما نعيشه ليس سوى قمقم استعرناه من الاخر! أو قناع فصلناه على مقاسنا لنخفي تشوه أفكارنا ودمامة وجوهنا وقذارة دواخلنا المعجونة بفكر مختلف ومتخلف، ولنكتشف فجأة أن أعظم مفكرينا ومنظرينا يرتبطون ببدوي مات قبل قرون طويلة، يعيشون على اجتهاداته وآرائه وقراءاته لعلاقات دينية ومذهبية وطائفية، لم تكن بين المسيح ومحمد عليهما السلام، ولم ترد في قرآن أو حديث!!

أعرف أن ما أقوله لن يلقى أذناً مصغية، فكل واحد يرى الحقيقة إلى جانبه، فهذا يبكي قميص عثمان وذاك يتمسك بالحسين ويفلسف استشهاده، دون امتثال قوله تعالى: «أمة قد خلت» كل واحد يرى الحقيقة إلى جواره، ويريد أن يترك الآخر آراءه ويهجرها، فهو متسامح والآخر برأيه متشدد..

وهكذا يتم الفرز والاصطفاف فنجد أنفسنا ونحن الذين ندعي التحضر خلف عباءات وجلابيات ولحى ونصوص ما أنزل الله بها من سلطان!!

ويزداد الأمر تعقيداً عندما يهرع السياسي ليلبس هذا اللبوس! ويركض المفكر والمثقف ليبدأ الجدال والدفاع عن هذا الاهتراء! يسقط التاريخ دفعة واحدة منهاراً كما لا يمكن أن نتخيل، وتتحول الرموز التي نتمثل تقاها وورعها، وبفعل منا إلى دمىً وأراكوزات كل غاياتها أن تقفز على نوابض من جانب إلى آخر لتستل بندقية وتقتل الآخر!

لا يتخيل أحد - دون استثناء بما في ذلك صاحب القلم - أنه يملك الحقيقة أو جزءاً منها فالحقيقة هي الحق والحق هو الإله حسب رأي من الآراء لذا فكل حيواتنا وجهة نظر وكل ما نفعله رأي، وكل ما نعتقده أمر خاص بنا، وكل رمز يجب أن يبقى رمزاً لمن أراده دون أن يتحول إلى دكتاتور وسلطة تقهر الآخر ليل نهار!

كنا دوما نتحدث عن الخطوط العريضة، فالحضارة التي ننتمي إليها عربية إسلامية، ولا نعطي بالاً للاتفاق على التفاصيل لحل معضلاتها أو التنازل عنها بالاتفاق، أو التقاسم وفقها بالاتفاق.. وكلما اشتد الأمر اكتشفنا أن حضارتنا العربية الإسلامية فيها الإسلام والمسيحية، وفيها العربي والفارسي والتركي والكردي، وفيها السني والشيعي، وفيها ثنائيات تحتاج إلى أكثر من حياة لقراءتها ومعالجتها وفهمها.. لن أراهن برأي إنسان أن يبرهن على أصالة انتمائه، ولكن أراهن من يدّعي أن هذا من الاستعمار وحده... إنه من فعلنا وجهلنا الذي نحاول أن نوصفه بالطيبة لنرضي غرورنا.. وللحديث صلة.

لك الله يا شام

* * *

تربة الغد السوري

لم أكن أنتظر هذا اليوم في تاريخ سورية، بل لم أكن أتوقع في أسوأ الظروف أن أشهد ما نشهده، ليس من باب تعصب وطني أو سوري مرضي، بل من باب المنطق، فما نعيشه من تنوع وتعدد ليس جديداً، بل متجذر ومتأصل في حياتنا، ومن هنا كانت الثقة كبيرة بأننا لن نشهد ما شهدناه، ولكن الترهل الذي عاشته مؤسساتنا عبر عقود، والرغبة في الإثراء والغنى من فئات عديدة في المجتمع على حساب البلد أوجدا شرخاً كبيراً في مجتمعاتنا، بل قاما بفرز ما لا يمكن أن يفرز، وعند تعذر الفرز بدأ العمل على تمزيق الوطن الجميل.. إذا كان أحدنا منصفاً، وسورياً حقيقة فعليه أن يشير إلى مواطن الخلل دون أن يمنعه من ذلك مانع، فالإنسان الذي يسمح بالرشوة مهما بلغت قيمتها عدو لبلده، والذي يقبل أن يحصل على تمويل أجنبي أو خارجي مهما بلغت قيمته عدو لبلده، ولا يجوز بحال من الأحوال أن أتحدث عن المرتشي وأنسى العميل الخارجي، كما لا يجوز الحديث عن العميل الخارجي وأنسى المفسد في الداخل، كلاهما كان معولاً في جسد الوطن، وكلاهما لم يترك للإنسان خياراً سوى العداء، وكلاهما حاول أن يتموضع على الخريطة ليقول لنا: أنا الوطن والوطن أنا!!

بالأمس رأيت الأخ محمد مصاباً على الشاشة، وهو شخص أعرفه عن قرب، وأعرف منبته المنتمي إلى سورية ودراويشها، وحاورته مرات فاكتشفت الجوهر الذي تركه عليه أبوه... حرت ما أقول أمامه، وهو الباحث عن العيش الكريم الذي يمنعه كثيراً من التواصل مع أسرته وأهله... وها هو

يدفع ضريبة غالية يستحقها الوطن لكنها أغلى من الفاسد في الداخل والعميل في الخارج، وكلاهما عميل يستهدف الوطن ومصلحته ومستقبله.

لم أكن أنتظر هذا اليوم، لكنني لم أستنكره، ولم أنم على العسل، فقد عرفت مبكراً أن أطرافاً كثيرة في الداخل والخارج هدمت حصون سورية، ولم تعد سورية محصنة بفضلهم وفضل فكرهم المصلحي التافه!

إن استمرار النفخ على رماد شعار الحفظ والصيانة فرّغه من محتواه، وجعل شعار سورية محصنة شعاراً هشاً مرضياً، بل صار شعاراً مضحكاً عندما يقوله أناس يعملون على هدم سورية وتشويهها!

عجباً لهؤلاء...

يجلسون في الخارج، دون أي برنامج عمل، وشعارهم واحد لا يتبدل..

ويجلسون في الداخل دون تطبيق أي برنامج وشعارهم: سورية محصنة

لا هؤلاء يتقدمون

ولا أولئك يتنازلون

وتتحول سورية مع بداية العام إلى ذبيحة يتجاذبها الجزار والجياع، لكنها على كل حال ستكون غنيمة.

ماذا ننتظر من سورية؟

وماذا نقدم لسورية؟

الأُغنيات الوطنية لا تبني وطناً، والبسطاء ليسوا حطباً لحروب المصلحة

كل البلدان قوية بأبنائها

كل البلدان عزيزة بالمخلصين من أبنائها

وكل البلدان تتحول إلى كومة من تراب وذكريات مؤلمة عندما يكون أبناؤها من التفاهة بمكان.

أهازيج وأغنيات في كل مكان، والمطر ينقر النافذة بحثاً عن تربة صالحة تنبت رجالاً للغد السوري النبيل.. قد يكون الأخ محمد أحدهم، وقد أكون أنا.. ولا بأس من أن يكون غيرنا..

وماذا بعد التفاصيل؟

بُني تاريخنا على التفاصيل الصغيرة، وادعينا الاتفاق على الخطوط العريضة، نقلنا الخلاف بيننا من الأمور التفصيلية إلى القضايا العريضة والكبيرة، وتوهمنا لفرط الجهل والثقة بهذا الجهل أن الأمر انتهى، ولم ندرك لحظتها أننا عوّمنا أزمتنا الفكرية والحضارية على طريقة الاقتصاديين، ونقلنا الخلاف من مستوى يقبل العلاج، إلى مستويات متعددة قد لا يصلح فيها أي نوع من العلاج أو الطب، بل أزعم أن كثيراً من الحالات الفكرية التي نعاني منها لم تعد قابلة للعلاج حتى بالبتر، ولا بد فيها من دخول مرحلة أخرى أكثر إيلاماً بعد موت سريري لم يجد معه صعق أو منفسة أو ما شابه.. وبما أننا قوم نؤمن بالروح وبأنها من علم ربي، وبأنها لا تموت وربما تنتقل بصورة أو بأخرى، فقد كان من الأجدى أن نسرع للانتقال إلى ذلك الملكوت، لا أن نتمسك ببقايا جسد فان مصيره إلى التراب!! تفاصيل كثيرة وغنية، ولكن مصيرها الحتمي أن تعشش في ذواتنا، غادرها أو غادر مثلها الآخرون، فعاشوا وسادوا وتحضروا وتقدموا، وكدنا نغادرها قبل قرن ونصف القرن من الزمن لكن الآخرين تنبهوا بدل أن ننتبه فشتمنا بطرس البستاني ونسبنا الشيخ من محمد عبده والكواكبي لطائفة فكرية ماسونية، وحاصرنا رشيد رضا، ورفضنا جرجي زيدان وعبد الرزاق ولم نتعايش مع أبي اليسر عابدين وسليمان الأحمد وسواهم.

طربنا عندما امتدحنا الآخرون بتمسكنا بالجذور، ورأينا أنها وسيلة عيش تميزنا عن سوانا فمارسنا نكوصاً مرضياً وعودة إلى دواخلنا، وبدل أن نستعين بنقاء أو صفاء غبنا من جديد في التفاصيل، ونقلنا هذه التفاصيل إلى

خطوط عريضة، فصار المذهب ديناً والطائفة عقيدة، والدين سبّة ومعرّة، ودخلنا في متاهة طويلة من الصعب الخروج منها إلا بتفجر وهذا ما حدث، فقد عمّ المذهب وتفشت الطائفة، والعلمانية نزلت طائعة تحت طربوش الدين والفكر الديني، فهو يتسع لكل شيء ويتقبل جميع الأفكار!

كل التفاصيل المؤذية انتقلت إلى السطح وصارت قضايا فضاع الإنسان ولم تعد له قيمة! لم تعد آراؤه ذات قيمة! لم تعد حياته ذات أهمية! لم تعد عواطفه ذات بال!

وبما أنه لا يتفق معي فهو تافه وحقير ولا قيمة له، بل يمكن أن أتعامل معه تعاملاً حشرياً وأسلّط عليه أي مبيد بشري، ومن ثم ألومه وأرجمه!!

لا يمكن أن يستثنى شخص من هذا المرض، سواء كان سياسياً أو مثقفاً أو مرشداً أو إماماً أو كاهناً، فجرثومة التخلف غلغلت في أعماقنا، ولم نعد أكثر من تابعين للآخر القوي، وحين ننام نحلم بجسد لا نملكه وبقوة لا نمتلكها.. سيأتي الآخر، ويحلّ المشكلات بما يناسبه، وينقل التفاصيل إلى مستوى آخر أعلى وأقرب من الروح والوجدان لتزداد الهوة ويتعمق الحقد!

في الأزمات والحروب والمشكلات هلا فكرنا بالأرواح، روحنا وروح الآخر، لنبلسمها ونداويها!

هلا اقتربنا من جبر الخواطر وتطييبها! هلا دخلنا في تفاصيل الوجدان دون أن نظن أن الشيطان يكمن فيها وينتظرنا لينقض علينا! هلا وهلا..!

لكننا تعودنا أن ندفن أمواتنا ونخشى أن يسقط عليهم شيء، وعندما نضع البلاطة نهيل التراب دون حذر، ولا نستشعر أي تأنيب ضمير لما يحدث مع حبيبنا المتوفى في وحشة القبر ورطوبة التراب..

لك الله يا شام

لك الله يا وطن

* * *

متعة الكسل والمرض

مع تقدم السن وكثرة المشاغل والارتباطات يفقد أحدنا متعاً كثيرة منها متعة الكسل عن الإنجاز والتفرغ للتلقي والمتعة، وهذه المتعة لا يتنبه أحدنا إليها إلا عندما تحدث، ومع ذلك لا يضعها في برنامج حياته..

في هذه الإجازة الطويلة اضطررت إلى الاعتكاف في غرفة مكتبي لأسباب صحية، لم أغادر لحظة واحدة، وهذا جعلني أجلس أمام الشاشة أكثر وقتي لأتابع وأتسلى، وبعد ساعات معدودة وجدت أنني كنت بحاجة ماسة لهذه الإجازة لأرمم ما تشظى من ذاكرتي، وأنا مدمن الفن ومتابعته والثقافة والتعلم من الآخرين... وجدتني أتابع كثيراً، ولكن أهم ما لفت انتباهي وجعلني أرفض الروتين ثلاثة أعمال شاهدتها، الأول كان سهرة مع طه حسين لي معها أكثر من وقفة قادمة فقد دونت ما فيها بتمامه، وهذه السهرة أظهرت لي بما لا يقبل الشك تقصيرنا الفاضح تجاه الثقافة والأجيال الحالية التي لا نقدم لها ما يستحق الوقوف عنده..!

أما العمل الآخر الذي تابعته فهو (السقا مات) كلاسيكية الواقعية السينمائية العربية، والذي أعادني إلى الوراء عقوداً عندما كان أساتذتنا يصحبوننا في رحلات علمية إلى صالات السينما بأسعار مخفضة لنحضر أفلاماً مميزة، وأذكر من الأفلام التي حضرناها: الأرض - العصفور وكلاهما ليوسف شاهين، والأبطال يولدون مرتين، وهذه العادة العلمية المتحضرة تابعناها مع طلابنا، إلى أن جاء أحد أولياء الأمور ليقول لي: أنت تضيع وقت أولادنا شو هالكتب اللي أعرتهم؟ وكان ابنه قد استعار مني رواية أوليفر تويست لتشارلز ديكنز! منذ ذلك اليوم تغير أسلوبي وابتعدت عن التدريس بشكل شبه كامل، ولم أعد أرى

الباصات تقف أمام الكندي بدافع من التربية أو دعوة من الثقافة لإعادة التنوير إلى الأجيال! لذا لا أرى من حق الجهات المشرفة أو السلطة أن تدّعي عدم الوعي لدى الأجيال الحالية وتوجهها إلى أفكار ماضوية... ولكن السقا مات حقاً.. ولا أزال اذكر الساعات الطويلة التي أمضيناها في انتظار الحجز.

والعمل الثالث هو حليم لأحمد زكي والنجمين السوريين جمال سليمان وسلاف فواخرجي في إطلالتهما المميزة على عالم الفن في القاهرة والتي كان ما بعدها.. وهذا ما أعادني إلى زمن جميل عشته كان حليم الجمال والعذوبة والقدوة في تحدي الصعاب وقهرها.. كم بكينا في معبودة الجماهير وسعدنا للنهاية الرائعة؟! وكم مشينا معه على الأشواك بعد صفعة ظالمة من أب قاسٍ؟! وكم سرحنا معه وحسدناه مع فاتن حمامة ونادية لطفي، ويأتي الفيلم (حليم) ليخطف له جمال سلاف ويضيفه إلى حليم.. كم هو محظوظ ذلك المبدع الذي عاش لإبداعه وأعطاه عمره كله، فملأ حياتنا بالجمال والعذوبة والأحلام، ولا ندري مقدار الألم الذي تحقق له في حياته! ولا نعرف حقيقة علاقته بالجمال والجميلات، إلا من خلال عالم نحن صنعناه واستعرنا أشياء عديدة ركبناها لتكون الصورة كما أردنا وكما نشتهي..! وعسى أن تنجز سلاف مشروعاً سورياً خاصاً إنها لحظات يسترجع فيها المرء نفسه، ليعيش مع أشياء يتعشقها، مع أشياء شكلته، وأشياء يريدها أن تشكله بعيداً عن صخب الموت والدم والقهر والمؤامرة وما يصبغ حياتنا بلون الدم الذي فقد الكثير من نقاء اللون، ولم يحتفظ إلا بفجاجة المنظر المؤذي الذي يعيدنا إلى هولاكو وزمنه، وتيمورلنك وما فعله، وكأننا لم نغادر مغارة التاريخ القذرة بكل ما تحتويه!!

متعة الإجازة والكسل والمرض أمتع ما يمكن أن يحظى به قطار على سكة لا يغادرها ولا يتحول عنها لأي سبب، لأنه لو توقف أو غادر لا يستطيع أن يتم شهره اقتصادياً على الأقل!!

كل عام وشام وأنتم بألف خير

* * *

بين الفكر والسياسة

كانت سورية على الأرض تتعرض لعملية فريدة من نوعها وخطورتها وتأثيرها في الوقت الذي أجرى الشاعر السوري الكبير أدونيس عملية جراحية دقيقة بُعيد حصوله على جائزة غوتة وتكريمه، وقبل دخوله إلى العملية تحدثت معه لأطمئن على صحته، فجاء سؤاله الأول: كيف الأوضاع في الشام؟ كان صوته وحواره حول ما يجري على الأرض يفيض حباً للبلد، وحرصاً على سلامة الوطن والشام، ومن هنا جاءت رسائله التي أرسلها إلى سورية والسوريين والسيد الرئيس، على خلاف بين القراء الذين فسروا رسالاته كما يحبون وكما يشتهون، والطريف الغريب أن النص نفسه خضع لقراءات عديدة وتفسيرات بعضها يكبر أدونيس، وبعضها يتهمه، وفي الحالين كان أدونيس سورياً خالصاً يحمل هم سورية ولا ينغمس فيما يمكن أن يؤذي سورية، بل ذهب أدونيس أبعد من ذلك حين رأى ضرورة العودة لاجتثاث ما يمكن أن يؤذي الوصول إلى دولة مدنية شعارها المواطنة والوطن، ولا تعتمد على انتماء ديني أو طائفي أو مذهبي أو قومي أو عرقي، ويبدو أن الدول العرقية والطائفية التي قامت ثم اندثرت كانت حاضرة في ذهن أدونيس وهو يتحدث، فكل هذه التكتلات انتهت إلى غير رجعة، وإن كان بعضها يطل برأسه بين حين وآخر.

وبُعيد خروجه من العناية بأيام تحدثت إليه، وأنا أزعم أنني من أصدقائه المحدثين، وقد سرني أن صوته كان معافى، وأنه رحب بي ترحيب الصديق، وقبل أن يحدثني عن عمليته ووضعه، جاء سؤاله: كيف الأوضاع في الشام؟

تحدثنا لدقائق، فوضعه الصحي لا يسمح أكثر من ذلك، وكان صوته يصلني وأنا أطمئنه.. ها... جيد... جيد.. وانتهت الدقائق، وصوت أدونيس وأسئلته محصورة في الشام، وبعد أن ودعته تذكرت أنه لم يتحدث عن نفسه إلا بكلمة أنا بخير.

وحين عرفت منذ أيام أن صحته أفضل، حدثته، فأخبرني أن وضعه جيد، لكنه سيعود لمتابعة الجراحة والمعالجة في المشفى، وبعدها يكون أفضل، وأردف على عجل: كيف الأوضاع في الشام؟ ومرة أخرى طمأنته، وعرفت أن أدونيس شأنه شأن كل سوري في الخارج يعرف الكثير عن سورية، ولكن في هذا الكثير كثير من المبالغة والمغالطة والمغالاة! وكل سوري في الخارج ينتابه هذا القلق، وبعض السوريين في الداخل تزعزع إيمانهم الرياح فيتركون أنفسهم لها تأخذهم حيث شاءت! وحدهم المؤمنون بسورية لا الطوائف والديانات والقوميات والمذاهب، وحدهم المؤمنون بالأرض والإنسان والتاريخ، وحدهم ينحازون إلى سورية وحبها، إن كانوا في الداخل أو الخارج.

وعدني أدونيس أن يتحدث معي بعد العمل الجراحي المتمم، وأظن أنه سينسى في غمرة ألمه ومتابعته للشأن السوري، وفي خضم زيارات المحبين له للاطمئنان عنه وعن صحته.

عندما كتب أدونيس رسالتيه فهم منهما ما فهم خطأ، وفسرت كلماته تفسيرات قد تحمل بعض الجور، ولم يميز أحدهم بين الموقف السياسي لأبناء السياسة، والموقف الفكري الذهني لرجل الفكر ميدانه.. وفي الوقت الذي انحاز فيه كثير من العاملين في الحقل السياسي ضد سورية في الداخل والخارج... بقي الفكر والذهن المتوقد مع سورية وحبها، اقتطع الأطباء أجزاء من أنحائه، فلم يكترث، وكل ما كان يسأل عنه: الأخبار في الشام.

وهذا لا يعني أنني أتفق مع أدونيس بقدر ما أحترم انتماءه هل يحتاج الانتماء إلى دليل؟

الانتماء لا يخضع إلا للمشيئة.. ربما مشيئة الخالق، ولكن بما أننا نؤمن بأن الخير من الله والشر من الإنسان، فإن الانتماء يخضع لمشيئة الإنسان، وخاصة إذا كان هذا الإنسان ممن رضعوا خير سورية حتى ارتووا واكتنزوا واتخموا ثم صارت سورية لهم غير ذات قيمة ومن سقط المتاع!!

والمؤلم أن هؤلاء هم أنفسهم من يحمل السكاكين لذبح عصافير الوطن ومفكريه ومثقفيه عند كل زاوية بداعي الوطن والحرص!! يرحل كل هؤلاء ويبقى الفكر والوطن والانتماء.

*   *   *

حبش الميلاد... مواطن

إن ما أفرزته الأزمة في سورية أكبر من أن نحيط به، ومن أن نستوعبه ببساطة، وقد استطعت أن أحدد مجموعة كبيرة من هذه الإفرازات، لعلّ أخطرها ذلك التصنيف الحاد، فالصديق يقف على النقيض من صديق عاش معه عمره ودون أي سبب أو داع... والطريف المؤلم أن أي اثنين يجلسان للتحاور تسمع أحدهما يقول: نحن ويخاطب صديقه أنتم، وهذا التصنيف الحاد تشهد به مواقع المتحاورين عبر الفيس بوك وغيره.

وما كنا نسخر منه من تصنيف بوش الأميركي قبل عقـد من الزمن: إما معنا أو ضدنا صرنا نجده في حياتنا السياسية اليوم، بل في حياتنا الاجتماعية... وفي الانتخابات التي جرت مؤخراً شهدنا مثل هذا الاصطفاف مع القريب والغني والذي ينتمي إلى من يقوم بالانتخاب، وأول مرة أشهد في حياتي مثل هذا الانتخاب الذي أظهر وجهاً جديداً للناخب السوري وكذلك للمرشح...

في الصباح قمت بزيارة صديق عزيز ودار حوار طويل حول ما يكتب، وتحديداً عمّا أقوم به، ونقل لي هو والسيدة زوجته آراء وانطباعات متناقضة، وقبل أيام كنت أستمع إلى آراء أخرى قد تتقارب معها وقد تختلف... وفاجأتني السيدة بإخباري بأسماء في القائمة السوداء حسب رأي المعارضين، وعندما تحاورت مع صديق قال لي: نعم هناك اللائحة السوداء، وأخبرني أنّ الحياد مرفوض اليوم.

وكرر عبارة بوش: إما مع أو ضد... وكأن الوطن لا يحتمل إلا اللونين المتضادين ولم أشرح طويلاً دون أن يقاطعني قائلاً: هذا لا يفيد!

وكنت تحدثت سابقاً عن مجموعة ممن امتصوا رحيق الوطن، واستفادوا من السلطة، بل أفرزتهم السلطة فكسبوا وكسبوا الكثير، ولكنهم انقلبوا بقدرة قادر إلى الجانب الآخر، وصاروا شرفاء وأنقياء، وأنا أنكر أن يكون هؤلاء قادة سورية - لا سمح الله - في الفترة القادمة، على حين إن الوطنيين الذين لم يستفيدوا من السلطة بشيء سوى لقمة العيش والعمل ينعتون اليوم بأبشع النعوت.

إنه نفسه الذي اضطهد الناس وأخذ فرصهم، ورسم ماضيهم الملبّد بالسواد هو الذي يحاول أن يرسم مستقبلاً يناسبه هو!!

ضحكت بألم وقلت لصديقي: عشنا عمرنا السابق نؤسس لوطن جميل نحبه، عملنا بجد وشرف، لم نسرق، ولم نعتدِ على أحد، بقينا في مكان واحد نحبه، هو موقع الحياد للوطن، ولكن الفرز الذي كان من الأزمة رسم مشهداً جديداً مغايراً، والاصطفاف الحاد أظهر ما يصعب تخيله، فأنت إما أن تكون مع النظام بكل التعابير الإيجابية والسلبية، وإما أن تكون ضد النظام بكل التعابير كذلك... النظام حتى ولو لم تكن جزءاً منه يحاسبك ويحرمك، والمعارضة وإن كانت جزءاً من النظام تحاسبك لمجرد العيش في أرض الوطن.

يعيش أحدهم بعيداً ممولاً مرتاحاً، ويريد من الناس أن يخدموا مشروعه لا مشروع الوطن...

ويعيش أحدهم في السلطة مرتاحاً، ويريد من الناس أن تخدم مشروعه كذلك!!

في عيد ميلاد المسيح أعايد كل الناس ومن مختلف الديانات، فالمسيح ضحية الإنسان في الداخل والخارج، وحبش الميلاد يقدم للفرح لا غير... أما

إذا كان الحبش ضحية النظام وضحية المعارضة في الوقت نفسه، فتباً لما نحن نقبل عليه... حبش الميلاد أيها المواطن المسكين، وأنت لا تملك إلا أن تنتظر الإنهاء من الجانبين فأنت مدان على كل حال.

ورأيك لا قيمة له إلا إذا كنت منحازاً لجانب أو آخر ولو على حساب الوطن.

كتب عليك أن تكون الضحية في كل وقت وحين

في الرخاء

في الضيق

أحمل صليبك وأمشِ صوب الغد

لن يكون الغد لغير الإنسان والوطن

* * *

تراب وعشق ومطر

تكون المشاعر غالباً أكبر من الواقع الذي نحياه، لذا نشأ الخوف، ووصف الإنسان بالمبالغة، وفي الحب، كل أنواع الحب تكون المشاعر أعلى وأعمق، سواء أكان الحب بين فردين، أم بين فرد وعقيدته، أم بين فرد ووطنه، وغالباً ما تكون هذه المشاعر مختلطة، إذ يتحول المحبوب إلى عقيدة أو إلى وطن، وربما تتجمع العقيدة مع الوطن في بؤبؤ إنسان يحبه المرء، فتصبح الرموز رمزاً، والثابت متحركاً، نراه، نحس به، نشعر أنفاسه.. والويل كل الويل لمن لا يصدق أن المشاعر حقيقة لا مبالغة فيها.. قد لا يصدق المحبوب ذات لحظة ما هو فيه، فيغض الطرف، وربما يسبل أجفانه لنوم لا داعي له في هذا الوقت، وعندما يخرج من غفوته يكون الوطن المحبوب قد ناله التعب، أو أدركه السأم، أو أراح رأسه إلى جدار لوقت قد يطول.. وربما يدرك الهرم محبوباً متحولاً من وطن وعقيدة ليجلس غير المصدق يندب حظاً عاثراً وتأخراً في التصرف والمنح لا مسوّغ لها..

أروح وأجيء وأقرأ.. وماذا بعد؟! الصلاة لا تكون إلا في المحراب أو المذبح.. قد لا يحتاج المرء إلى واعظ، لكنه لابد أن يتم فروض حبه وولائه لتراب تعشقه وإنسان أدمن كلماته، وحب صادق لم يدرك صدقه لأنه لم يلتق الطهر من قبل..

قد لا يصدق أحدنا ذائباً في الإنسان والوطن.. قد.. ولكن عندما تنزل قطرات المطر ذات مساء وتنعش الأرض لتخرج منها روائحها الندية التي

تحمل معاني نشوة الأرض الأنوثة يدرك أحدنا كما يدرك الوطن أو ولَه الإنسان المحب يتجاوز كل حد، ويتجاوز كل شيء ليصل حد السكن والتوحد بين المحبوب ومن يحب..

يا أيها الوطن المنزرع في أعماقنا، المتجذر في أرواحنا، ككل الأوطان كنت في منح أبنائك، وزدت فوق ذاك حبات من الجوز الأخضر، ورحيق قهوة لا يشبه غيره تدلقهما ذات زمن في جوف أحبابك لتقول لهم: على هذا عيشوا، ولهذا خلقتم.. ومن تلك اللحظة الخالدة في زمن مضى يتحرك أبناؤك عابدوك.. إن ضننت وإن قسوت وإن غبت وإن حضرت وكلهم أمل ذات لحظة أن تأتي منك عبارة الشوق ممهورة بقطرات مطر على تربة تمتد ما بين الربوة وميسلون معجونة بدم الشهداء ودموع العاشقين الذين ما عرفوا سواه طريقاً داخل الروح..!

المشاعر أعلى وأغلى

الوجدان أنقى وأطهر

والويل لمن يصدق المشاعر ويظنها الواقع..! إنها العالم الذي نهرب إليه لعلنا نحيا أفضل وأجمل، العالم الذي يجعلنا نرغب بالغد وما يحمل، وننتظر أن تنتج أشجار الجوز المزيد، وأن يصبح الجو رائقاً لشرب قهوة.. ولكن إن طابقنا المشاعر مع الواقع كان الفراغ والسقوط، وكانت المقارنة الجائرة، وخسر المحبوب كل ذرة من ذرات الحب، وصار نظره شارداً تائهاً يتساءل إن كان ما يحياه حقيقة! وربما بدأ يندب حظه العاثر والخيانة لوطن أسند رأسه إلى صدره كل هذا العمر!.

والوطن الثبات هو الحب.. وحده يبقى.. نأتي ونذهب ووحده يتجذر فينا ينظر.. يحتوي.. يشفق.. ربما يتألم لأجلنا.. لكنه عندما يشعر الحمق فينا يطلق مقولته:

«من يعش دوني يوماً.. أعش دونه دهراً.. فليذق ألماً..»

ليس سهلاً على الوطن أن يتخلى عن ذرات من تراب عجنها ليصنع إنساناً متكاملاً، ولكن الوطن وهو الكبير، إن غضب كان بركاناً لا يبقي ولا يذر، ومن ثم فإنه لا تنفع معه التوسلات ونبرات الاسترحام..

شام يا عمر العمر الراحل والباقي.

تكاثرت الهموم وكنت أنت الهم الأكبر خوفاً وحباً وحرصاً

وها هي الأوقات تتسرب كحبات رمل على شاطئ مهجور بانتظار أسماك لن تظهر..!

بالمشاعر وحدها لا تحيا الأوطان، وآه من تطابق المشاعر للواقع..

شام.. منك.. إليك.. بك يحلو السفر والارتحال..

لن يكون إلا كذا.. أطبقي جفنيك سأبقى حارساً وفياً.. وأرقب طلوع فجر أنت نوره وإن وصلت إلى يقين بأنني البعيد المبعد الذي لا يُمنح أي أي شيء..

امنحي من شئت.. كلهم عاشقوك

أما أنا فأسكن مشاعر الحب الذي لا يكذب لأكون شامة على وجه شام.. وأغمض عيني لا أرى سواها.. وقد لا أرغب بنور في العين للرؤية حتى لا تتكرر الفجيعة..

شام بحفظ الله بحراً وصحراء وجبلاً وحباً.. وبرعاية مشاعر لم تريها..

الوطن يا عمري أبسط وأبعد ما يكون عن الفذلكة.. فهل نعي قيمة الوطن في عينيك؟

* * *

البحث عن فلسفة ووطن

نلتقي صديقي السيد عصام وأنا بشكل شبه يومي، نتحاور كثيراً، وشأننا شأن أي شخص يظن نفسه مثقفاً، ويرى رأيه غاية في الأهمية! نشكل العالم على هوانا، فنعدل ونبدل ونصنع فلسفاتنا الخاصة التي تنتهي بانتهاء جلستنا، ومنذ مدة خسرت رهاناً كنت أظنه أبدياً، وعرفت أنني مجرد مخلوق يتحرك على الأرض لا قيمة له حتى في أغلى الرهانات التي يظن نفسه فيها مجلياً ووحيداً... فجأة تحركت شهوة القتل لتملأ الأعين والأنوف، وتأكل الزعتر، وتغمس أيديها بالزيت الذي تفوح منه رائحة نتنة... فجأة خسرت الرهان الذي دفعت نصف عمري فيه!! خسرته وأنا ممتن للمبارز والحكم وبائع الزعتر وكل ما في الأرض من تناقضات وهوام أقنعتني أن ما في الأرض أبقى وأنقى، وأن شام سيدة الدنى ولن تقدر أن تنال منها في نظري أي شائبة... وضعت صرتي في جرح غائر واستعنت بالطب لأضمّ ما تبقى من ذكريات نقاء شام قبل أن تلوث الفجاءة يديها ببشارة الزيت الرديء...!

فجأة خسرت

وفجأة خسر صديقي عصام رهانه وطموحاته! ربما في الوقت نفسه كانت الخسارة، انتشر اليأس في حياته، وجاء حزيناً يعلن أن لقاءاتنا هذه هي الأخيرة، فهو في رحلة قد تطول... أرادوه بعيداً عن شامنا، بدأ يحزم حقائبه ويعدّ نفسه للرحيل، الدموع التي كان يستنكرها عليّ صرت أراها في عينيه...

وما بين فجاءته وفجاءتي اكتشف أن هذياننا معاً لم يكن أحلاماً أو شطحات، ولأعرف أنني مع صديقي بنيت فلسفة خاصة بنا، نحن كسوناها لحماً، وأعطيناها عصباً، ونفخنا فيها روحاً، ومارسنا فعل الألوهة حتى تحركت أمامنا وصارت جزءاً منا ومن حياتنا، وأزعم أنني لا يمكن أن أستغني عن هذه الحوارات والخطرفات التي لم يكذب منها حوار، ولم تخب منها نبوءة بعد سنوات وسنوات...

وآخر ما حُرّر كنت أتسكع مع صديقي وقد لعب الهواء برأسينا الخاليين من الشعر، وسمعته يقول لي: صديقي يبدو أن لكل عمر علاقة خاصة بالأشياء، ضحكت وقلت: لا يا...!

وأنا أهزؤ بالاكتشاف، فتابع: ألا ترى أننا في سن الخمسين الذي نطرق بابه لنا طريقة خاصة في حب البلد لا يعرفها أبناء الأعمار الأخرى؟ وكذلك نحن لا نجيد المراهقة أو الكسل في حب الوطن أو في حب الإنسان الآخر... إننا بني إحساس ما بأن الفكرة مهمة، فأعطيته اهتمامي ودفعته للاسترسال فقال: يا صديقي في مثل سننا يكون الحب هدوءاً واختماراً، ويكون أحدنا بحاجة إلى غرفة ولو كانت تحت مدخل بيت ليستريح فيها من عناء كل شيء، ولا يحسن بنا أن نراهق وأن نكون غير مبالين، والمشكلة إذا لم يستجب من نحبه لهذه الحالة... أحببت هذه الفكرة، ودّعت عصام ليشتري ما تبقى من حاجاته قبل أن يسافر، ورحت أرقب شوارع المدينة الخالية والمزدحمة، المشمسة والممطرة، أمطار تغسلها، وأخرى تلوثها، نفوس تفتديها وأخرى أنانية تافهة تأكل زعترها وخيرها وتشرب ماءها، وتأكل غذاءها وتشتمها وتتنكر لها... وشام تغسل يديها كل لحظة من مياه آسنة دلفت إليها... وحده العابد يغسل يديها، يقرّب المنشفة إليها، ترتفع غرتها وتعطيه ذاتها لعله يجد نفسه في حواريها قبل أن يُفجع المحبون...!

فظيعة فكرة الحب وزمنه، إن كان تجاه شخص أو وطن... ومسكين من لا يدرك أن أي كلمة أو تصرف أو إشاحة وجه، أو لقمة تائهة من يد قذرة قد تطعن المحب في وطنه وتفقده الكثير من الانتماء...

يا وطني الجميل... يا شام

أترك أوزاري بين يديك، وأعود منهكاً متعباً، الإعياء يقتلني والافتقاد يدمي روحي، ولكن أسهل بكثير من أن أراك على غير ما أحب... وداعاً أيها الجمال الذي لم يعد موجوداً في أرواحنا، وإن كان منزرعاً تحت مئذنة العروس... وداعاً لأنني بعد أيام لن أفكر في البحث عن فلسفة، فالصديق الذي يتفلسف معي لن يكون موجوداً، والآخرون يكتفون بفلسفة الواقع كما هي.. وأنا ابن الحلم لا الواقع دفعة واحدة يتجمع النمل في الذاكرة المحاصرة، ويصبح الوطن في نظر الكثيرين عديم الفائدة، ولم يقدم لهم أي شيء!! وينغمس أحدهم في لفافة زعتر مضمخة بالزيت يلتهمها بعد أن طافت عليها صراصير الكون، مهملاً وطناً جميلاً يسوّره الحب، ولا يكون إلا به...

نكابر على أوطاننا

تعاني منا

وحين نستفيق من التهام الزعتر الفاسد، العلف الأرضي

نستفيق على قول نزار: إلى أن بمحبتنا قتلناه...!

ولكن كل واحد يظن نفسه المحب...! ووحده الوطن ضحية ولا يستطيع الحديث، كل ما يفعله الإضافة إلى الذاكرة.

* * *

شربة لا قبلها ولا بعدها

أنحاز إليك أيها العظيم دوماً، أرضاً وانساناً وكل شيء، أنحاز إليك وفيك وحدك يحلو الانحياز، أنحاز إليك وألوم غير المنحاز، أنحاز إليك في الرخاء والشدة، أعترف على صدرك العظيم بحاجتي إليك وأنا فيك وعلى أعتابك، ولا أنتظر أيها العظيم أن أفتقدك حتى أعرف قيمتك.

قد يجبن بعضهم عن الاعتراف بقيمة الصدر الوطن! قد يرى بعضهم هذا الاعتراف ضعفاً يؤذي مشاعرهم ونفوسهم! ولكن أليس أجدى أن يعترف من أن يكون كسير النفس، عاجزاً عن النظر إلى وطنه يتحرك أمام، تافه ذلك الانسان الذي يجبن عن الاعتراف بحب وطنه وفضله وحاجته إليه، ومن ثم يعجز عن أن ينظر إليه، ليصبح فيما بعد بلا هوية ولا وطن، ينام على أي صدر، ويسهر تحت أي قمر..

وقد يتأخر بعضهم في اكتشاف كنه سلافة عشق، يتردد كثيراً، لكن ذات لحظة من فجر بارد مضيء، يكتشف نيزكاً من عشق ووله بالأرض والانسان، يسطر كلمة يغلفها بكثير من الحذر ولا يدعو نفسه إلى الانعتاق من ذاته على تراب وطنه! كل ما يقابله المرء من معانقات وحوارات وابتسامات واهتمامات آنية تزول بزوال السبب.. والمبدع ذكاءً هو الذي يعرف هذا قبل أن يقع.. وحده الوطن يستقبلنا على صدره، لا يعنيه إن كنا جميلين، إن كنا عاديين، إن كنا أطهاراً أو ملوثين.. وحده الوطن يضم الرأس إلى صدره ويقول: انطمر أيها الحبيب في صدري ولا تخرج.. ويبدأ الوطن بعد شامات الوجه والرقبة

والصدر والجسد.. يعد ولا يتوقف عن العد، ولكن قد يتملكنا الغباء فنظن أنفسنا فوق الوطن، ويتهيأ لنا أن الوطن معجب بشاماتنا ويغار منها، ونصدق أننا الأجمل لنمارس شيئاً من التعامل الفوقي معه، فنضيع.. نتيه.. يغيب عنا خبز التنور.. ونتناول منقوشة زعتر بلا روح بلا طعم نكاية بدعوة وطن لتتحول حبات الزعتر في حلوقنا إلى شوك مؤرق.. قد نكتشف لاحقاً أن ما تناولناه سم، وأن ما فعلناه خيانة، وأن ما اقترفناه بحق الوطن الحبيب الذي أعطانا وحملنا على راحتيه جحود ونكران.. ولكن ما يفيد هذا الاكتشاف؟.

قد لا يحقد الوطن إن هربنا.. أو نسينا.. أو قسونا.. لكن الوطن الذي هو أنا أو سواي لا يغفر أبداً أن يصبح الهوى سواه ولو مؤقتاً.. قال شاعرنا: «بلادي وإن جارت عليّ عزيزة» فهل حقاً ما قال؟ أم إنه يتحدث باسم الوطن عن أبنائه؟

تعودنا على الدوام أن نمنّ على الوطن، لأننا زعمنا من جهلنا أنه لا يدرك ولا يتحدث ولا يبوح بما يعانيه، نأكله ونمنّ عليه، نشتمه ونمّن عليه ينتظرنا ونمّن عليه..! يصمت الوطن ونحن نعهر ونظن أنفسنا أبرياء

آه منك أيها الوطن العظيم ما أعظمك..!

تمر الأيام مسرعة.. نغيّر مساراتنا، نتيه في الدروب تأتيتنا الفرص لخدمتك والحرص عليك وعلى لقائك، لكننا نبتعد وننتنتظر أن تزحف إلينا لتقوم بواجب أنانيتنا.

أحمق من يظن نفسه عظيماً بلا وطن

ومن يظن نفسه الوطن الوحيد

يا شام.. يا وطني

يا عمر العمر لمن يبحث عن عمر

أنحاز اليك في وقت لا ينفع فيه إلا الانحياز.. فوق الغمام والسماء أنت، فوق كل شيء أنت، فوق البشر والبلدان انت!

أمامك، وأمامك وحدك أردد عندما تهمسين بعد الثانية فجراً مع ولادة صباح شآمي نبيل أردد قول نزار: هل يشمخ قرد للجوزاء؟.

أيها الخائن إحساساً.. مهما داريت وجهك لن تهرب من ذاتك على الأقل..

قد تكذب على الدنيا.. ولكن هل تكذب على ذاتك.؟

احتفظ بخيانتك وببقايا الزعتر أو الصعتر أو ما شئت فلا مكان لك على الصدر النبيل، وكل ما تنتظره لن يكون.

وحدها شام ترسم الغد، وتحدد بقايا ما في قعر الدّن من نبيذ تلون بدمي بحثاً عن شربة لا أول قبلها ولا بعد بعدها.

بخبز طازج صنعته أمي قبل أن ترحل في عيد الأم، وقوة أكسبني إياها والدي قبل أن يدفعني إلى الدنيا، وكلال في البصر أورثني إياه قدر جميل أستقبل ما تبقى وأغيّر محطتي التي كانت مهمة ولن تعود، لأكون منحازاً إلى شيء يختصر الأشياء والى كون يختصر الأكوان.. يبدأ بوطن.. وينتهي به..

* * *

الأبطال يولدون مرة واحدة

- كثيرون هم الذين يمارسون فعل البطولة الظاهرية، كأن يتذكر أحدهم بعد أن يبلغ الستين أنه عاش فاسداً ماجناً كحولياً، فيقرر الحج إن كان مسلماً، أو ملازمة الكنيسة إن كان مسيحياً، ويبدأ الجميع الإشادة به وبصلاحه، وبأنه عاد إلى جادة الصواب في آخرته، وينسى هؤلاء أن نبعه جفّ وخيره انتهى، وهذا ما دعاه إلى التوبة والصلاح!!

- وربما يتذكر أحدهم بعد أن يصيب مرض الأعصاب يديه أنه كان جلاداً سيئاً، وعليه أن يتوب عن مهنته، لعل الله يعافيه في يديه، ويتمشى هذا بين الناس الذين يقدرون له فعلته تلك، ويشيدون بتخليه عن مهنة الجلاد، وكان الأجدى أن يشكروا المرض الذي هتك يديه وجعله غير قادر على عقاب الناس والإساءة إليهم وإهانتهم، ولولا ذلك لما غيّر مهنته!!

- وربما يتذكر أحد أصدقائي بعد الستين والتقاعد، وحياة طويلة قضاها من إدارة إلى أخرى، ونال بسببها أعطيات كثيرة، وغنم صحبة حسناوات ما كن لينظرن إليه لولا مواقعه المتعددة والبراقة، ربما يتذكر هذا المتقاعد أن النظام فاسد وتافه، وينتقل إلى المعارضة لأنه اكتشف فجأة كمية الفساد في النظام! ويجلس لينظر عليك دون أن يمنعه من ذلك رادع مهما كان هذا الرادع ضعيفاً!

- وربما خرج أحدهم بداعي الجهل أو التقاعد من وظيفته، فيجلس ليحاورك ويشتم منظومة النظام التي قدمت فلاناً وفلاناً واستغنت عن خدماته،

وأنت تسمع إليه، وهو لا يدري أنك تكبر النظام عندما تسمع منطقه، ومع أن النظام جنى على المواقع حين قبله قبل أربعة عقود، وحرم بسببه الموقع من الجديرين به، إلا أنك لا تملك إلا أن تمتدح خبث النظام في اختيار الأشخاص والاستغناء عنهم، فهو الذي حدد سبب الاختيار، وأقنعك بحكمة الاستغناء.

- وربما يتسوّل أحدهم على باب مؤسسة ما، يملكها شخص ما، ويضع صفحة خده على حافة الرصيف ليدوس عليها هذا الفلان، وفجأة تجده يتنمر، ويلومك لأنك كذا، ويتحدث كما لو أنه طاهر كالشاش جاء من عصر النبوة، وما مرّ بالفتنة الكبرى أو الصغرى، يحدثك عن المبادئ، وإلى جواره فتاة بعمر بناته يغرر بها ويقنعها بضرورة تجريب النبيذ لأنه لذيذ، يفتح عينين وقحتين ليقرر بأنه معارضة وشريف، وبأنك قذر وتعمل مع النظام حتى ولو كنت مدرساً في الجامعة، فعليك أن تفتح جامعة ولا تدرس في الجامعة الرسمية، يتابع استقبال الفتيات بعمر بناته ولفافة التبغ الحمراء الموالية في يده!!

- وربما يأتيك أحدهم طامعاً وراجياً ومادحاً، يفرك يديه، ويتذلل بين يديك، معلناً استعداده للعمل وفق الشرط الذي تريد ويسفح ما تشاء لعلك تمنحه فرصة، وتعطيه فرصة، ويصول ويجول، ويصدق نفسه، وعندما يتحول من الجلوس في المقهى إلى كافيه، وعندما يصبح بمعيتك قادراً على استعمال الكمبيوتر والنت يتحول إلى معارضة، معارضة ماذا لا يعرف، المهم أن يتنكر للحلاق الذي جعله لائقاً ببائعة هوى على الرصيف تقبل أن تشاركه ليلته الباردة.

يفاجأ الجميع عندما يعرفون أن شخصاً ما قد تحول إلى ضفة أخرى، والأطرف أن بعضهم يصدق ما يقرأ ويسمع، ولا يدري أن هذا الشخص قد يكون جيداً، وقد يحمل بعض المبادئ، ولكنه ليس صادقاً أبداً، والانتقال والأسباب كانت لممارسة بطولة عملاً بالعمل السوري الجميل القديم (الأبطال

يولدون مرتين) ولم يدرك هذا أن البطولة لا تولد إلا مرة واحدة إن كان الرحم شقياً أو سعيداً...

- عندما رأيت الفيلم قبل ثلاثين عاماً طربت لعنوانه (الأبطال يولدون مرتين) وفيما بعد عرفت أن المقصود هو الولادة الفيزيولوجية، ومن ثم اختيار موعد البطولة، ولكن التجربة أثبتت بما لا يقبل الشك أن الأبطال يولدون مرة واحدة فيزيولوجياً، ومنها يتم القرار بالبطولة أو الخذلان أو الحياة العادية، ولأننا كلنا نعيش حياة عادية، فإننا نبهر حتى بمن يسبح في بحر قذر آسن!!

لك الله يا وطني.. لك الله يا شام

* * *

خارطة الطريق والجهل!!

منذ سنوات اخترعت إدارة بوش الأميركية اليمينية ما سمي (خارطة الطريق) وهذه التسمية راقت لنا وهي بصيغتها مصطلح مترجم أخذ وقتاً حتى تم شرحه للأوساط العربية السياسية والإعلامية لنعرف فيما بعد أنها خطة وضعت على طريق حل القضية الفلسطينية، وبما أنها خارطة فهي قابلة للتعديل، وبما أنها في الطريق سيعتدي عليها المارة جميعهم.

المهم أن هذا المصطلح لم يرق لكثيرين وأنا منهم، وهو لا يزال بعيداً عن ذائقتي، وربما كان لدراستي اللغوية أثر في ذلك، فالدلالة الأولى التي حملها المصطلح جعلها بعيدة عني بعداً كبيراً، ولكن ما لم يستسغه كثير من العرب مصطلحاً، وما ثبت إخفاقه على أرض الواقع وجد مساحات واسعة فيما بعد..!

فلا يخلو برنامج سياسي عربي اليوم من تعبير خارطة الطريق.

ولا يخلو برنامج اقتصادي من هذا التعبير.

فالمعلق الإستراتيجي - ولا علاقة له بالإستراتيجية - يتحدث عن خارطة طريق، والمصلح الاقتصادي يتحدث عن خارطة طريق، والدارس الاجتماعي يتحدث عن خارطة طريق بل ذهب الأمر أكثر وأبعد من ذلك، فمنذ أيام كنت أقرأ كتاباً باللغة العربية لمؤلف يدعي ما يدعي يتحدث فيه عن الذات العربية ليقول: أصنع خارطة طريق لدراسة الأمر، فللمؤلف النحرير هذا خارطة طريق!

شكرت المولى أن العديد من المحادثات والمقترحات والمنتديات حملت أسماء أماكن ومنتجعات، ولم تحمل مصطلحات مثل خارطة الطريق، وإلا كنا سنرى منهج الكاتب الكامب ديفيدي وغير ذلك!

خارطة الطريق أصلاً مصطلح مائع لا يعرف ماذا يراد منه، وكل الذين قرأت لهم استخدامهم هذا المصطلح يريدون منه (المنهج) ولست أعرف بما تتفوق كلمة خارطة الطريق على كلمة منهج إلا إذا كان الكاتب العظيم يريد أن يدلل على معاصرته ومعرفته السياسية.

عدت إلى الكاتب الكبير محمد حسنين هيكل عندما تحدث ولست أعرف في أي كتاب لأنقل نصه، فقال: يطرح علينا المصطلح فنرفضه، ثم نألفه وحين نقبله يؤخذ منا ليطرح غيره.. فبدأنا بالسلام ورفضناه، وعندما قبلنا جاءنا مصطلح الخطوة خطوة ورفضناه، ولكن بعد فترة قبلناه فتم سحبه وجاءت مصطلحات أخرى وأخرى.. تخوف هيكل من تعاملنا مع المصطلح، لكن هيكلاً لا يزال بيننا ويعلم أن تخوفه في مكانه..

الجهل العربي المعرفي والقرائي والسياسي بلغ مداه فكل ما تخوف منه وما لم يتخوف بعد صار من أدبياتنا، وإذا شك أحدنا فليراجع كم مرة تأتي مفردة خطوة خطوة أو فليراجع كلمة (خارطة الطريق) ذات الدلالة السيئة وعدد المرات التي ترد في برامجنا وحواراتنا وكتاباتنا وكأنها صارت المصطلح الوحيد القادر على التعبير عما في النفس.

ويأتي كاتب عندنا ليقول: أعددت خارطة طريق لبحثي!!

* * *

حساب السرايا

لا أقصد بوقفتي هذه أسامة سرايا ولا مجدي الدقاق ولا مصطفى الفقي ولا حتى أحمد أبو الغيط أو العادلي، ولكن بالمصادفة البحتة حمل اسم سرايا اسم بيت الحكم المتعارف عليه لدى الجميع.. فالسرايا منذ أمد بعيد هي مجمع إداري يحكم منطقة ما، وليس مصادفة أن يقول المثل (حساب السرايا...) الذي يدل دلالة قاطعة بأن الحساب الذي تجريه السرايا، لا علاقة له بما يجري على الأرض وفي المواسم، فالسرايا تحدد أشياء ثابتة للجباية وما على القائمين إلا تلبية أوامر السرايا بحذافيرها، ولكن حساب السرايا لا يأخذ في حسبانه الغلاء والقحط وأمراض المواسم والوضع المعيشي ما يجعل الناس في حالة يرثى لها جراء حرص عمال السرايا على تحصيل المطلوب وزيادة ليتمكن العمال من أخذ حصة محددة وكبيرة، وبعضهم يقول: إن جباة السرايا عبر الزمن لهم دلال خاص، فهم لا يُعاملون معاملة العمال العاديين، بل إنهم يحصلون على نسبة من الجباية، وحصة مما يأخذونه من الناس، وأمام هذا الإغراء صار الجباة أكثر قسوة على الناس لا لتحصيل ما تريد السرايا وحسب، بل لأخذ نسبة أعلى مما تتم جبايته..!

والسرايا لا تتنبه في الغالب إلى ما يفعل السرايا أي لما يفعل الجباة، وهنا يحضرني ما حصل مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عندما اقترب منه واحد من الرعية وقال له: والله إني لا أحبك... فزع عمر ولم يتحرك خطوة حتى سأل القائل: لا تحبني ألظلم مني؟ قال: لا، قال: ألظلم من عمالي؟

قال: لا.. قال: علامَ إذاً؟ قال: إنه الحب، فقال له عمر: ثكلتك أمك على ذلك تبكي النساء...

الذي يعنينا هنا سؤالان طرحهما عمر: ألظلم مني؟ ألظلم من عمالي؟ فالعلاقة بين الحاكم والمحكوم تقوم على العدل أو الظلم، وهذا إما أن يقع من الحاكم وإما من عماله..

المهم أن سرايا والدقاق بقيا إلى آخر لحظة يصوران الثائرين على أنهم رعاع وغوغاء، وغيرهما يقنع بإمكانية التهدئة، ولكن حين حلت الكارثة على جانب والفرحة على آخر، وجدنا العناوين المخجلة من سرايا والدقاق التي تتحدث عن انهيار دولة الفساد..!

كان الفقي أكثر مهارة، فهو من اليوم الأول للثورة طالب بحزمة من الإصلاحات وحاول أن ينأى بنفسه عما يحدث، والأطرف أنه شابه السرايا في حساباته فجاء ليروج لنفسه أميناً عاماً لجامعة الدول العربية في لقاء بعد السقوط مباشرة وليندب حظه العاثر، فهو دائماً من مسؤولي الصف الثاني الخلفي!!

والفقي لا يدري كيف يتم اقصاؤه كلما قدّمه أحدهم!

منذ بداية تصور الشرق الأوسط الجديد، وقف الرئيس الأسد ليقول: إن وجه المنطقة سيتغير، وأشار في أكثر من مكان إلى شيء مما حدث، في الوقت نفسه كان أبو الغيط يقف إلى جانب كلينتون وهي تقول: الحكومة في مصر مستقرة، وهو يقول: لا بد من التأكيد على سيادة لبنان! وكان الدقاق وسرايا على الشاشة يشتمان ويلعنان ويراهنان!!

وحين جاء الموسم لم يصدق حساب السرايا على حساب القرايا.. ولو صدق الحساب لكان الكره لمجرد الكره، وما تفيد النسبة من الجباية بعد ضياع السرايا؟

* * *

المتوّك والشام

كان محدثي – وهو أديب حاذق – يحدثني عن شخصية دمشقية طريفة تدعى (أبو أحمد المتوّك) فقد كان أبو أحمد يبيع الشاي الخمير مع الكعك أمام الملعب البلدي القديم مكان مدينة المعارض القديمة، حيث كانت تقام المباريات الرياضية والاستعراضات العسكرية، ويذكر الناس أن العروض توقفت بعد حادث مؤسف كان من قريتي اثنان ضحية له، المهم أن أبا أحمد كان يعد كأس الشاي بطريقة طريفة من غسل الكأس بالماء الساخن وسكب الخمير والفطير إلى ختم إعداد الكأس بقطرات ساخنة قبل تقديمها لشاربها الذي ينقد أبا أحمد بخمسة قروش، وإن أراد كعكة كانت عشرة قروش.. وفي حديثه عن النفس الأبية قال لي الأستاذ أحمد المفتي: ذات يوم كنا في الملعب البلدي، وبعد أن انتهت حصة اللعب، ذهبنا إلى أبي أحمد لنشرب الشاي مع كعكة، وفي أثناء انهماك أبي أحمد بإعداد كاسات الشاي رأيت شخصاً من الأثرياء ينظر من سيارته الفارهة الكبيرة إلى حركات البائع، يبدو أن المنظر أعجبه، فنزل من سيارته وشرب كأساً من الشاي مع كعكة، وفي غفلة من أبي أحمد وضع الشخص عشر ليرات سورية أمام البائع تحت كأس الشاي وعاد إلى سيارته، حين تنبه أبو أحمد بدأ بالصراخ علينا، فمن هو صاحب الليرات العشر؟ أنا لا يوجد معي كمالة، أنا بحاجة غلّة جمعة كاملة، لمن هذه؟

نبهناه إلى أنها لصاحب السيارة..

- أنت يا أخونا

نادى أبو أحمد

لم يسمعه ولم يرد

أشار بيديه، لوح له وهو يصرح، لكن الرجل لم ينتبه..

وحين تحركت عجلات السيارة غيّر أبو أحمد لهجته

لم يعد ينادي، بل صار يشتم وبعنف..

وتابع الأستاذ أحمد: يومها لم نتمكن من شرب الشاي..

فأبو أحمد ترك الجميع، وبدأ يملأ الكاسات بالماء والخمير، ويلقي بها في الأرض ويعد.

هاي خمسة قروش

هاي عشرة

وتابع العد حتى وصل إلى مبلغ الليرات العشر..

ونفخ وهو يقول:

الله كافينا

أنا لست بحاجته

نحنا عم نشتغل ما عم نشحد

انتهى الماء الساخن يومها

وانتهى الخمير

قفل أبو أحمد مع ما تبقى من كعك في عربايته، ونحن ننظر إليه بإكبار مع أننا حُرمنا الشاي بسبب كرامته وإبائه..

حاولت أن أتذكر شخصيات تشبهه..

تذكرت كثيرين.. فالخير في الشام دائم

*   *   *

الفيس بوك والمسؤول!

حدثتني إحدى الفتيات الصحفيات مرات عن مشكلاتها مع رئيسها المباشر في الوزارة التي تعمل فيها بنظام العقد، ولما كنت لا أملك رأياً ولا حلاً، نصحتها بأن تحاول مخاطبة السيد الوزير، فهو وحده القادر على إنصافها.. لم أستطع أن أقول لها كيف، ولكنها عادت لتخبرني بأنها تقدمت بطلبات عدة لمقابلة السيد الوزير ولم تصل إلى نتيجة.. أقول صادقاً بأنني حرت في الأمر، وكل ما كنت أقوله: لا يجدر أن تكون الأبواب مغلقة إلى هذه الدرجة وخاصة مع المرؤوسين الذين قد يعانون من أمور كثيرة ومهمة.

بعد أقل من أسبوعين أخبرتني الفتاة بأنها وجدت الحل - أفرحني كلامها، ولم أسأل لإحساسي بأن الفتاة تقول لي: انتهى دورك ولم تقدم شيئاً ينفعني، وأنا كنت كذلك حقاً، لكن فضولي دفعني لسؤالها عن الطريقة.

فقالت لي: ببساطة دخلت إلى حساب الفيس بوك للسيد الوزير وشرحت له قضيتي وأجابني وتحاورنا مطولاً..

استغربت هذه الطريقة من التواصل بين وزير ومرؤوسيه، ولكنني رددتها إلى الظن الحسن، فقد يكون هذا المسؤول مسافراً أو بعيداً، ويتم التواصل مع الناس من خلال هذه النافذة التقنية، ولكن السؤال المهم أن السيد الوزير صار يتحدث عن الكمبيوتر والنت في جلساته كما لو أنه ابن غوغل، وعلاقته بالتقانة لا تتعدى الاستثمار الكسول المتخلف: فكم من الوقت يقضي حتى يتواصل هذا التواصل الحي غير المجدي؟ أنا أفهم أن يكون للمسؤول

والإنسان بريد إلكتروني يتواصل من خلاله مع العالم، لكن أن يكون صاحب الموقع المسؤول صاحب هوس بالتواصل الحي من خلال الفيس بوك وما يشبهه الذي يعتمد الثرثرة والكلام الارتجالي، فذاك يسأل وهو يجيب فهذا أمر مرفوض ألبتة، ومن حق المرؤوسين أن يقفوا وجهاً لوجه مع مسؤولهم!!

وبالأمس كان أحد أصدقائي يتابع عبر المواقع فعثر على موقع سفير لسورية في دولة مهمة يكتب مقطوعات من الغزل الرخيص لمحبوباته عبر الفيس بوك، وسعادة السفير لم يُعرف يوماً بكتابة الشعر أو الخاطرة وليس له أي نتاج أدبي أو إعلامي ومع ذلك عندما صار سفيراً وفي بلد مهم صار يجد الوقت الكافي ليدلق ما في داخله من إبداعات شعرية وأدبية، وليحب عبر الفيس بوك..! كنت أتمنى أن أقرأ له رأياً مهماً أو تجربة دبلوماسية!

إذا كانت هذه التقانة التي فهمها مسؤولونا فهذه الكارثة الكبرى!

وهل يعقل أن يكون المسؤول متفرغاً لهذه المتابعات؟!

رفقاً بنا وبمواقعكم

رفقاً بسورية

فالموقع يجب أن يكون مفتوحاً على مدار الساعة كبريد يتابعه مكتب لمعالجة قضايا الناس وربما إيجاد الحلول ووضع المواعيد أما غير ذلك فهذا يعني الفراغ لا غير.. بالمناسبة لم أعد ألتقي الصحفية ربما حلّ الفيس بوك مشكلتها.. ربما!

* * *

الشعب والبطولة الجماعية

منذ بداية الأحداث الثورية في مصر العربية أتابع ما تقدمه القنوات الفضائية، والمتابعة شبه تامة بحكم الإعادات الكثيرة التي تستمر على مدار الساعة، وكنت أستمع إلى الرأي المتحول بين لحظة وأخرى وأحياناً للشخص ذاته.. وما من جلسة أدخل فيها إلا وتكون الثورة المصرية الحديثة مدار الحديث.. استمعت مباشرة أو من الشاشات عن المؤامرات، وعن ارتباط الثورة بالفوضى والشباب، وعن اقتراب انتهاء الموضوع، وعن ارتباط هذه الثورة بالغرب في الوقت الذي ظهر فيه الزعيم غير المتوج عادل إمام ليربط كل ما يحدث في الشارع المصري بحزب الله اللبناني ومطامعه في مصر!

هذا يتهم وذاك يرد.. وبعد مرور أيام كنت أتناقش مع أحد أصدقائي وعبّر عن رأيه في أن الأمور سيتم احتواؤها، وكان النقاش طويلاً، فقد أدمن أغلبنا حالة العجز والتردي لدرجة لم يعد يصدق فيها ما يحدث مهما كان طبيعياً، فلو أن عروساً حملت في أيامها الأولى كانت الحمل نتيجة موافقة أميركية، أو نتيجة زرع في أحد المشافي التابعة لأميركا!!

وصلنا إلى حالة من التردي الفكري والعجز والعقم السياسي ألغينا فيها كل ما يمكن أن يكون بين أيدينا، واستطاع المتحكمون غرس هذا الفهم فينا، وابتدأ الفهم الخاطئ من الساسة الذين رهنوا حيواتهم بالآخر والائتمار بأمره.. وحين حانت الساعة كان هؤلاء أرخص من شروى نقير كما يقول العرب،

وتم إلقاؤهم في حاويات بعيدة عن الأعين.. ولكن لا يزال الكثيرون يتمسكون بهذه التبعية على أنها الحل!

إن الثورة المصرية اليوم أكبر من كل التحليلات التي قيلت فيها في كل مكان، فالتغيرات كانت لحظية وشاملة وأسرع من أن يتصورها عاقل أو حتى مجنون، فمن شباب إلى عجائز إلى الطفولة والأرحام، بكل اللغات والأنبياء واللهجات كانت هذه الثورة.. حاولوا اتهامها فكانت أكبر منهم، حاولوا احتواءها فأحرقتهم نارها..

تحدث كثيرون عن ثورة يوليو، ولكنني أزعم أن هذه الثورة اليوم ستكون باسم ٢٠١١ كما كانت ثورة ١٩١٩ لسعد زغلول الزعيم الكبير، والفرق أن ثورة ١٩ كانت بسعد الزعيم، لكن الثورة اليوم بالشعب الزعيم، فهنا البطولة جماعية لكل أفراد الشعب أخذوا على ثورة الشباب أنها بلا زعامات، ولكنها لم تكن لتنجح لو كانت بزعامات فالزعامات تنطلق من رؤى محددة حزبية أو ما شابه، لكن الزعامة الجمعية للشعب بأسره حررت كل شيء وجعلت كل واحد بطلاً.

لا تكتبوا عن ثورة مصر كثيراً

لا تحللوا ما يجري

لا تحاولوا نسبة الثورة إلى طرف

لا تبحثوا عن أي ارتباط وتأثير

كل القراءات ممكنة، لكنها غير كافية، وكل ما يمكن أن يقال: إن الشعب هو الزعيم، وأن الضعف هو القوة الحقيقية، فالماء المنساب رقراقاً ببعض قطرات مطرية يجرف كل شيء.. وعود الثقاب يشعل كل شيء وكلاهما القطرات المطرية وعود الثقاب لا نستطيع الوقوف عندهما بعد أن يعم الطوفان وتنتشر الحرائق..

إنها ثورة شعب ضاق بكل شيء.. وأهم ما ضاق به الاستخفاف به وبقدراته وذكائه، ومن ثم تأتي الأشياء الأخرى تابعة ومكملة، لكنها لن تكون أساسية على الإطلاق.

بعد عشر سنوات على الأقل ربما تبدأ دراسات جادة وجيدة تحلل هذه الثورة التي ستنغرس في الأرض والذاكرة طويلاً.. فلا مؤامرة ولا ارتباط ولا من فاعل أمام الطوفان الشعبي الجارف..

*   *   *

السيل الجارف والمسؤول

حصل ما حصل.. ضاعت حدود الأشياء.. جرف السيل أمامه ما يمكن أن يشكل حداً فاصلاً بين أمرين متكاملين أو متضادين، وفي أثناء تحرك السيل كان الماء العذب وكان الكثير من الطمي، والكثير الكثير من الأتربة والأوحال والأقذار، وكذلك جرف السيل في طريقه أشياء غالية صادف أن كانت في الطريق..!

وهل مثل الأرواح وتعب الأعمار عندما يجرفها سيل كان من صنع أيدينا أحياناً، ومن مطر قادم أحياناً، ومن حرارة جائرة رفعت البحيرات لتصبها على رؤوسنا؟!

إنه السيد الذي شاركنا جميعاً في تشكيله، فهذا رجاه، وذاك انتظره وثالث مهّد له الطرق، ورابع وضع الحواجز والمعوقات في طريقه، حتى عندما جاء السيل كان الأول يدفعه والثاني يحمّسه والثالث يستحثه والرابع بحواجزه جعله خارج ممره وطريقه.. كلنا مسؤول عن ضياع الموسم والمواسم، المواسم التي زرعناها، والموسم الذي كنا ننتظر النتائج والقطاف فيه، ليس من حق أحد أن يتبرأ، وليس بإمكان أحد أن يخرج طاهراً بريئاً، فالسيل غمر أرواحنا بالطمي وما علق به.. فذاك الذي أوكل إليه أمر تجريف الممر وترتيب مكان السيل سمح للبسطاء أن يبنوا بيوتاً طينية في ممر السيل أخذ منهم، سلبهم كل ما جنوه، وعندما جاء السيل سلبهم بيوتهم وأرواحهم وذراريهم..!

والغريب أن كل واحد يحاول أن يكون بريئاً، بل إن رموز الفساد الذين كانوا وراء السيل الجارف الذي عصف بسورية، أقول كانوا وراءه لأنهم تعمدوا إحضار السيل والدمار، هؤلاء لم يقنعوا بما فعلوا، وعتبوا لأنهم صاروا خارج السلطة، وهذا العتب حالة أولى من التحول إلى المعارضة فانتبهوا!!

لا يزال هؤلاء يرون أن ما قاموا به تجاه سورية كان خيراً، فأن يصبح عدد المتسولين أكثر من عدد المارة حتى في الصالحية وقرب البرلمان فهذا إنجاز اجتماعي وخاصة عندما هربت الوزارة المعنية إلى شارع الثورة!!

كل مسؤول أسهم باستيراد المشكلات والسيل، وعلينا ألا نكتفي بإراحتهم، لقد أخذوا نفساً، وربما لم يغادروا البيوت المخصصة لهم، وبدؤوا بالتذمر، ربما سيتحولون إلى المعارضة إن قبلتهم ولكن أليس من حق الوطن أن يحاسب من تسبب بهذا السيل الجارف؟

أليس من الواجب أن نحاسبهم على كل ما أخذوه من خيرات كانت ستحصن الوطن في وجه السيل؟!

حصل ما حصل.. ولكننا بحاجة إلى تحصين مما مضى ومما هو قادم.

*   *   *

الريّس بيزعل

كانت أولى زياراتي إلى القاهرة عام ١٩٩٧، إذ كان من بين أحلامي في طفولتي أن أزور الأهرام ودار المعارف وجامعة القاهرة وعين شمس وغيرها.. لكن ضيق الحال منعني تحقيق الفكرة حتى تمكنت عندما كنت مدرساً في جامعة الإمارات من تغيير وجهة إجازتي الصيفية إلى القاهرة، وبذلك أخفف من تكاليف السفر.

استضافني صديقي الحبيب عصام في منزله بمدينة نصر قرب شارع صلاح سالم ونصب الجندي حيث قتل السادات في أثناء العرض العسكري، أخبرت صديقي بضرورة زيارة قبر الرئيس جمال عبد الناصر بناء على توصية والدي.. فأنا أحب تلبية رغبات الأهل، وإن كنت متردداً فيها، ولكن يبدو أن صديقي ليس محباً لعبد الناصر، وليس حيادياً أبداً فماطل حتى ليلة السفر، وأمام إصراري اصطحبني بعد أذان المغرب بوقت، وأصر على أن أتعرف إلى القاهرة مشياً، وأنا لا أعرف ما يدور في ذهنه.. مشينا، أدركنا أذان العشاء في الطريق، وحين وصلنا إلى القبر فوجئت – وكنت لا أعلم - أنه ملحق بمسجد القبة، ويقفل أبوابه مع انتهاء صلاة العشاء.. كان الباب مقفولاً، نظر إليّ صديقي وقال: مالكش نصيب.

انفرج الباب ليخرج منه عامل بلباس أزرق مهترئ، سحب الباب بيده وأقفله من جديد.. تقدمت وقلت له: هل بإمكاني أن اقرأ الفاتحة وأتصور مع القبر لأريه لوالدي.. قال: خلاص قفلنا..

حملت خيبتي وأردت المسير، فقال لي العامل: أنت من فين؟ فأجبته: من الشام قال بحلاوة: اتفضل بسرعة.. ده الريّس كان يحب الشام..

أدخلنا إلى القاعة الرئيسية، سقانا القهوة، التقطنا الصور، حدثنا عن الهدايا المقدمة في القاعة..

لا أستطيع تقدير فرحتي يومها وشماتتي بصديقي الذي لم يشأ هذه الزيارة، وحين وصلت إلى الباب الخارجي كان العامل يحمل كيساً من النايلون فيه بقايا زوادته وطعامه، مددت يدي مصافحاً وشاكراً، وفيها شيء من الإكرامية.. انفردت أصابع يده بسرعة، سقط المال على الأرض، نظرت في وجهه.. لا أزال مستغرباً إلى اليوم كيف طفرت الدمعة من عينه وقال لي:

لا يا راجل.. عيب

الريّس بيزعل..

كتبت هذه القصة بعنوان (إباء) حدثت أبي بما جرى، لكن صورة هذا العامل وحديثه للقبر لا يذهب من خاطري.. الريس بيزعل.

* * *

وبعدي ما حدا يعيش!!

منذ أيام قرأنا زاوية لأحد المسؤولين الإعلاميين، أقول قرأنا لأننا كنا مجموعة، والطريف أن كل واحد منا قرأها بمفرده في الجلسة ذاتها، ويبدو أن الجميع لم يشاؤوا أن يعيدوا ما قرؤوه على مسمع الجميع، ولكنني أرجح أن الشعور بعدم الفهم والاستيعاب لما يجري هو السبب.. فصديقنا يتحدث عن آليات الإدارة ويتناول الكيفية التي يجب أن يتم فيها اختيار الإداريين وذلك على المستوى العالي في الدولة، فجاءت جملة من هنا وأخرى من هناك، انتقاء عشوائي لجمل متنافرة وسطو مسلح على مقالات الآخرين وكتاباتهم.. لكن المهم لديه أن يضع أمام القيادات الآلية الأفضل لانتقاء الإداريين الذين ينهضون بالواقع الذي يراه متردياً!!

أحد الموجودين قال:

كيف صار هذا الرجل في موقعه؟

هل يحق له أن يتحدث عن الإدارة وآليات الاختيار وهو من هو؟

طريف هذا الذي لا علاقة له بالإعلام ثم يتربع مكاناً هو أبعد ما يكون عنه! ولكن قبل أن يصل إلى كرسيه يشحذ قلمه ويخرج علينا بنظريات يعجز عنها فرويد والمؤسسات التي وقفت وراءه!

فكرة غاية في الأهمية، فواحدنا يغش في الامتحانات ولكن عندما يصبح شيئاً يجعل همّه منع وصول الغشاشين وواحدنا حصل على وظيفة ومنصب، ثم ينذار إلى من بعده ليضع شروطاً تعجيزية أمامهم ليمنع وصولهم إلى الوظيفة.

وواحدنا أو جمعنا دخل الجامعة الحكومية ودرس بقروش، ولولا هذه المجانية لم يصبح مسؤولاً، ولكنه يجلس اليوم ليمسد على كرشه وينتقد الاستيعاب والمجانية، ويحرص على إبقاء الأغلبية من الطلبة (ب. ر. ج) أي براة الجامعة وخارجها.

مع أن الأمر لا يستدعي أكثر من عدم ربط التوظيف بالتعليم وتوسيع القواعد التعليمية لتستوعب الطلبة، وليصبح المجتمع كله متعلماً.

ما الذي يزعج واحداً مثلي غمره قانون الاستيعاب الجامعي بفضله لينتقده ظناً منه أن الآخرين نسوا كيف دخل الجامعة؟! ما الذي يزعج الواحد منا عندما يرى المجتمع مثقفاً ومؤتمتاً ومتحدثاً بلغة الأجداد وكل اللغات؟

هل المطلوب أن نكون آخر المستوعبين والمتعلمين؟!

إنها حالة الاسترخاء الذاتي عند مسؤولينا وكأنني بلسان جدتي يعود من جديد بعصا المسؤولية: بعد حشيشي ما ينبت حشيش، وبعدي ما حدا يعيش..!!

وصديقنا لا يزال يكتب زاويته الأسبوعية داعياً إلى معايير اختيار الإدارة التي لو طبقت فلن يأتي من يزيحه من مكانه..

* * *

بين شوقي ودارفور

الأخبار ذاتها، والتطور الوحيد أنها تزداد سوءاً، فالاستفتاء قريب، والانفصال يؤكده كثيرون، ويقاومه بعضهم، والسودان مهدد بما لا يمكن تخيله، ولا أحد يعتني بالموضوع، وكأن ترك السودان لمصيره أمر يريح الجميع، فبعد أن يقطع السودان لن يبقى مشكلة في المنطقة العربية ولا في العالم.. لا مشكلة عند العالم المتحضر سوى السودان!! ومن زار السودان يعرف ما يحتاجه السودان حقيقة ودون الدفاع أو الهجوم على أحد فإن ما يحتاجه السودان هو ما كان يحتاجه قبل أكثر من قرن، إنه بحاجة إلى أحمد شوقي الذي ينبه، وسعد زغلول الذي يستمع ويدرك ويعي... تركت الشاشة والأخبار التي أسمعها للمرة الألف عن السودان، وتناولت ديوان شوقي، وقرأت قصيدة طالما قرأتها وأعجبت بها، ويعرف شوقي بنفسه في الجزء الأول من ديوانه هذه القصيدة بقوله: «في حادثة اعتداء على حياة سعد زغلول أقدم عليها شاب بينما كان زغلول يعد العدة للسفر إلى انكلترا للتفاوض مع حكومتها» أما القصيدة فهي من باب (قضى الله أن يؤلفنا الجرح) فيها ما يعجز القارئ اليوم عن فهمه وإدراك قيمته، فيها الحديث عن الوطن الواحد (مصر والسودان) أو (وادي النيل) عندما كان البلدان العربيان بلداً واحداً، ولكن هناك من دعا للتخفف، ومن دعا للانفصال، فصار البلد الواحد الكبير بلدين كبيرين أيضاً، وكان السودان هو البلد العربي الوحيد وقبل ظهور الطفرة النفطية البلد غير الخاسر، ولو عدنا إلى كتب الجغرافيا فإننا سنقرأ عبارة لا ترد في جغرافية الوطن العربي سوى مرة واحدة (السودان:

الميزان التجاري متعادل) أي بين الصادرات والواردات وحين سألنا الاستاذ عن السبب حدثنا عن غنى السودان واقتصاده وزراعته وتربته ومياهه، وحين أفقنا من الذهول صار السودان كما نرى محارباً مقطعاً خاسراً وباحثاً عن مساعدة!

أكل بلَّد ينتظر هبوط ثروة عظيمة يخسر تعادل ميزانه التجاري قبل أن يستمتع بثروته؟!

أعود إلى شوقي وقصيدته الموجهة لسعد زغلول:

ويا سعد أنت أمين البلاد

قد امتلأت منك أعيانها

ولن ترتضي أن تقدّ القناة

ويبتر من مصر سودانها

فمصر والرياض وسودانها

عيون الرياض وخلجانها

قال شوقي واستمع سعد زغلول ولم يتخل عن السودان.. حافظ عليها محمد علي وعززها إبراهيم باشا وفاوض عليها زغلول.. ولا ندري متى لم يعد وادي النيل وادياً! تذكر كتب التاريخ أن محمد بن إدريس الشافعي المولود في غزة عام ١٥٠هـ والذي قضى حياته في مصر كان يتنقل بين منطقتين مصريتين، ولكن هذا لم يعد موجوداً وصار ثغر غزة بعيداً عن أمه التي يشاركها عمق اللهجة.. وتذكر كتب التاريخ قبل شوقي وسعد الكثير عن أرض النيل والنوبة والشعب الذي يشرد من أعماق المنابع وإلى المتوسط مروراً بأم درمان متابعاً النيل أزرقه وأبيضه.. شوقي يقول وما درى بمصيبة السودان فمن الجنوب إلى دارفور إلى الشرق والغرب والشمال قضايا لم تكن بحسبان النوبي التاريخي، ولا في ذاكرة (ابن إياس) المؤرخ ولم تمرّ بخيال شوقي الشاعر المجنح نحو الأسطرة.

فيروس الوصائية

كان يلوح بيديه ضجراً لأننا لا نفهم مراميه، ويعيد طرح أسئلته بطريقة أو بأخرى لعلنا نتفهم ما يريد، وعندما يتيقن أننا ما زلنا بعيدين عن الفهم، يرفع صوته أكثر، وربما يلجأ إلى وسائل مساعدة لإفهامنا...! هو لا يتقبل مقدار جهلنا وغبائنا ويخرج عن طوره، ونحن في الوقت نفسه نضيق ذرعاً ببراءته التي تحولت إلى ثقل ظل وغلاظة نريد التخلص منها بأي شكل من الأشكال، وربما إن كان الطفل من أسرتنا نلجأ إلى الضرب أو الطرد.. ولكن لا يخطر ببالنا أبداً أن نعرف سبب سوء الفهم، ولا ينهض أحدنا ليرى هذا الطفل في غرفته، هل لجأ إلى النوم حقاً؟ أما زال يبكي؟ هل اقتنع منا؟ هل خاف منا؟

نقتنع دوماً بأن ما فعلناه هو الصحيح، ونشكر الله أن هذا الطفل حلّ عنا ودخل إلى غرفته لنتابع الحديث وطق الحنك، وربما ممارسة اللهو، فقد ضقنا ذرعاً به وهو يملأ حياتنا حركة وحيوية، وفي اليوم التالي نسمع من الطفل كلمات وعبارات واخزة وقاسية، ونسأل: من أين جاء بها؟ ولا ندرك بعقولنا الكبيرة أن هذا الطفل شاركنا سهرتنا مجبراً صامتاً مقهوراً يحفظ كل ما نقول ويهزأ بنا!!

يعرف رغائبه جيداً، ويعرف مصلحته التي يجب أن نحترم، ويرفض أن نفكر عنه، ونحن معشر العرب، دون خلق الله نفكر عن الآخر، نكتب عنه وله، نمارس وصائية مقيتة، نصدر أحكام العجز والقصور على الآخر، فصاحب الوصاية هو الذي يفكر عن الآخر، إن كان الآخر طفلاً أمام الكبار، أو مواطناً أمام الحكومة، أو موظفاً أمام المدير! وكأن الوصائية قدر لنا لإلغاء

التفكير لدى الشريحة الأكبر من الآخرين لمصلحة فرد واحد يدعي المعرفة والإحاطة والفهم، فنقع ضمن ما سماه الباحثون الغربيون (فيروس المسؤولية) وهو مصطلح يخص مدّعي المعرفة، وقد يكون لديه المعرفة، يحمل فوق طاقته، ويتعهد دوماً بالحلول لأي معضلة، وكلما تحدثت عن أمر أمامه ضرب يده على صدره وقال عندي، وبالفعل يعطي حلوله، ولكن ما تلبث المعضلات أن تتراكب فوق بعضها، ومن ثم يصل إلى مرحلة العجز عن حل أي معضلة لأن فيروس المسؤولية الذي أصابه وصل إلى مقتل عنده، ولم يعد قادراً على الإحاطة بالأمور لحلها لا من حيث الوقت، ولا من حيث الموضوعات.. في مصطلحات أهل السياسة والإدارة يسمون هذا الأمر بالمركزية ونقيضها باللامركزية، وفي الأدب تسمى إلغاء الآخر، وهذا أغرب ما يمكن أن يكون في الحياة فمن جانب يظن متحمل المسؤولية أنه يريح الآخر من التعب ويتحمل عنه الأعباء الكثيرة.

ومن جانب آخر يعاني الجمع من إلغاء وجودهم، فهم لا رأي لهم ويتصرف المسؤول عنهم بأنانية وإلغاء لكل ما يمكن أن يصدر عنهم.. كلاهما ضحية المصاب بفيروس المسؤولية وضحية المسؤول... ولكن الحقيقة التي لا يمكن تجاهلها أن استمرار هذه الروح في قمع الطفل والإنسان تحدث ضرراً فظيعاً في المجتمع، والمجتمع هو المتضرر الأكبر من هذه الروح الوصائية، وهذا ما يفسر طبيعة مجتمعاتنا التربوية العربية.. قال أنطوان دوسانت إكسوبري في الأمير الصغير (من المتعب للصغار أن يفسروا للكبار الأشياء دائماً، اكتشفوا الصعوبة والفرق في الفهم عملوا على خلق عالمين متحاورين، وعملنا على إلغاء أحدهما لمصلحة الآخر).

* * *

ماذا نريد بالبكاء عليهم؟!

قرأت عملاً لديستوفسكي منذ أمد بعيد، لا أتذكره الآن، ولم يفارق مخيلتي في يوم، يتحدث فيه عن موت أحدهم وجنازته والعزاء فيه، فيدخل ديستوفسكي كعادته غور نفوس شخصياته، فيحلل ويحلل وصولاً إلى رؤية خاصة في دراسة نفسيات الشخصيات، ويخلص إلى أنه ما من أحد كان حزيناً على المتوفى، فمنهم من حضر للتأكد من أن المتوفى انتهى أمره ولن يعود، ومنهم من أتى لغايات أخرى عديدة، ولكنها في المجمل غايات غير نبيلة.. وهذا دفعني على صعيدي الحياة والقراءة أن أبحث في الموضوع ذاته، وكلما حضرت مراسم وفاة أمارس الدور ذاته وأحاول قراءة ردود أفعال المشاركين، لأكتشف عظمة ديستوفسكي ونبله في التقصي والصدق والتحليل أما في مجال القراءة فحدّث ولا حرج، فكل ما وقعت عليه يدي من شعر رثاء ليس حزناً خالصاً بقدر ما هو استجداء للحصول على الأعطية، أو محاولة للتقرب من جهة من الجهات، أو للظهور بعد الغياب، أو للانتساب في وقت ضاق فيه الانتساب.. لن أغوص في تجارب الرثاء القديمة من رثاء الأشخاص إلى رثاء المدن، وأكتفي بمظاهر التأبين وكلمات الرثاء التي توزع مجاناً هنا وهناك.. وأذكر لذلك مثالين أولهما يتعلق بأستاذ جامعي وناقد مهم كان استاذاً لي، وحدث بيني وبينه ما أفسد العلاقة بين الطالب أنا والأستاذ هو ولكنني عندما علمت بمرضه صرت أقصده مرة أسبوعياً إلى مدينته حتى وافته المنية وكنت خارج القطر.. وفي كل زياراتي له في بيته أو في مشفى (فريشو) لم أجد عنده شخصاً سوى زوجه الفاضلة، بل لقد استمعت إلى نقد جارح من عدد من

الناس الذين كانوا يطلبون ودّه ويحرصون على الجلوس إلى طاولته لتميزه بالكرم والذوق العالي في كل شيء.. المهم أن أستاذي وصديقي رحل وكتبت في ذكرياته أكثر من مرة، ولم أتعرض لرثائه، لأفاجأ بعد مدة ليست طويلة بصدور كتاب يضم ما كتبه محبوه وأصدقاؤه في رثائه، والكتاب احتوى كتابات الناقدين سابقاً والكارهين والمفارقين للناقد بعد مشكلته ومرضه! فجأة تأكدوا على رأي ديستوفسكي بأنه رحل ولن يعود فكانوا سادة الوفاء، وسجلوا موقفاً على المتوفى ولأنفسهم، فحققوا على أكتافه بعد الرحيل ما عجزوا عنه في وجوده.

وحين مات الماغوط كثر أصدقاؤه، وصار من حضر له مسرحية ضيعة تشرين سجلة صديقاً له، ومن رآه على مقهى الرصيف الصديق البكاء!! وحين مات العجيلي انبرى كثيرون للحديث عنه والبكاء عليه فعددت من أصدقائه الكثيرين، مع أنني أعرف أصدقاء العجيلي كما أخبرني هو..! ولكن الالتصاق بالكبار والمناطقية وغير ذلك يجعل الكثيرين من أصدقاء الراحل، وهو - أي راحل - غير قادر على طردهم واستبعادهم كما كان في حياته!

كنت أراجع الكتاب الذي صدر في رحيل علي الجندي، فرأيت أن الأمر لم يخرج عما قرأته في رحيل الآخرين فهذا يريد أن ينتقد الراحل بعد أن جبن عمره، وهذا يريد أن يسجل موقفاً من الدولة على كتفي الجندي، وذاك يريد أن يكرس صداقته له، وثالث يريد أن يبرز كما لو كان الوصي والناصح والأمين له، وآخر وجدها مناسبة ليعيد نفسه إلى زمن الجندي وأدونيس، وهو حقيقة لم يكن قد ولد بعد.

من ديستوفسكي.. من المتنبي وابن الرومي من قبل وإلى الأبد يشكل رحيل الكبار على ما يبدو فرصة لتصفية حسابات عجز عنها أصحابها في وجود المتوفى، وأخرى للظهور، ولن أستثني ظاهرة التشفي والفرح برحيل شخص وجوده يغطي على غيره.. ولكن السؤال المهم، هل رحيل هؤلاء يسهم في ظهور أنصاف الآدميين؟! لا أظن.

ولدي وجيل الخلاص..!

بالأمس أراد ولدي الأكبر - الأكبر بالنسبة لي - أن يؤدبني وأن يعلمني طرائق جديدة يريدها في التربية، فهو، كما أزعم، يرى والده الذي هو أنا ليس كما يجب، فالقراءة والكتابة، وكل ما وضعته أمام ناظريه من رفوف المكتبة وأمات الكتب المتنوعة ليست ترضي طموحه، فهذا الوالد - الذي هو أنا - مستحاثة بشرية تعيش في زمن مضى، الرومانسية والعاطفة كل ما لديه، يعيش برومانسية مريضة، ويعشق بشكل هستيري، وهذا ليس من مستلزمات الزمن الحاضر، وهذا الوالد لغبائه الشديد، وأقصد نفسي حتى لا أحاسب، يظن أن قراءة كم أكبر من الكتب يمكن أن يفيد ويجعل الإنسان قادراً وفاهماً ومهماً.. بالمناسبة هكذا يرى ابني والده الذي هو أنا، وأنا لا أمارس عملية قراءة في ذاتي!!

قرأت كثيراً، وتعلمت من التربويين، لذا قررت في قرارة نفسي أن أكون ديمقراطياً في تربية أبنائي وبناتي، وسأعترف، رغم أن الاعتراف قد يؤذيني، فأول المظاهر التي أردتها لأولادي هي الوقوف وعدم الانحناء، وقد أكون من القلة في محيط الذين يرفضون قبلة يد الوالد وأنا علمتهم أنه ما من داع للانحناء إلا للخالق إن أراد أحدنا.. وأنا سعيد بأنني حرمت ما يراه غيري متعة في التبجيل واستمرت ديمقراطيتي التي لن أتنازل عنها إلى اتجاهات غير محسوبة في أي منطق وضمن أي حساب ولكن عندما أراد ابني أن يؤدبني لم يلحظ أنني لن أكون حزيناً مهما كانت النتائج، ولن أمارس

فعل الفجيعة، ولن أشتم منهجي التربوي..! لم يدر في خلد ابني العزيز أنني سأحترم اختياره ولكنني اعتباراً من هذا الفصل التأديبي سأضعه أمام مسؤولياته وخياراته.. فحياته ملك له، ومستقبله من شأنه، وأنا لست شريكا له في أي شيء كما قد يتوهم..

قد لا يدرك ولدي العزيز أن الفضل الأول والأخير لما جرى ويجري هو للكتاب، فما قرأته وما عشته أثمر ثماراً عظيمة، وبما أنني لا أقرأ لملء الفراغ، فقد هضمت ما قرأت، وأنا هنا أشاطر ولدي في كل ما ذهب إليه، فمن حقه أن يسهر أو لا، أن يتعلم أو لا، أن يحترمني أو لا، وحتى لا أظلمه هو شخص محترم ويحترم.. ولكنني أتابع إلى أن ما فعله ولدي الحبيب أقنعني بما لا يقبل الشك أننا أمة كلامية غير قادرة على تطبيق ما تقرأ.. وحين أقنعني لم أرث حالي ولم أغضب، ونمت نوماً عميقاً وأنا أشعر أن ولدي صار قادراً على التحليق.. وأتمنى أن يصبح؟؟ على مساعدة أي شخص في الكون وأنا ضمناً..!!

خطر على بالي أن أكتب تأديب ولدي لي والذي أخذ وقتاً طويلاً خلال الأسابيع الماضية لأعبر عن فرحتي بشخصية مستقلة بدأت بالتشكل ومصدر السعادة أن هذه الشخصية هي أنا.. ربما لا يريد ولدي أن يشير إلى علاقتي به فهو مهم بنفسه..!

ولدي.. كن ما شئت.. لا يعنيني إلا أن تكون لبنة في الوطن الجميل سورية، ولا أريد أن تكون نسخة مني، فأنا من النسخ الرديئة التي كانت وراء الكوارث التي ألمت بالوطن.. أرجوك لا تشبه إلا نفسك.. ربما تكون أولى معزوفات الانطلاق والخلاص أنت وجيلك الذي يعرف ما لا نعرف.. ووصل إلى ما لا يمكن أن نصل إليه، أعتذر إن وجد أحدهم أن هذه الوقفة ذاتية ولا ذنب لي إلا أنني أرى الفرد وطناً وأن الأفراد مجتمعين يشكلون وطناً.

كله على «المنجعي» هيّن

المنجعي أو المتكي أو المضطجع بمعنى واحد، ويعني الإنسان المضطجع على جنبه، وهو بهذه الحالة غالباً ما يغفو ويأخذ قيلولة غير مريحة، وكذلك هو عرضة لضعف السيطرة على حركاته الإرادية وغير الإرادية، لذا يمنع الفقهاء المتكي طويلاً من أن يؤدي صلاته دون تجديد الوضوء، اعتماداً على مقولة (كله على المنجعي هين) والعامة اختاروا هذا اللفظ لسهولته على عكس الاضطجاع.

لم أرد أن أتحدث في اللغة الفصيحة واللهجة العامية، ولم أشأ أن أتحدث عن تقارب العامية واقتراضها من الفصحى، ولكنني دخلت هذا المدخل على وعورته لأنني أحسب أن الأزمة السورية الحالية، وما يعصف بسورية في الداخل والخارج أفرز عدداً لا يستهان به من المنجعين أو المتكين، وأحسب أن القارئ يشاطرني ما أراه، وأحسب أنني أحمل عن القارئ وزر الكلام حين أقول: منذ أشهر خمسة سمعت من المعارضة وطنية وغير وطنية، داخلية وخارجية، عشوائية وممنهجة كلاماً مخيفاً، فهذا يوقف ليستنجد بنخوة أمير قطر المعروفة، ويطلب من إمام الحرمين الدعاء، ويطلب من الناس ألا يكفوا عن الخروج في وجه الجيش والأمن والنصر قادم.. يقول هذا ويغمر وجهه الأحمر بشعرات مبعثرة فوضوياً تقول: ارحمونا من تحليله المنجعي.. ومثله كثير وفي كل المحطات العربية وغير العربية، بل عدد من المحللين الأفذاذ من غير السوريين يتحدثون بخبرة عن سورية كما لو أنهم مشوا الطريق بين المزة وبرزة على الأقدام، وهم لا يعرفون أسماء الأماكن!!.

وفي الجانب الآخر المصيبة أكبر ولا تقل خطورة، فهناك الكثير ممن استيقظوا فجأة ولم يدركوا حرص الرئيس والقيادة على سورية وإنسانها، فصرنا نسمع منهم كلاماً يفتقد العلمية في كثير من المناحي، وخلطوا الحابل بالنابل، ومارسوا التخوين لمن هم في مراتب وطنية عليا يصعب إدراكها، وصرت ترى شبيه صاحب اللحية الحمراء يتحدث كلاماً غير مسؤول ولا يحمل في طياته إلا روائح الزمن المنصرم.. ويبقى الوطن أمانة بيد السيد الرئيس والقيادة السياسية وبيد الوطنيين الحريصين على سورية ومكتسباتها، وإن كان أحدهم راهن على أن وعي السوري ليس كما يجب، فإنني أراهن على وعي السوريين وحنكتهم وقدرتهم على فرز الموتورين من أي صنف كانوا.. مهما كثير المنجعون والمتكون فإنهم لا يمثلون سوى قلة سرعان ما تدركهم الغفوة غير المريحة بسلامة سورية وخروجها من أزمتها أقوى...

حقاً صدق العامة بقولهم (كل شيء عالمنجعي هيّن) ولكن رجاءنا أن تنتهي الأمور قبل أن يكثر المنجعون.

سورية أهم من كل الأيديولوجيات.

سورية أهم من كل الديانات والطوائف.

سورية وجدت قبلها وستبقى بها ومن دونها.

هذا كلام الانتماء والحب لا كلام المنجعي غير المتحكم بحركاته الإرادية واللاإرادية..

سورية التي لا ينام لها جفن.

سورية التي لا تبخل بدمها لأبنائها.

لكنها تحيا بهم ويحيون بها.

ارحمونا من المنجعين على أبواب مصالحهم في المعارضة وفي الحكم.. إنهم لا يصلحون للزمن القادم.

عصة قبر... فوق الموت!

لا يخلو عمل درامي هذا الموسم من شخصية نسائية مسحوقة، أجبرها واقعها أو ظروفها على ارتكاب الخطيئة، لتصبح منبوذة من المجتمع، أو داخل سجن بتهمة الدعارة، أو ممتهنة للدعارة بسرية مطلقة، أو ممتهنة مجاهرة لسبب أو آخر، وبالمناسبة سمعت من كثيرين أن أبناءهم وبناتهم يسألون عن معنى كلمة الدعارة، ولا أدري كيف استطاع هؤلاء تفسير المعنى... المهم أن هذه الشخصية من لوازم الأعمال الدرامية، وتأتي مسوّغة حيناً، وغير مسوّغة في أحايين كثيرة.. ولكن ما لفت انتباهي أن جميع كتاب الأعمال يصممون على اختيار حاملة لقب الدعارة من المجتمع الفقير، من قاع المدينة أو القرية، وكأن الخطيئة مرتبطة بالفقر وحده، قد يكون الأمر صحيحاً نوعاً ما، ولكن من المعروف أن جميع أنواع الانحرافات تكون في الأشد فقراً والأكثر غنىً، والسبب أنه عندما يكون لدينا طبقة فقيرة جداً، وأخرى غنية جداً، فهذا يعني افتقارنا للطبقة حاملة المجتمع، الطبقة الوسطى، وفي جميع كتب التاريخ والأدب وبعيداً عن الأيديولوجيا - مهما كان توجهها يميناً، يساراً، فوق، تحت - نجد أن الطبقة الوسطى هي التي تحقق استقرار المجتمع - أي مجتمع - فهي منجم الثقافة والفكر، وهي القارئة، وهي الباحثة، وهي المتوازنة... وفي كتابات مرحلة الثمانينيات حتى منتصفها، والسبعينيات والستينيات كنا نفتقد مثل هذه الشخصيات، وإن كانت موجودة، فهي من باب البهارات وحدها، فقد تركزت كتابات تلك المرحلة حول الفكر والثقافة

والإنجاز والعمل والتحصيل وبناء المجتمع، وذلك لأن هامش الفقر - على المستوى العالمي - كان محدوداً ضمن متطلبات الإنسان والمتوافر، ومستوى الغنى كان محدوداً، ونسبة الفساد كانت محصورة في بيئات محددة.

واليوم مع غياب الطبقة الوسطى - على مستوى واسع - كثرت هذه الشخصيات التي تسقط في حمأة البحث عن المال والحياة وتأمين المستلزمات - والطريف أن هذه الملاحظة تعود بنا ما يقارب القرن من الزمن فعندما كتب د. محمد حسين هيكل الدارس في باريس روايته (زينب) التي يجمع المؤرخون على عدّها أول رواية ناضجة في الأدب العربي الحديث، عندما كتبها اعتمدت مفارقة الغنى والفقر، ورأينا شخصية الفتاة المسحوقة التي تقع تحت سطوة المال وأصحابه...

فهل عدنا اجتماعياً قرناً من الزمن؟

من المؤكد أننا لم نعد إلى الوراء، ولكن المواصفات المجتمعية تتشابه، وعندما تجمع الأعمال الدرامية السورية هذا الموسم على قضية السقوط الاخلاقي للفقيرة - مع عدم موافقتي على تحميل ذلك شخصية المرأة كما يفعلون في الدراما - فهذا يعني أن المشكلة كبيرة وموجودة، وتحتاج منا إلى:

- البحث عن العلاج المناسب منعاً لاستجرار المزيد منهن إلى هذا المستنقع.
- تشريح الحالة بشكل دقيق، وعدم الاكتفاء بوصم الفتاة رسمياً أو شعبياً.
- تناول شريحة المجتمع الأكثر غنى كما تقتضي الدراسات الاجتماعية.

في جميع الكتب التي تعود إلى أوائل القرن الماضي وبداية النهضة نجد هذه الشخصيات المسحوقة الفقيرة التي لا تجد من يدافع عنها، فرحماكم بهؤلاء المساكين، يكفيهم ما فيهم إن عجزنا عن المعالجة، ويكفيهم الموت ولا يحتاجون إلى عصة قبر.. إن ما قدمته الدراما السورية هذا العام مخيف ومجيد، وقد

عبرت وزيرة الشؤون الاجتماعية والعمل، عن أن الدراما قدمت في وقت قصير ما عجزت عنه الحكومة في ثلاثين عاماً، فهل نترك المجال للدراما لمعالجة موضوعاتنا؟ وهل تملك الدراما قدرات حكومية لايجاد الحلول وتنفيذيها؟

الدراما تشير إلى التسول.. وتترك للمعنيين المعالجة.

تتحدث عن ذوي الاحتياجات الخاصة، وعلينا المتابعة، ليس متابعة المشاهدة، بل متابعة التنفيذ..

تتناول الفساد، تتناول المجتمع... تجلدنا أحياناً.. ولكن هذا الجلد المختلف عن الجلد الذي قدمه نجدة أنزور يترك أثره في أجسادنا وأرواحنا بانتظار رحلة جلد أخرى إن لم تعمل الجهات المعنية على معالجة الأمور.

* * *

اللّه لا يعين قلبه

زميل إعلامي تحدث عن المذيعات العربيات، وبأن كل واحدة منهن صارت تظن نفسها من الشخصيات المهمة، وللحق فإن الزميل أشار إلى أن هذه الصفة جاءت إلى المذيعات العربيات من عالم التمثيل والنجومية، وأنا لا أرى في ذلك خيراً ما دامت الحياة تقتضي إعلامياً وفنياً امرأة جميلة، والأفضل أن تكون شابة لم تتجاوز الثلاثين، وإذا تجاوزتها لا بأس من تزوير الشكل والتاريخ..

ولكن السبب الأهم الذي أرى أنه يبيح للمذيعات، بل لمن هنّ أقل أن يفعلن ما يحلو لهن يتمثل في النظرة التي يحظين بها في المجتمع، فالمجتمع الفني والإعلامي يحمل أكثر مما يستطيع، والنجم فيهما يُعامل معاملة خاصة، ولست أدري السبب الذي يدفع إلى الاعتقاد بثقافة عميقة في هذه الفئة التي أحترمها! وقد يكون عدد منهم ومنهن يملك موهبة نادرة، لكن لا يملك الثقافة والرؤية، فنأتي نحن لنجعله من المثقفين غصباً عنه، وبإلحاح منا تصبح التي لا تعرف إلا كلمة (يقبر قلبي بابا) صاحبة موقف، ونحولها إلى بطلة من الطراز الفريد، والمذيعة التي لم تكن قادرة على فهم التلقين، ودخلت إلى الإعلام من الأبواب الخلفية أو المواربة، وهي غير قادرة حتى على قراءة ما كتب لها، هذه المذيعة تصبح نجمة غير شكل.. يستشهد بآرائها، وتستضاف وتفعل الأفاعيل وربما تخطط لمستقبل الأوطان في الوقت الذي يترك المثقفون والمفكرون في زوايا مطاعم أو خمارات بعد أن فقد أحدهم الأمل بكل شيء

وبأي شيء! يجلس هناك يرقب الشاشة ويرى من يتحرك أمامه أو تتحرك، يحاول أن يمضغ لقمة، يغصّ فيها، يغمس ريشته في دم الوطن الذبيح، ويدلق في جوفه ما تبقى من طعم مر مرارة العلقم يحاول أن يفهم فلا يستطيع.. الطاولات ملأى بالمثقفين، حوارات غنية جميلة، منتمية، رائحتها رائحة التراب عندما يندى بقطرات مطر تشرين وعلى الشاشة شخص بلا معالم.. هبط من محل لا عنوان له، يتحدث في كل شيء، يعطي النصائح في أي أمر، يعظ القادة، وتوجه بالنصح للشعب، ويوجّه المثقفين، وينتقد الكتاب بحدة، ولا يعجبه أحد من الصحفيين.. وحده يملك الحقيقة، ووحده يوزع شهادات المعرفة والخبرة على كل الناس!!

بعد كل هذا يا صديقي أرجوك أن تلوذ بالصمت

أعدك أن ألوذ أنا بالصمت كذلك

فنحن نعطي الناس فوق أقدارهم، لذلك من حقهم أن يفعلوا ما شاؤوا وأن يتحدثوا ما شاؤوا، وأن يركبوا من شاؤوا سواء أكانوا من هذا الصنف أو ذاك.. وخاصة إذا كان هؤلاء من القادمين إلينا وليسوا منا، فهم أقدر على فهمنا وفهم مشاكلنا ووعظنا..!

ملاحظة: أرجو أن تكتب يا صديقي في الناس المحليين من النجوم الذين يقفون بصلابة فينساهم من وقفوا معه ليستجدي معارضيه ويضيع واقف موقف الصلابة ولا يكترث به أحد.. (خرجه الله لا يعينه).

* * *

الهبش قبل أن يغيب البـريق!

نتمتع بقدر كبير من الدهاء الخادع لذواتنا قبل أن يكون خادعاً للآخر، فأحدنا يعد نفسه مميزاً، أو تتحدر إليه سلة سماوية أو علوية تحمله وتتوس فيه في فضاءات بعيدة، ثم، وفجأة، ودون سابق إنذار تلقي به في عمق سحيق سحيق، ولكن ومن عمق الهوة البعيدة، وفي جوف الحرارة والنتن والتعرق والتفسخ يتحدث عن ذاته وتميزه، بل يتحدث عن نخبويته الهبشية التي جاءت من هنا وهناك، ولا أصالة فيها، ويتباهى بمكانته التي لا تتعدى غفلة من الزمن الرديء الذي أعطاه ما ليس له من مكانة فأضره من حيث يظن النفع، وجعله غير قادر على فعل شيء بسبب ما اعتراه من انتفاخ غير وجداني أوهمه أنه مهم في ذاته ولذاته، لذا يقضي عمره متنقلاً بين مرآة وأخرى، متسكعاً بين مقهى وآخر، متسولاً نظرة ذات مغزى من أحدهم، ولا بأس بهذه النظرة لو دعته إلى ركوب ما لا يمكن ركوبه، فقد أقنعه الوهم أنه الفارس الذي لا يشق له غبار، وأن بإمكانه أن يروض الشرسة، فتجاوز شكسبير، ووضع في جيب سترته أفلاطون، واستخف بميكا فيللي مع أنه لا يعرف اسمه، وادعى صداقة دانتي، فهو الذي أهداه ترجمة رسالة الغفران للمعري.. أما جده الأكبر فهو سيدنا المتنبي، يذكره كثيراً، وهو لم يقرأ له ديوانه، ويكتفي من شعره بما درسه في كتاب الإعدادية! لكن هل من الضرورة أن يقرأ المتنبي حتى يدعي أنه جده ونبراسه وهاديه؟!

الخواء يقتل نفوسنا

الفقر نهش عقولنا

لم يبق لنا إلا ما جادت به العنقاء ذات لحظة من زمن، من ألم، من قتل أوهمتنا العنقاء بابتسامتها، بأجنحتها المتخيلة أنها الأجمل، وحين قرأت علينا سيرتها أعجبتنا الخرافة، وصرنا نشتم قصة علي بابا، أبعدنا القصة عن لوح الذاكرة لأنها تشير إلى اللصوصية فينا، توضح كيف تكاثر الأربعون من الحرامية حتى صاروا العدد الأكبر، وتحول المسروقون إلى الأربعين.

جيل الأربعين.. الأربعون من الحرامية.

تعميم غريب على العدد القليل.. لكن الذاكرة المثقلة بالوهم جعلتنا قادرين على تصديق الذات، فصرنا محور الكون والبشرية، نحدد العدد الذي نريد والغاية التي نريد..

لست أعرف التسمية الحقيقية لهذه الحالة، قد تكون مرضاً، قد تكون صحة، قد وقد، ولكن عندما يتهدل الجسم، وتقترب الرقبة من عُرف الديك، يجلس أحدنا نادباً حظه، لاعناً الوهم، وباحثاً عن حفرة تؤويه.. فمن حفرة إلى أخرى قضى عمره يبحث عن بريق لا يصدر عن الجِيَف.

* * *

شـــام وأمومة

عن لحظة ألق

يا ألق الخوف من الافتقاد

حين تحيط بك زوابع شتى.. تشتد وتشتد، وكلها رجاء أن تقتلعك من الجذور، وأنت يا شام يا حب العمر الماضي وحلم العمر القادم، وإن غبت عن وجودي ورؤيتي.. أنت تتشبثين بحدقات العيون، وهل هناك أقوى من عيون يرمدها الانتظار، ويفقدها النور الخوف من الافتقاد، وتفقأ ذاتها خوف الرحيل.. ابقي في المكان الأسمى يا حلمي يا شام الأبد وشام القادم.. لن يستجديك محبك، ولن يرجو لقاء أو رحمة أو أي شيء، فأنت شام، وشام أجلّها عن أن تكون مكان استجداء، وهو وصل الذروة في الحياة ولن ينحدر إلى أي مكان مهما كان المكان سامياً...

شامي... العلياء أنت وأنت البقاء والفداء...

ارقبي من ميسلون.. ارقبي من قاسيون

طوّقي بذراعيك جسدي المسجّى والحرمون

ارقبي.. احرسي.. طوّقي، فما مثل حنان يديك يا شام

ينهمر عطاؤك فوقي..

يختلط كل شيء، وتتماهى العواطف والمشاعر

أنسرب في حبات ترابك الندية، وتدخلين في كياني المرهق

لن أخرج منك مهما بذلت، ولن تستطيعي الفكاك مني يا شام

رأسي أسندته إلى مقام النبي يحيى، وعشقي كرّسته أموياً ولا أريد له مذهباً آخر

ودمي لا يزال عند مقام الحسين لأنتمي إلى كل ما فيك يا شام

إلى معاوية والحسين انتسابك يا شامي فإلى أيهما أميل فيك يا عمري..

إلى مذبح النحر أنحاز كل أيامي

إلى ابتسامة ملغزة تعطيها شام فأظنها لي ولا تكون، وأظنها لغيري وتكون قاتلتي..

هل أطلّ من قاسيونك إلى فيحائك، إلى دمّرك، إلى مزرعتك... إلى شامتك الموزعة

في أنحاء الأنحاء؟ أنت وأنت وحدك يا شام سيرة المجد الذي لا ينقضي.. فما من كبرياء إلا إلى بابك انحاز، وما من جمال إلا إلى وجهك انتمى، وما من مجد إلا إلى إنسانك اقترب..!

كم وقفت يا شامي شامة للعمر!

وكم وهبت للكون من عظمة لا تكون إلا بك!

يغنون مجدك، وتبذلين روحك دون كلام

يحيطك الصدأ وتحتفظين بالجوهر الأنقى

يزرعون الحقد وينتش على أرضك الحب

يريدون لك القحط.. فتكون ميادينك الخير كله

كنتِ على حافةِ الشوق وكنتُ على حافة الموت.. لم أمت لأقنعك بأنني سأتشبث بأطراف عظمتك، وأقنعك بأن تكوني شام الحب والكبرياء..

يؤلم يا شام أن يتطاول إلى عظمتك وكبريائك أحد، هم لا يعلمون أننا لا نعيش دونك...

دون خبز التنور

دون الليمون الجامد

دون أصوات الباعة ونداءاتهم

دون كبرياء الفقر في إنسانك
دون تواضع الغنى في ابنك
ألم تقولي ذات يوم: يخيفني لؤمك
يخيفني تناقضك التلقائي في كل شيء؟
أنتِ الإدمان الذي لا يرجو المرء فكاكاً منه يا شام
هل تتركين الزمن للعبث بما تبقى مني؟
هل تتركين باب مغارة الأشباح مفتوحاً على مصراعيه؟
هل تسمحين للأشرار أن يملؤوا ساحاتك والطرقات؟
كل صباح
كل مساء
أحاول أن أعبر حاجز الخوف والحذر
تمنعني أصابعي
وتخذلني قدماي
وأبقى مسمّراً مكاني أبحث عن لحظة من ألق
أتمسك بأطراف ثوبك، ولكنني أمنع نفسي أن أجهش
فأنت شام.. وشام قوة لا ضعف
الشمس تشرق كل صباح
هي ستشرق؟
لكن هل ستشرق لتغمر الوجه شاماتك، ويغطينا خيرك ومطرك وغيثك؟
لا حاجة للدعاء يا شام..
قبل كل شيء كنت، ولو حلف الحالفون فباسمك يكون القسم.
أسعدت أوقاتك يا شام.. أسعد إنسانك المنتمي يا شام..
لفّيه بما تبقى من ورق الجوز وعبق البنّ للزمن القادم.. لا يليق الزمن القادم إلا بك وعلى أعتباك متعملقة تجاوزت السماء.

شام... دهشة النفير

شام.. يا صورة القداسة اليوم وأبداً

حين وحين.. وبين حين وحين تكونين أنت شام فاصلة الزمن، ودرة الوقت، وحدك وقود النفس لأيام قد لا تأتي، ونبض عروق لحياة قد لا تكون أو ربما سلفت لأبينا آدم ولن تعود مرة أخرى شام يا ألق المحيا حين يغيب في المنحنى بعيداً ولا أجد متسعاً للقائه، أحاول عبثاً، ولكن الصمت يلف كل شيء، وتتحول الأشياء إلى غمامة عظيمة تجتاح المكان ومن ثم تخرج وقد أخذت كل شيء معها..!

شام.. أيها البوح الذي لا أرجو سواه، أيها الملاك الذي يجلس على كرسي لا مثيل له، وأمامه أسجد لأؤدي تراتيلي.. أرفع رأسي فيدفعني إلى ذاتي، إلى ذاته أكثر.. قد أغادر وتغادرين يا شام، ولكن أغادر لأنتهي وتغادرين لتخلدي عجيبة الدنيا أنت يا شام

أفسحت المجال للحب الكبير أن ينمو

وحين تأكدت من أنه عشش في الأرجاء

ومن أنه لا غنية للعابد عنه

حينذاك سحبت كل شيء يا شام

غاب صوتك.. وحلّ صمتك

غاب خطك.. وحلّ بياضك

غاب خبثك.. وحلّ اليقين
يا شام يا ألق الإنسان والمكان ويا روعة النفير
كم تشهى العابد أن يكون محتوى بين الأضلع
وكم أوهمته حروفك، ولكن وجد نفسه بلا مأوى
بلا مغارة
مغارة أهل الكهف لا تستوعب شيطناته
شام يا عمر العمر
يا ألق الكون
تمر الأيام مسرعة
أدلف إلى زاوية من الخوف والقهر
من الخيبة والجبن
من الخبث واللؤم
أدلف قانعاً بأن كل ما ظننته ملكي وحدي
أصنعه متى أشاء وعلى مقاسي
وأنهيه ساعة أشاء وبألمي
أقطع أوردتي فبعدك يا شام لا حياة
أهب نفسي للفناء
وأنت هناك يا حب عمري تسألين:
هل آن الأوان؟
هل أسمح له أن يتمرغ على عتباتي؟
هل أمسد رأسه بأصابعي؟

أنت لا تدركين أن كل سؤال يأخذ عمراً
أغادر وتبحثين عن عاشق جديد
عن عابد جديد
أرقب وأرقب فقط..
بلثغتك المحببة
بحمرة خجلك الدائمة
بأمطارك المنهمرة
أجد أنهاراً من خمر وعسل
لا أصل إليها لأرتوي
وعندما أصل أفاجأ بأنهار من الحنان
لا تسلب العقل!
مسكين أيها السكير الذي يدلق في جوفه
خمر العالم ويبقى بوعيه..!
حين وحين
وبين حين وحين
وعندما تتساوى الأشياء
ويتساوى البعد والقرب
ويتشابه الغياب والوجود
واللؤم والحرص
تضيع الدهشة.. وأنت يا شام لا تغيب دهشتك وإن تساوى الوجود والعدم.
لك الغد يا شام...

* * *

عندما تغيب الدهشة!

حين وحين.. وبين حين وحين تكونين أنت شام فاصلة الزمن، ودرة الوقت، وحدك وقود النفس لأيام قد لا تأتي، ونبض عروق لحياة قد لا تكون أو ربما سلفت لأبينا آدم ولن تعود مرة أخرى شام يا ألق المحيا حين يغيب في المنحنى بعيداً ولا أجد متسعاً للقائه، أحاول عبثاً، ولكن الصمت يلف كل شيء، وتتحول الأشياء إلى غمامة عظيمة تجتاح المكان ومن ثم تخرج وقد أخذت كل شيء معها..!

شام.. أيها البوح الذي لا أرجو سواه، أيها الملاك الذي يجلس على كرسي لا مثيل له، وأمامه أسجد لأؤدي تراتيلي.. أرفع رأسي فيدفعني إلى ذاتي، إلى ذاته أكثر.. قد أغادر وتغادرين يا شام، ولكن أغادر لأنتهي وتغادرين لتخلدي عجيبة الدنيا أنت يا شام

أفسحت المجال للحب الكبير أن ينمو

وحين تأكدت من أنه عشش في الأرجاء

ومن أنه لا غنية للعابد عنه

حينذاك سحبت كل شيء يا شام

غاب صوتك.. وحلّ صمتك

غاب خطك.. وحلّ بياضك

غاب خبثك.. وحلّ اليقين

يا شام يا ألق الإنسان والمكان
كم تشهى العابد أن يكون محتوى بين الأضلع
وكم أوهمته حروفك، ولكن وجد نفسه بلا مأوى
بلا مغارة
مغارة أهل الكهف لا تستوعب شيطناته
شام يا عمر العمر
يا ألق الكون
تمر الأيام مسرعة
أدلف إلى زاوية من الخوف والقهر
من الخيبة والجبن
من الخبث واللؤم
أدلف قانعاً بأن كل ما ظننته ملكي وحدي
أصنعه متى أشاء وعلى مقاسي
وأنهيه ساعة أشاء وبألمي
أقطع أوردتي فبعدك يا شام لا حياة
أهب نفسي للفناء
وأنت هناك يا حب عمري تسألين:
هل آن الأوان؟
هل أسمح له أن يتمرغ على عتباتي؟
هل أمسد رأسه بأصابعي؟
أنت لا تدركين أن كل سؤال يأخذ عمراً
أغادر وتبحثين عن عاشق جديد

عن عابد جديد
أرقب وأرقب فقط..
بلثغتك المحببة
بجمرة خجلك الدائمة
بأمطارك المنهمرة
أجد أنهاراً من خمر وعسل
لا أصل إليها لأرتوي
وعندما أصل أفاجأ بأنها من الحنان
لا تسلب العقل!
مسكين أيها السكير الذي يدلق في جوفه
خمر العالم ويبقى بوعيه..!
حين وحين
وبين حين وحين
وعندما تتساوى الأشياء
ويتساوى البعد والقرب
ويتشابه الغياب والوجود
واللؤم والحرص
تضيع الدهشة.. وأنت يا شام لا تغيب دهشتك وإن تساوى الوجود والعدم.

* * *

شـام الأقدس

أنت الألوهة التي لا تطال...

يأتيني صوتك عذباً قبل أن تكون الخاتمة، أتمرّغ على ما تبقى من الذاكرة... الذاكرة التي أثقلها حبك، فلم تعد قادرة على امتلاك ذرة من ذاكرة..

يأتيني صوتك... أتلون بالشجن والألم والفرح..

شجن لا يغادرني وإن كنتِ معي أو كنت معك...

إن كنت أحتويك أو كنت تضمين ما تبقى من عشق معتّق...

أغوص فيك

لا أترك زاوية من حاراتك لا أكون فيها

تمدّين الوقت

يمتد ليصبح قروناً في كلمة تنثال على لسان أبدي سرمدي...

أظن يا شام ويا خيبة الظن

أظن أنني سأمسح عيني برؤيتك في كل لحظة من نوم من موت من حب... من أي شيء...

على قاسيون أعبث بشعرات جدائلك السود...

أكتحل بدمعك النقي... يغمرني السواد والنقاء وأدلف إلى إبائك

أعبر من كل الأبواب

أرقب من نوافذك التسع... العشر... السبعين... السبع والسبعين نافذة... إن شئت أكثر... إن شئت أقل...

أرقب من النوافذ المعشقة، فيأتيني صوت أبي الدرداء:

ازدد ألماً...

أهرب من الألم وأصعد درجات منبر، فأجدني ألبس جبة الشيخ محي الدين وأغرق في بحر من دم التصوف... سريعاً في الزواريب أركض... أتمسك ببولص الرسول... أتوسل إليه أن يمنح بركته قبل الرحيل...

وحين أعجز

أعود إلى صدرك يا شام

أعرف سرّك الذي صانك دهراً...

عصية أنت يا قدري... لن يقدر أحد أن يفك أسرارك...!

أنت وحدك من سرٍّ إلى سر إلى سرّ...

وبين كل سر وسر أتكوم بحثاً عن لحظة عشق مختلفة

حملت طوعاً اسم شام

فرحت به

وحين أردت استعادته أخفقت

لبسك يا حبيبتي يا شام

لكل الأمكنة فيك أمان لا يصل إليه أحد!

لكل لحظاتك نشوة يعجز عن طهرها الطهر!

ذات مساء دمشقي ابتلعت حروفاً

وذات ظهيرة قطعّت اسمك كما أشتهي

فكنت كل شيء والألوهة...

وكنت ما تبقى

وما تبقى كثير...

لا تجزعي يا شام... لك الحفظ والألوهة

باقية أنت...

بين بولص ومعاوية

بين الأموي ومقام السيدة

وعبادك يحرسون عتباتك المقدسة...

يا شام أيتها الأقدس.

* * *

شام الكون في رعايتك

شام يا وطن الأمنيات
شام أيتها القديسة المشتهاة..
كل الأوطان لها أوطان تنوب عنها إلا أنت
لا أحد ينوب عنك يا شام
تباهي يا عمر عمري
امنعي ماءك عني... احرميني رؤية ثلجك
افعلي ما شئت يا شام
لن تهربي مني يا وطني
أحتضنك ما تبقى من العمر، إن كان في العمر بقية
أفنى يا شآمي بما في قعر الدنّ من نبيذ شآمي تلون بدمي
عاشق أنا للبقايا يا عمري
لك ما لم يبق مني وما بقي
قضت الأقدار يا عمري ألا أبدأ على أحجارك
إن جئتك آخر يوم من عمري سأكون البادئ
تسبيحي على أهدابك
صلاتي على أطراف أطرافك

حياتي ما بين نحرك والصدر
وحتفي بحرمان سماع صوتك
شام
ما أروع الاسم
ما أبدع الشامات
طرزتك اسماً
وشماً
ومع إشراقة الصباح أنسرب فيك
أبحث عن النقاء المفتقد في حجارتك
أنام.. أغفو على صدرك
لا أمان بعيداً عنك
عشرة آلاف سنة يا شامي وأنت الصبية
لا غزاة
لا غرباء
شذاذ الآفاق أمام طهرك تحولوا إلى قديسين وأولياء
لا تتركيني مثلوجاً في العراء
لا تسمحي للشمس الحارقة أن تغمرني
خذيني إليك
تعالي إليَّ
ازرعيني حيث شئت
أمنية يا حب عمري قبل الرحيل

ازرعيني لحظة من دهر

لحظتك هي الخلود يا شام

وشام لا يقوم مقامها شيء

من شام إلى شام

يقتلني يا أم الأمات الهيام..

بحفظ الألوهة أنت

بل الكون في رعايتك

وهل مثل شام؟

* * *

شام... باب للعابرين... ونوافذ للعابد...

شام... يا قدّيستي الأنقى... يا معبودتي الأبقى...
شام مدّي جدائلك على قاسيون.. غطي كل شيء في الكون
ارقبي ربيع العمر
رافقي اكتمال البدر
وامسحي خريف العمر
ودّعي..
عودي إلى قبة السماء من جديد
راحلون وأنت باقية
ثرثارون وأنت صامتة
العهر يغطي كل شيء وأنت طهر لم يكتشف بعد
نهر طهرك يجري في العروق
تأتي معه بعض قطرات بحرية
لا ملح فيها.. أخذت من عذوبتك
البحر فيك يا شام صار عذباً
الثلج بعيداً عنك ضاع صفاؤه..
يغمرني حنانك يا شام
تخافين على عابدك.. عاشقك
أرضى من العمر بأن أجلس على عتباتك

عند أطراف قاسيون
لأحمي أطراف جدائلك
لا يراني أحد إلا الله والسماء..
أرضى!!
لا يا شام
بل أسعى
أرجو
كل ما أرجوه لك هو الحفظ والألوهة
وكل ما يمكن أن أكون هو أن أرقب
أعشق
أغمر أزرار ياسمينك بعيني
يا شام
يأتيني صوتك
نحنحاتك
أشعر خوفك
أسمع نداءك
أعرف أن محبيك كثر
أهرع إليك
أعرف أنك اشتقت لعابدك
لخادمك
أعرف وأركض إلى ركن أدمنته
أرشف قهوتي بلا سكر

أرتمي على رصيفك الذي أهوى
أتمرغ على عتباتك
لا يراني أحد
أتعمّد بضوء عينيك يا شام
يغمرني الشيخ محيي الدين بعبقه
وأدلف من هناك
نداء الشيخ محيي الدين يطربني
يجذرني في الأرض
أتقدم إلى الشارع المستقيم
كلّ ما مرّ فيه لم يغيره
إنه الشارع المستقيم
طريق بولس الرسول
أحاول عدّ الحجارة السود فأعجز
أراك هناك
تفرحين بحيرتي
تبسمين..
فأتوضأ بخضرة عينيك وياسمينك
لأصلي ركعتين على أعتابك في كنيسة الزيتون
وأتعمّد بمائك المنسكب منك في الأموي..
ماؤك!!
آه من مائك يا شام
يقتلني عذوبة وسحراً ونشوة..
شـــام

أحب نداك
مسحور بروعتك
أطفئ الأنوار
وأتسلل من خيط ضياء عينيك
لأنزرع على جبهة وضاءة
على صدر يخفق ولا يتوقف
على نحر هو الطهر وعنه الطهر يصدر
لنوافذ الشام المعشقة يحلو الغناء
النداء
البكاء
التوسّل
دعي الأبواب للعابرين
يدخلون من باب
يخرجون من آخر
وللعابد الأبدي
نوافذ معشقة يرقبها الناس
ونافذة صنعها بنفسه، وصاغها بروحه
لا يراها أحد
ولا يدركها المدى
تتحولين عندها إلى سماء وأرض
وفيك مغارة الكهف
أرتمي عشرة آلاف سنة لأصحو من جديد

أخلق على عتباتك
وأحيا على لمس أصابعك
يا سحر الفتون
يا شام..
تمدّدي
عيناي نجمتان خضراوان
أخذتهما وصغتهما من طهر عينيك
دمي لأجلك نهر
وسوادي إلى جوار ضياك وبياضك
راية الوطن يا شام
تغطيك
وحين يطمئن الكون
تخرجين المارد الذي أنت
يرتعش صوتك
تصلني نحنحاتك
أتسلل إليك أنا العابد
لأغمر رأسي فيك
ولا أرجو عودة
يا شام

*　　*　　*

أيقونة القدر

ميلاد الأوطان يبدأ من حدود الوعي بها، وهل تكون إلا في فكر وروح وعقل العابد الذي يقضي عمره منتظراً ساعة من زمن للتمرغ على هضاب الوطن وتلاله وسهوله؟!

وطن وعابد هو الأزل..

لا قيمة للوطن دون العابد الذي يرهن عمره له، يلتقي بالكثيرين، يدخلون ويخرجون ويبقى الوطن آلة موسيقية تئن إلى أن يتلقاها عازف ماهر للغاية يصنع اللحون عليها.. قد يعيش الوطن عشرة آلاف سنة أو أكثر بانتظار أن يظهر ذلك العاشق المدنف، والعابد النابت من تراب الأرض ليقدم روحه قرباناً لوطنه.

ولا أهمية للعابد إن لم يكن متعلقاً بإنسان ووطن، يهفو إليه، ينتظره، يتعبد في محرابه، يصلي إكراماً له، يصوم حرماناً منه، يزكي ليحفظه المولى، الإنسان والوطن هما من يحدد نوع العبادة وشكلها وتطورها..

في تموز تولد الأوطان في بلادي

تيموزا كان

وتموز كان

ومنه وبه وله كانت البدايات

يتدلى إليك ذات لحظة من ليل ملاك حرمك معرفة التاريخ، ليقول لك:

اليوم يوم يعينك

وتنتظر الليل أن ينجلي
تتقلب قهراً وخوفاً من تقصير تجاه رب ووطن
فأنت تظن ما يظنه الآخرون! تظن أن الوطن إشارة حددها العارفون احتفلوا به ساعة من الساعات الخالدة، ومن توالي الزمن وكثرة الأحداث لم يتنبه أحدهم إلى لحظة الميلاد الحقيقية للوطن المشرق
لحظة الميلاد لنجمة الروح والسماء
لحظة الانبجاس لأيقونة القدر..
هناك في شهر شتوي قبل أن يتم العام دورته كانت البذرة.
في الخريف، في أوله تنزل الأوراق.. ندوسها.. تنزل إلى الأعماق
تتجرد الأشياء الأشياء، لتكون شاهدة على طهر غير ملموس
وتدور الدورة حتى يدخل تموز
ولعظمة المولود، وأهمية الوطن يطول المخاض..
وعند جذع النخلة والوطن، يهب الإله العابد المدنف ما يريد
يعطيه أرضاً وحباً ووطناً..
حين يهم تموز أن يلملم أوراقه
تنتش ورقة سقطت في الخريف
تتعملق في الروح والوجدان.. لتهبط من رحم القدر
وتكون الإله المنتظر
والحب المعشش في أعماق الروح
لن يغادر ما دامت الحياة..
إنه الحياة الأبقى
يوسف الحُسن والجمال
الخمر السلاف
والمدمن المنتحر على أهداب اللحظة..

شام... زيوس... والربيع

شام... زيوس كان حليماً.. عرف ما يضمره برومثيوس، كان مطلعاً على حب برومثيوس للإنسان، وكان عارفاً مكر الإنسان، وسمح زيوس للإنسان أن يدّعي ما ليس له، آه يا شام مما فعل زيوس رب الأرباب! أدرك المكائد كلها، ومع ذلك سمح للإنسان وأغرى برومثيوس، كانت الحياة كلها ربيعاً، وبلحظة لم تعد كذلك الحياة يا شام، تاه الإنسان في الفصول، قتله شحوب الأرض في الخريف، هاله هذا الكمّ من التغير يا شام، وكنت وحدك ترقبين ضياع الإنسان بين زيوس وبرومثيوس.. أمهل زيوس برومثيوس، أعطاه الأمان، وأعطاه القدرة لخدمة الإنسان... بلمحة منك يا شام كانت العواصف وكانت الأمطار، وكانت الثلوج لتنقية الإنسان حتمي الوجود، عهري التكوين.. لم يدرك الإنسان فعلته.. لم يعرف ما سببّه لبرومثيوس من ألم فجاء باسماً يجرّح عيون شام.. فداء شام كل الحياة والوجود، أنكر على شام أنوثتها وعذوبتها ورقتها، غار من حسنها وتحليقها، أراد أن يكون شيئاً إلى جوارها، أراد أن يلوث جبلها، أو يقترب من شممها.. أين أنت من شام؟!

قال عن شام الأنثى ما قال، قال: هي إله ولكن..! وتناقل حفدته الأوباش أن شام هي من أخرج الجد من الربيع الدائم..! قالوا.. غنوا.... وزيوس كان يحرس الكون، يودّ لو أن شام بقيت هناك، كان اللهيب الأسود والهيولى سيعمان الكون، لكن شام كانت من نصيب زيوس الإله الحليم.

لأجلك يا شام سرق برومثيوس جدّي النار المقدسة الأولمبية من جبل الأولمب وقدمها للإنسان، ولأجلك يا شام كانت المرأة (يندورا) تقلبت العصور وجاءت الخطيئة.. وعرف الإفك والكذب، لم تسلم ابنتك ربة البراءة أسترايا من الإفك فكنت أنت وأسترايا شامتين على حافة الطهر والألوهة.

ولأن شذاذ الآفاق على الدوام يسهرون على تلويث الطهر

لا يروقهم شمم شام وأسترايا

أوغلوا في الكذب والعهر

لأجلك

ولأجلك وحدك يا شام اختلف التكوين

لم تنزل صواعق الإله زيوس

لم تحرق الأرض أمام معصية الإنسان

وكان الطوفان

وسيكون الطوفان كل يوم

لن تفلح العيون الوقحة في الحديث

لن تنجو النفوس الخبيثة..

زيوس يعرف الخفايا

يحرس آلهة الأرض شام، وابنتها أسترايا آلهة البراءة

زيوس..

يا أيها القوي، يا محدث البروق ومثير الرعود

لأجل شام احفظ الأرض

مينرفا تعشق شام

استمع إليها جيداً..

شام وحدها تردَّ نارك المقدسة وتحفظ الأولمب

احفظها من الأشرار..

الشـام بخيـر

عام جديد يجبرنا على قلب ورقة أخيرة من كومة أوراق لنبدأ كومة جديدة، عام جديد يسعدنا بأننا ما نزال على قيد الحياة سعيدة أم غير سعيدة، وهي سعيدة حتماً، لأن السعادة تنبع منا من أعماقنا إن أردنا، وسعيدة لأننا نتحرك والحركة حياة والسكون موت.

كنت سعيداً مع أيام العام الأخيرة كما مع أولها، فقد انتهى العام دون أن ألوث لوح الفكر، ودون أن أخرج عن حب مزدوج للفرد والمجتمع معاً، انتهى العام وقناعتي راسخة بأن الفرد يتمتع بخصوصية مطلقة هي ذات خصوصية المجتمع، وهو ما منح سورية الكثير من الحصانة والود والاحترام، وفي الأعوام الأخيرة جلست إلى الشام، تناولت كلماتي، سرحت قاسيون أمامها، وجاءني الصوت بعد إلحاح منبعثاً من ضفائر قاسيون، مستنداً إلى جامع بني أمية، ملوناً بقوس قزح فوق بحر لا شواطئ له يعرش في جنبات الشام، فيخرج الصوت مبحوحاً عذباً، يحاول أن يتهدج لكن عذوبته تطغى عليَّ وعلى كل شيء، وأتمنى لو أن الشام تقرأ كل ما في الكون لنستمع إليه بصوتها.

من قاسيون إلى الشيخ محيي الدين شلال من الحزن والفرح

تبرق عيناها، تلوح الدمعات داخل المؤق

أتشهى أن أكون داخل الدمعـــة لعلّ الطهر يغمرني فأعجز وأكتفي بما أنا فيه

أتمنى أن أطوّق الشام بسوادها وبياضها بيدي، لكن هل يستطيع مثلي أن يحيط بها؟

ما أروعها عندما تهزّ رأسها... تقرأ بتلعثم وبإشارات تؤكد أنها لا تقصد.. تؤكد.. تقرأ فتأتي غزلية نزارية تدعوك لتسكن داخل الشام أو لتسكنها داخلك

لكنها تؤكد أن الغزلية جاءت عفو الخاطر وغير مقصودة..

ويل العشق... هل أصدق الشام؟

هل يخطر ببال أحد وهو على قمة قاسيون إلا من قاسيون أطلّ يا وطني؟

وهل أصدق أنها جاءت دون قصد؟

حاولت أن أقنع الشام أنني فرد على عتبتها، وقد لا أعني ما أقول..

تركت مقعدها وجلست إلى جواري.. غمرت عيني بغشاوة من الفرح الطفولي.. تمنيت أن أنزرع على كل حصاة من الشام، سوداء، بيضاء، بأي لون كانت.. بحـــرية كانت... برية كانت... نهرية كانت.. صدفة أم محارة أي شيء.

لم أدر السبب الذي دفعني إلى الشام لأحاورها.. وأنا الذي كنت أفعل ودونها حجاب كثيف.. لكنها كانت جردة حساب مخيفة.. عرضت على الشام بألوهتها أن أقبل يدها.. ضحكت.. فرحت.. لكنها لم ترفع يدها.. فبقيت على مسافة من اليد والشيخ رسلان والشام.

أحب ما في الشام وأخشى أن أجرح كبرياءها

أخشى أن أسبب لها الألم...

وعدتها قبل أولد أن تكون شامي وشآمي وكل الشامات

وها آنذا أقف أمامها عاجزاً وقد منحتني الكشف الصوفي أن أعرف شيئاً..

تحدثت.. بكت.. ضحكت.. أظهرت.. أخفت

وعلى أعتاب الشام وعدتها وعداً مشروطاً.. وقالت: آمين

كل عام وأنت بخير يا شآمي.. كل عام وأنت الحب والتألق والتورد..

ارفعي حجراً عن آثارك، واسمحي لآثاري أن يقرأ عظمة تتجاوز كل العبارات العلمية

لن يقرأ إلا عبقاً لا ينتهي وألوهة لا يطولها الهرم

*   *   *

الأم... لون الحياة... والبوح المقدّس

اقتربي من الذات أكثر
امنحي ذاتك للملتصق بك
لن تكوني إلا خيراً وحباً وعطاءً
أتماهى بك
ألبسك.. أتعشقك.. أغور في كوامنك
أعطر أنفاسي بروحك المعطاءة
ألتف على نفسي لأتكوّم على صدرك
لحظة من نشوة
لحظة من ألم
لحظة من حب وأمومة
وتفردين ذراعيك لاحتضان الوليد
يرتاح إلى صدرك
يغفو عشرة آلاف سنة
وحين يصحو ترتفعين إلى قبة السماء
ويبقى يرقب جبل الشيخ يكلل بالثلج والبياض والنقاء..
ثلج يغطي الجبل

وبياض يغمر أنحاءه

وأنت سماؤه التي لا يريد سماء سواها..

أمومة

بياض

عطاء

وأنت أكثر

اختصرت اللحظات المديدة برمشة عين

وكنتِ كل شيء وغاب سواك

خذ يا حبيبي

خذ يا ولدي

تناول من يدي

لا تعرفين غير العطاء أيتها الأقدس..

تشبهين وليدك حبيبك حتى في أدق التفاصيل

بياضاً

سُمرة

فرحاً

حزناً

روحاً

منك تشكل يا روح روحي

وفيك مستقره وسكينته

باقية أنت وإن غادرت مؤقتاً

خالدة أنت وإن رحلت

أنت لا تغادرين

تطيرين ساعة من زمن.. قد تطول دهراً

تبتعدين ذات دهر عن حبيبك

ولكنه إذا تعب وجد يدك تمسح جبينه

وإذا تأوه كنت الصوت المواسي

وإذا ضاع كان في شعابك وذاتك

قد تكونين أم سواه..

لكنك بقداستك تظهرين أماً له وحده

كأنك ما خلقت إلا له

ولا شيء في حياتك سواه..

تنهمر الأعياد

تسرق الأعياد من ضياء عينيك

يلبسك العيد..

من منكما العيد يا حب عمري؟

وتأتي أصابعك المرتعشة إلى الوجه:

أعتذر يا وليدي فقد تأخرت عنك

تهت في الزحام يا عمري

يرفع الوليد وجهه فرحة

هو لا يعي ما يدور

لا يفهم الحديث

غير قادر على البوح

يرفع وجهه ليغمره في صدر أمه:

لكن شام لا تضيع يا شام

تضمه من جديد

شلالاً من الحب

شلالاً من الغذاء

وما بينهما يستمد حياة سرمدية

هو يعرف أنه سيشيخ

يعرف أنها ستشيخ

يعرف أنها شاخت

أنها رحلت.. سترحل

لن تبقى

مهما طال الزمن لن تبقى إلى جواره

يستمد منها أكثر

يستحثها أن يسمع صوتها

تتلعثم

تخطئ

تتردد

أصعب ما في الأمر أن تتحدث الأمومة

الأمومة فعل لا قول

لا تدري أمومتها أن ما تبوح به يحييه

صورتها الضاحكة ستبقى في الذاكرة خوفها من أي شيء لن يغادره

من ضحكة إلى خوف
من حب إلى حليب
من احتضان إلى ابتعاد
من وجود إلى موت
تبقى صورتك معلقة فوق جبين الشمس
تتوس كل لحظة لحمايته ورعايته
تشبهه في كل شيء
وتغمره ببياض لا يمكن تخيله
يا أمومة الكون العظيمة
ويا نبل المشاعر
يا مطلق امرأة
يا شام
كل عام وأنت حبيبتي
كل عام وأنت بخير
حملت اسمها، وحملت أنوثتك
فكنت مقدسة
وكانت طهراً
أغنيات الكون لا تساوي شيئاً إن لم تشاركي الاستماع والغناء
ضياع هي الحياة لولا وجودك
وجودك أعطى العمر لوناً
جميلاً متورداً بحضورك
باهتاً بغيابك

لكنه لون يا أمي
ودون الأم لا لون للحياة
لا طعم للحياة
أقترب أكثر
ألتصق أكثر
وفي الربيع يغمرني الثلج والبياض
وتتفتح أزار الحب
لتعطي رائحة الياسمين الشآمي كل لحظة
وتنزرع أزرار الياسمين على شعراتك
وأسافر معك عمراً لا أدري
أهي إغماضة عينين؟
أم رحلة في عالم الأبد؟
إنها أمومة

*   *   *

الانتظار.. لا شيء يا شام!

خطفها يومها بلوتو.. لم تعد الحياة ربيعاً دائماً
لكن الربيع بقي.. غابت برسفونية ربة الربيع
غابت وبقيت أمها ديميتر ربة القمح
غابت برسفونية وزرعت الألق في شام
حزنت ديميتر حين لم تهب ابنتها برسفونية لاستقبالها
لكن حزنها أحاط بشام.. فكانت شام الحب والألق والجمال
وقف بلوتو أمامها يومها ونادى في الكون:
يا للعقبين.. والذراعين.. والظهر العاجي
إن لها فماً رقيقاً
إنها لتنثني كالغصن
تاه بلوتو في برسفونية، وكانت شاماتها تسبيه
فهذي قباب الصالحية
وتلك تنهدات الغوطة
شام يا ألقي
لأجلك وأجل بحتك جاء التوحيد
خشي الله عليك من الآلهة
لم يرد أن يخطفك أحد ليحرم الدنيا ألقك
راحت برسفونية وبقي الربيع يوماً

حزنت ديميتر ولم تبخل بالقمح..
يا شام لأجلك كان التوحيد
وعلى احتضانك كان اصطراع الآلهة
على حدود شفتيك وشاماتك
عند منحدر بسمتك حيث يقبع الشيخ رسلان
تجمع آلهة النور.. غابوا دفعة واحدة
وبقيت صورة من إله.. يغيب دهوراً
يعطر وجودنا ذات لحظة من ليل
أتشهّى تقبيل طيفك فأرتد وحيداً
سريري الألم والشوق
وحرماني ينوس فوق رأسي
وتأتي معابثتك الخبيثة
في شيء؟
لا شيء يا شام
يا عمر عمري
بعد رضاك لا شيء يستحق الرضا
وبعد لقاك تفنى كل الجزيئات
ويصبح العاشق ذرة من ألم
تنتظر كلمة.. لقاء.. قهوة.. أي شيء
يكفيه لذة الانتظار.. يا شام
رحلت الجدّة دون أن تسمع من برسفونية حكايتها الجديدة
لم تسمعَ ولم تروِ.. وبقيت الحكاية تترقرق في عيني شام آلهة الربيع
تحتفظ بها وحدها
بعيداً عن هدهدات الجدة وحكايتها قبل أن تستلقي على ذراع تتشهّاه.

ساعة أرادتها الشام في موعد إلهي

لم يقترب منها
لم يعشقها
وحين التقت عيناه بقداستها
تعشقها
تماهى بها
كانت كل شيء في حياته
كل المعارف كانت هي
وبلا تعريف لا غيرها
شام أنشودة الفداء
والشام نور العين
أول مرة يجد نفسه مسلوباً
لكنه المسلوب المكرّم
شام سلبته من أول نداء كل حياته
وضع ذاته
حياته
دمه
وضع كل شيء.. وحروفه في صرّة

قدّمها إليها

ودّ لو قبّل يديها

ودّ لو عانقها

ودّ لو كانت مطراً يهمي على وجهه

لو كانت سماء تغطيه

ودّ كل الأمنيات

لكنها كانت أكبر

غابت وغابت

وحين عانق صوتها

وصله خوفها الذي تغلغل به

إنها إله

شعرت الخوف عليه

رؤيا الآلهة حق

زنر نفسه بالحب

غمر جسده بالياسمين

وسجد على قاسيون لينصهر في شام

كانت شام أكبر من المساحات

وروحه ليست سوى قطرة على مذبح عشق المستحيل

...

تعرف الشام أن ابنها

حبيبها

عابدها
يدفع روحه ليجلو جوهرها
غمرته بصوتها وثلجها وبياضها
وغمرها بدمه وخوفه وحرصه
أراد أن يخرج بها حراً
وأرادت أن ينصهر فيها عبداً
أسلم ذاته
واستعد لوشم العبودية راضياً
ولا يزال يلوب عن الوشم
يطيل النظر
يثرثر
يصعد هضابها
وبكبرياء الوطن النبيل
لا يزال تائهاً بين الشام وشام..
...
على أعتابها صلى ما أحلى الصلاة
على بابها يحرس
ما أقدس الحراسة
تحت شرفتها
على حافة الأبد
يحملون جسده مكللاً بالعلم ونجومه
يغنون الشهيد
ويخرج شهيد العشق الإلهي كل لحظة

ليحرس شامه
ويرقب سكناتها
شهيداً كان...
عاشقاً كان...
عابداً كان..
فداء لها كان
إنها شام.. وشام تستحق
قد لا تصدق شام كل العشق
لا تعرف كم هي عند عابدها
على أبوابها يسهر
ومن نوافذها يشرف على نبضات قلبه
ليستريح على رمشة من عينيها
ويغفو على ارتعاشة صوتها
إنها الشام.. ما أروع شام
يخرج ابنك منك مارداً
بطلاً
كبيراً
يرى نفسه فيك
إنه المميز الحق
إنه الذي لا يشبه غيره
قد لا يكون كذلك عندك
كذا الأم لا ترى ابنها إلا صغيراً
...

مدّت شام يديها

مدّت صوتها

سمحت له أن يرشف صوتها

أن يعرف البخل في عواطفها

ربما كانت تحبه فعلاً

لكنها تأبى

شعرت به

أشعرته

أعطته قلماً صغيراً

وطلبت منه أن يبدع

غابت عنه وراء التلال

وبقي مع قلمه

يبحث عن شام

ويكتب لها

وحين جف قلمه

غمسه بقلبه

كتب وكتب

وكانت شام تعطر عزتها ببعض دمه

وقبل أن يجف دمه

ملأ قلمه

وصار القلم سلاحاً

مدّ يديه

أحاط الشام بذراعيه

لم يكن معلوماً
كان مجهولاً
الشام وحدها تعرفه
تعرف اسمه وتفاصيله
تحتفظ بدقات قلبه
وتحتفظ بدمه على غرتها في قاسيون
غابت
ومات هو
غابت وتماهى بها
صنعت له شام نصباً لائقاً
وأعطاها
ألوهة
وكبرياء
وكان الجلاء
لم يكن الجلاء معركة
كان رحلة عشق أبدي
رحلة حب مستحيل
تجمع الأبد في يوم
وتحققت الاستحالة
وحدها شام أنشودة البقاء
وحدها يبحثون عنها ولا تبحث عن أحد
في منعرجات قاسيونها تمنح ابنها
هي تدرك أنها كل شيء

تهز لحظة كبريائها
ليتساقط العمر كبرياء
وحباً
ليغمر العابد وينهي لحظات الغياب
ما بين عام وعام
عمر وعمر
تبقى شام ترنيمة الراعي على ناي ما لمسته غير يديه
يعيش لها
وبها
ويضع رأسه عند بردى
عند المنبع
وينسرب لحن الحرية والجلاء والشام
في يوم واحد
في الربيع
في لحظة واحدة رضيت فيها الشام
وسمحت أن يكون اسمها محفوظاً
عطرت غرتها بدم العابد
وخرجت معلنة حريتها
وساعة الجلاء
وحدها الشام تحدد ما تريد
وعندما أرادت
كان الجلاء.

*   *   *

تراب قاسيون والوله...

وإذا كنت أريد كل شيء؟!

لك كل شيء يا ذات الطهر.. لك القلب وما حوى... لك العقل وما وعى...

لك أنا بكل التفاصيل

لك كل شيء يا منيتي

اليوم أقدم نفسي قرباناً لك.. على مذبح الحب والعبودية

لوحة من الأرابيسك أنا... إرقصي فوقها، تحركي كما شئت..

من قال لك: إنك لا تملكين كل شيء.. أنا كل التناقض...

وهل مثل شام يا روابي العمر وسلاف العشق؟

أخذتُ حقي.. كذلك تقول شام!

وهل يقدر أحد على رد حق شام؟

درجت على عتباتها، أرشف غذائي على رصيفها..

أتقنت أبجديتي من بقايا الأبجدية المتناثرة من ضفائرها..

قسوتِ كثيراً يا شام

يقتلني صمتك الطويل

يشجيني ترقبك لي، وحين أتيقن من أنني صرت وحيداً

يأتيني حرف كتب على عجل...

يأتيني صوت على جناح طائر ميمون

وحين أغمس روحي في تفاؤل النبيذ

أقترب لعلي أرقب صفاءه
ولكنني أجدني والفراغ
لك كل شيء والخوف
الخوف من جرح مقلتيك
الخوف من أن تدمني الخوف
الخوف من أن تصبحي نغماً حزيناً
يا بحة الروح
يا انبعاثة الأمل
لك كل شيء على عتباتك.. على حجارتك
امنحي ابنك حفنة من تراب قاسيون
ولك كل المجد
أزرع فيك كل تفاصيلي الصغيرة والكبيرة
أطرز كلماتي شيطناتي على حيطانك
أصعد لأعلن الأذان في غير موعده
أدق أجراس كنائسك في غير الأوان
وفي كل مرة تكونين الإمام والواعظ
وأنا...
أرقب
أقرأ
أنتظر
يقتلني الانتظار، لكنه يصبح فيك عبقاً لا يزول
وأنتظر موعداً لا يتحقق.. وقهوة ما مثلها من دمع الوله..
يا شام

شام... الشمس تشرق غداً...

قد أكون بسيطاً وساذجاً عندما أعلن تفاؤلي بالغد الذي ستشرق شمسه على سورية الغالية، والشمس ستشرق على كل بقعة وحجر وإنسان، وهذا التفاؤل مردّه سورية وأبديتها شاء من شاء، وأبى من أبى، فهي الباقية والسابقة، وما عداها قادم ومقيم وراحل..

وكذلك متفائل أنا بإنسانها الذي أخفقت كل الأيديولوجيات في صهره وتذويبه، بل لم تنجح المؤامرات التي تتحدث عن تشرذم الولاء القومي أو الطائفي، فكل ما سمعناه تفوح منه رائحة نتنة من المستحيل أن تبقى وخاصة مع قدوم الصيف، فلا قدرة على احتمال النتن المزعج..

شام يا سيدتي

شام يا إلهاً سجدت على أعتابه

حاروا في أسمائك وأسبابها

تاهوا وتهت في مغاور الروح والجسد

ولكنك يا شام خرجت أقوى وأعظم

متفائل أنا وخاصة عندما أرصد النتائج، ففي سورية، وبمباركة شام دارت الدورة مسرعة، وتكشفت الوجوه، فكم من وجه كان يحمل قناعاً أو أقنعة صار عارياً على أعتاب الحقيقة.

كثيرون كنت أستعمل معهم عبارات: طيب حتى الآن.. جيد حتى الآن لإيماني بأن الغد سيحمل شيئاً، وبأن اللحظة القادمة قد تكون مفاجئة إلى درجة الفجيعة ألماً أو الإدهاش فرحاً.

ولأنها سورية

ولأن شام مرآة ولا تُشرخ ولا تكذب ظهرت الحقيقة

وكم يؤلم ذلك الكمّ من العهر الفكري والثقافي!

وكم يدهش ذلك الكمّ من الفجور الفئوي على حساب الوطن!

شاهدناه طويلاً

قرأناه كثيراً

استمعنا إليه كل أوقاتنا

وسرعان ما تماهت الصور، وظهرت الحقيقة للعيان

لك الله يا شام وأنت تشيرين بإصبعك وتقولين:

إنه العهر..

لكنه أي نوع من العهر الفكري؟!

إنه العهر المشاع لفكر رخيص على قارعة الطريق

يأخذك إلى مناطق مشتهاة لتخرج حاملاً أوزارك وخطاياك ولكن تفتقد أحاسيسك الطهارة والمتعة..!

شام يا حبيبة العمر

أرقبك

أتبعك

وتبقين حب الطهارة والمتعة والقداسة

* * *

شام ووطن وكبرياء

رددتها جنبات شام، صدقتها حيناً من غرور وكبرياء.. عرفت أنها المعنية، فرحت بها، طوقت بها جيدها وصدرها، سمحت لكلمات أن تنسرب داخل الجسد والروح... على أعتاب شام من الغرة إلى كل أنحاء الأماكن العبقة بالقداسة أتمرغ باحثاً عن لحظة لا تشبه سواها، أبحث عن أمان على صدر شام، وهل مثل شام؟

حين وحين...

مدّي يديك يا شام.. هدهدي عابدك وعاشقك.. أغمضي عينيك واستريحي، قلمه يكتب مجدك.. وريشته ترسم ملامح القداسة، وسلاحه يبقى يقظاً لحماية ابتسامة ترتسم على حجرين رُسما في وجه دمشق الآسر، مر عليهما التاريخ، لكن الثغر بقي طهراً لم تقترب من شفة.. بعد كل الزمن يرى العاشق الحقيقي أن شام له وحده..

عند حدود شام ووطن تضيع ملامح الحقد، وكل من عشق يتحول إلى نور يسمع صوت شام، يأتيه دلّ شام، يقتله صمت شام، فهي لا تبوح بشيء.. أنت تعرف.. تقول شام فتمحو أي إحساس بالافتقاد وتمنع أي تفكير بالعودة إلى خلف.. إنها شام.

حين وحين

حين يحيا الإنسان يكون الوطن مساحة الرؤية وامتداد العنق

وحين يرحل الإنسان يكون الوطن حفنة من تراب تحيط به ويكتفي بها وحده الوطن.. وحدها شام.

عشق يترسخ في الأعماق بحثاً عن لحظة من أمن وأمان ليطير عاشق ومعشوق في آفاق واسعة حرة.. هناك عند قبة السماء يتعانقان طويلاً، وما يتردد من لحون حبهما ينسج أغنيات تهبط من سماء الله.. إلى أرض الله.. وبين سماء وأرض.. رمز الألوهة يبقى سياجاً لوطن وشام.. فانهمر أيها الحب الأبدي.. انهمر على شام في كل فصول السنة، في كل لحظات العمر.

شام... أيها الحب النبيل.. يا شامة الدنيا وسلاف العشق الأبدي... تماهي إن استطعت

تعملقي وهذا قدرك

لن يكون إلا ما تريدين من حب وألوهة..

حين تتسع زاوية الرؤية

حين تضيق زاوية الرؤية

حبي سياج يحيط بكل الزوايا، يحميك من حدود الوطن، ويقترب أكثر فأكثر

ليلتصق بشام ولا يخرج منه وعنها..

شام الألق والتفجر بالحب..

وطن الإباء والترجل بعد الصمت..

لابن ربيعة رامتان في صحرائه

ولشام رامة واحدة متجذرة

لأرض وحب وإدمان

رامة واحدة في صحراء العمر

هي شام..

وحدك يا شام عندما تهزين غرتك يتناثر الطهر في الجنبات

انثري ما شئت يا شام

فغداً نهار

نهار ورده أعطر...

حين وحين

وطن وشام

شام ووطن

وهل مثل شام؟!

وهل أغلى من وطن؟!

* * *

متعة الأعوام والميلاد

أتحدث في بعض الأشياء مع نفسي كثيراً، ولكنني لا ألبث أن أنساها، فأعود لتذكرها بعد رحيلها بمدة، وأنا غير آسف على هذا الرحيل، لست متعلقاً بشيء منها، وقد ينتابني إحساس بالخجل عندما أتذكرها.

فبعد أيام نقلب صفحات السنة الماضية إلى غير رجعة، وقبل أيام قلبنا السنة الهجرية، وما أذكره أنني كثيراً ما منيت نفسي بقضاء سهرة أحتفي بها بالسنة القادمة، ولكن يحدث ما يمنع فتنقلب الأوراق دون أن أشعر إلا بأعوام تتراكب على كتفي سعيداً بها، دون أن أرغب في العودة إلى الوراء في الزمن لإحساسي الصادق تجاه ذاتي بأنني أخذت من كل سنّ سلافته ولست بحاجة لشرب الكأس مرة أخرى، أو إعادة التجربة.

أما يوم ميلادي فهو الأكثر طرافة، وقد ذكرت في كتبي أن يوم ميلادي لا أعرفه بدقة، فوالدي رحمه الله تعب من تسجيل أولاده ثم توفيتهم لأنهم يموتون أطفالاً، فقرر ألا يسجل الولد حتى يكبر، وكان الدور عندي، ولم أسجل إلا عندما دخل أقراني المدرسة فدخلت معهم، وتم تسجيلي باليوم والشهر والسنة حسب رأي مأمور النفوس والتاريخ المناسب لدخول المدرسة، وكلما جاء يوم ميلادي المدوّن في الأوراق الرسمية ضحكت من أعماقي، ولا أتذكره إلا بعد مرور أيام، وللأسباب المذكورة لا أجد رغبة للاحتفاء به، ولأسباب خاصة لا أجد مسوغاً لهذا الاحتفاء، إذ أشعر أن الإنسان أكثر شيء معرفة بذاته وقدرها ولذا فمن واجبه ألا يدفعها إلى مزيد من الأنانية والتشوف

على لا شيء.. من حق شخص لصيق لصيق أن يحتفي بك وبميلادك، وأن يعطيك ما يراك فيه من قدر، أما المشاعية في تحريك عقرب أيام حياتك فإنه يشكل معضلة حقيقية، وأصعب إحساس ينتاب المرء أن يتحول إلى ساعة مكشوفة في ساحة عامة يلمس عقاربها كل مار مهما كان قدره.

شعور جميل بما تكونه يسيطر عليك عندما تعلم أن شخصاً ما يبلغ بطريقة ملتوية كل المحيطين به بهذا اليوم الأغبر الذي جاء فيه إلى الدنيا، ليتمكن الجميع بعد الهمس من تكريمه ومعايدته وإرسال المناسب من الهدايا.

والسؤال: ما قيمة هذا اليوم بعد الهوبرة والمجاملة والتملّق؟

أين خصوصية اللحظة عندما يطوقك من تحب مباركاً؟

أستعمل عبارة أخذتها عن صديق - هو الآن دبلوماسي مهم - وأقولها في حديثي مع من أحب في مثل هذه المناسبة: قبّل نفسك واحترمها.

يسخر أحدهم عندما يسمعها، لكنني أعي جيداً أن الإنسان إذا أجاد حب نفسه وتقبيلها واحترامها فسيكسب حتماً احترام الآخرين وحبهم وقبلهم... والحب ينتقل بالعدوى لا بالطلب.

ميلاد جديد وجميل لطفل المغارة.. غاب عنا ولا يطلب من أحد أن يحتفي به، وكلنا نتسابق للتبرك باسمه..

سنة جديدة مملوءة بالتجارب لنا جميعاً، أتمنى أن نجيد حب أنفسنا فيها لعلنا نحظى بمن يحبنا عندما يرى تقديرنا لأنفسنا.

كل عام وأنتم بخير

* * *

أمـي

يا سعادتي برحيلك يا شآمي

رحيلك يمتحنني

هل أنا قادر على فراقك؟

وهل أملك قلباً أو عقلاً ليذهب إلى سواك؟

أخاف عند رحيلك أو رحيلي

ولكن ما إن تصبحين بعيدة، ويأتيني صوتك مرتجفاً حتى تتلاشى كل الأحاسيس فيّ، أشعرك كالملاك الذي يهبط من السماء، يشق صدري، يأخذ مضغة الحب لدي ليزرعها على جبهتك...

لو غبتِ دهراً عندما أتذكرك تنتفض فيّ الأحاسيس

وحين أسمعك أعود إنساناً سوياً يا حب عمري

وحين يغيب صوتك أياماً أبدأ بالذوبان تدريجياً

أصبح لا شيء

أتلاشى

هل عرفت يا شآمي أن حياتي وموتي على حدود عينيك اللتين فتنت بهما؟

هل تيقنت يا حب عمري أن قوامك واسمك لائقات بمئذنة العروس، يا عروس المآذن والطهارة والجمال؟

قد أكون لا شيء

قد تكونين كأي مخلوق
ولكننا معاً يا شآمي شكلنا حباً لا مثيل له
فاسكبي حليبك في فمي
دعيني أمشّط شعرات الشيخ محيي الدين
اتركيني على حواف (ذو الفقار)
لأجلك أسكن حوافه، وأستمتع بكل لحظة ألم...
حبيبتي يا شام
يا كل الشامات
كلي بانتظارك طاهراً كما لم أكن
محباً كما لم أتخيل
أنتظرك لتكوني أرضاً، سماء، جواراً
لا تمنعي أمطارك من التهطال على رأسي
في فمي
على كل أنحاء الجسد
منذ عشرة آلاف سنة سكنت على رصيفك
وحيثما تنقلت انتقلت معي حجارة الرصيف
حنانها يدفئني
رطوبتها تنعشني
حبها يحييني
الآن أعرف معنى أن يجتاحك تيمور لنك القذر خمسة آلاف سنة
الآن أشعر ألم أن تستباحي في غيابي الطويل...!

لن يحدث يا شآمي

لن أغادرك لحظة من زمن

لن أتركك لتيمورلنك

ولن أقنع بوجود ابن خلدون

كل فلسفات الكون لا تساوي لحظة عشق واحدة أمام الشيخ رسلان...!

تمددي يا حبيبة

اتركيني أزرع قبلي وحبي على كل أنحاء الجسد البديع...

أهلاً يا شآمي

يا عاصمة العشق الأبدي.

الشام

* * *

الشام على صفحة النيل

يا حبيبة عمري

ما عانقت عيناي صفحة النيل يوماً إلا كنت الخلود

الذي منح الأرض الحياة، وكنت الحياة التي لا غنية

لي عنها... أنت أهم وأعظم وأكثر خلوداً...

يا حبيبة نفسي وروحي

ها هي القاهرة تتلألأ اليوم أكثر من كل الأيام

السابقة... بالأمس كانت شاحبة، واليوم

أراها باسمة لأن سماءها ستقلني إليك

وتعيد إلي بقايا النفس

غادرتك محزوناً يا حبيبة قلبي

تألمت كثيراً فقد أحسست أنني لا أعنيك

تألمت لأنني لم أقدر على معانقتك

تألمت لأن صوتك لم يكن فرحاً

وفرحت اليوم

لأنني أيقنت بأن ما أظنه قسوة هو قمة الحب

يا حبي الخالد المنقوش في دمي

قال قائلهم: فاغترب تتجدد
أقسم بعينيك ورموشك لم يقل ما قال إلا لي
وبي...
كلما زادت كرياتي البيضاء تحاول اغتيالي
فأكون تافهاً، وأدفعك إلى كرهي
فيأتي الابتعاد... وبعيداً عنك أكره الكل
لأحبك فقط
وأشهد بعيداً عنك قبح اللواتي ألتقيهن
وجمالك الخالد
أعرف أن هذا الكلام يزيدك غروراً
ويتعبني أكثر
ولكنني أعترف يا حبيبتي
أن كبرياءك الذي كنتِه والذي صغتُه لك
حفظني من نفسي
واستكثر علي ما أنا فيه من حالة لا تشبه
حالة أخرى
غداً أطير في سمائك
وبعد غد تكونين سمائي التي أعشق وأحب
سأنتظر مطرك يهمي في فمي
أنت كحل عيني وبصرهما
تزيني يا حب عمري كما تشائين

فالعابد وقف أمام الأهرامات

سمع معجزتها

قرأ واقعها

فكنتِ الأعظم والأكثر إعجازاً

نعم يا أبا هولي الخاص

إن كانت الكنوز تحت قدمي أبي الهول

فكل كنوز العالم في طهر عينيك ووجهك وبسمتك

يحزّ في ثنايا الروح يا عمري ألا تشاركيني رحلة بحرية

في النيل العظيم، أغط في نوم عميق على صدرك، وتغطين

فوق راسي لنستيقظ على حدود إله الشمس

حورس يغمرنا الدفء والألوهة

الآن فهمت يا حبيبتي معنى أن تلفحي الشمس بدفئك

وقداستك وطهرك، فتتمدد الشمس لأدهن جسدها

وأعالج حروقها الممتعة من أنفاسك...

هل عرفت الآن معنى أن نكون معاً...؟

نعم يا حب عمري

ليس معناه أن نلتصق بجسدين متجاورين

بل أن نتحرك بروح واحدة

بجسد واحد

بآمال واحدة

بهدف واحد

يحدونا الحب ويرعانا الإله...
معناه يا حبيبة عمري أن أتنفس هواءك
وأن تعطري هوائي
أن أنقشك قداسة لكل مكان
وأن تعيريني ريشة ألوانك الفريدة
فأستل شعراتها من أظفارك
لنشكل العالم كما نريد... فقط كما نريد...
كليوباترة
نفرتيتي
سميرأميس
في كل مكان كن ينظرن إليّ بإشفاق
فورق البردي الذي جدن به على الدنيا
كان لتشكيل صورتك التي لا تشبه الصور الأخرى
لكن ورق البردي عاش آلاف السنين
لأنك لم تغمزي بعينيك عليه
ولم يحترق بشرارة الحب التي كنزتها فيك...!
آه لو كنت معي يا حبيبتي
قبل أن أغادر الدنيا أَودّ أن تكوني معي
لنغني معاً شمس الأصيل
ونحن نرقب الشمس تغادر الدنيا على صفحة النيل
إلى يوم آخر بعد أن تركت الدنيا أمانة بين يديك...

ما أروع أن نرقب مياه النيل

فيتزاحم المغنون ليغنوا بين أيدينا

النيل يساعدهم في إيجاد العبارة المناسبة

وعلى أوتار العود

يغنون

يلقون قصائدهم

لتخرج من أفواههم عرائس بحر تتراقص على مياه

النيل الهادئة، من عربة إلى أخرى، ومن شفة

إلى شفة

غناء وطيور وألحان

دنيا نصنعها وحدنا، لتمتع الكون كله...

صباح الخير يا حبيبتي...

أرسلها إليك لعلّ النيل يغير مجراه ليعبر تحت شرفتك

ويوصلها إليك...!

وحين عجز النيل عن حمل ما أحمله من شوق

وعن تغيير مجراه

ابتسم لي ورجاني أن أذوب بك أكثر

أن أحبك أكثر

أن أتماهى مع شطآنك

التي هي أطهر من شطآنه

من بحر إلى محيط

ومن الجزء إلى الكل...

صباح الخير يا عمري

صباح الإطلالات التأملية بارتشاف فنجان قهوة

بهدوء... وتبقى الشفة ملتصقة بالفنجان

لا تتبه الإنسان إلى ما يدور حوله

ويبقى ملتصقاً بالشفة وبالفنجان...

هكذا تحبين قهوتك ساخنة

ارشفيها على حدود عمري

ارشفيها في أعماق بحاري

فلن يكون الإبحار جميلاً إلا بك ومعك

عندها لا يرجو العابد خروجاً من الإبحار الجميل

في أعماق أعماقك

* * *

رسالة إلى امرأة

مدي يديك عالياً، شكلي غيمة من الحب تسيّج حياتنا القصيرة
لا تسمحي لأي شعاع أن يتسلل عبر الأصابع..
احجزي قطرات المطر، فما تنهل منك اسمي..
باعدي الثلج، فما أراه منك أنقى..
مدي يديك ثم ادلفي داخل الكهف الذي صنعته اليدان
زادنا فنجان قهوة، وغذاؤنا ما نكتنزه منذ عشرة آلاف سنة
اليوم، وقبل اليوم، وغداً، وبعد الغد، وفي كل يوم
من حب إلى حب إلى حب
من حب إلى تقديس
«تعيرني ما بأمك مثله»
أنت يا حبيبة عمري صورة طبق الأصل عن أمي
بالأمس جلست معها أرشف قهوتي، حاورتها، حادثتها
ابتسمت لي، كشفت الغطاء عن رأسها
دعت لي كثيراً
طلبت مني أن أحبك أكثر
قرأت الفاتحة، ونثرت ذرات التراب المبللة بالمطر عليها وجئت إليك

كل الأيام لك، من قال: إن للحب يوماً؟!

مدّي يديك حبيبتي، وتزيني بكل الألوان فلون واحد لا يكفيك مهما كان..

الأحمر يتلون بدمي ليقترب من حدودك ويسفح على أعتابك

لأجلك كانت الحياة قبل عشرة آلاف سنة، ولأجلك لا تزال..

إنه لون.. كأيامي حزين ارتديه..

بك يا حبيبتي صار أقدس الألوان وأزهاها.

تحولت إلى قبلتي

إلى سجادة صلاتي

أقدم بين يديك صلواتي لعلي أجد مكاناً يسعني في الأرض

ولن يكون إلا على أعتابك أمي.. أمام اسمك المنقوش بأبهى شكل..

أزرعه في عيوني، وأتقدم صوب المستحيل الذي هو أنت..

فهل أستطيع أن أكون أنا في مثل هذا اليوم الجميل؟

غيمتك تكفي

مدي يديك المقدستين

مديهما

لعلي أحيا من جديد

* * *

كل الأمهات بخير

صباح العيد أيتها الجميلة البارعة، اجتاح حبك كياني كله، كنت موجودة على الدوام في غيابك وحضورك، كنت المميزة على الأيام، ما لجأت إلى صدرك يوماً إلا كنت الفرح الذي أريده، والأمان الذي ألوذ به... ما شعرت ألم فقدانك وأنا ملتصق بصدرك المقدس أنهل من حليبك يوماً، ومن حنانك ما تبقى من العمر بعد أن قررت إيقاف الحليب لإيمانك بأن الحنان القادم من دواخلك أهم من الغذاء.

وكلما حانت ساعة الرحيل المؤقت أبعدت رأسي عن صدرك، وطمرت كل العواطف الثائرة داخلك وداخلي، ومشيت دون أن يشعر أحد ببراكين الحب الجارف الذي تختزنين بين الجوائح..

أمي

كل عام وأنت بخير، أنت وكل الأمهات، فمن عيد إلى عيد إلى عيد، ومن حب إلى حب ومن أم إلى أم.. أجمل ما في العمر أن فيض الأمهات لا ينتهي، والمولى جلّ في علاه يأخذ أماً ليمنح أخرى، ويخصّ الأفواه التي شققها العطش إلى الغذاء الأمومي الذي لا يعدله غذاء..

عاشوا بلا أمهات

وعشت بلا أبناء

تمنيت أبناء غير ما رأيت، وكانت الأمنية مستحيلة.

اختارت الأم المحرومة من رائحة الأمومة الحيوية ابنها، ألصقته بصدرها ولم تسمح له أن يغادر.

وكلما رفع رأسه قالت له: بكّير

وجلس في محرابه يحبها ويحب الأم..!

تفتحت الأزاهير يا أمي وأنت بعيدة

الأزهار البيضاء تسأل عنك

تتلون بألوانك

والكرمة تبدأ الانعقاد لصنع خمرة حبك الخالدة

أمي

يوم لا يكفيك

شهر لا يمنحني فرصة الاحتفال بك

عمر كامل لا يسعفني بمعرفة تفاصيلك

أنت المميزة على الدهر، بشعراتك الشائبة يوماً، وبالحناء الذي يغطيها أياماً

معدودة لتعود شيبتك شاهدة بنقائك..

اكشفي عن شعراتك الشائبة

ارفعي يديك بالدعاء لي في كل وقت

من أم إلى أم

من عيد إلى عيد

كل عام والأمهات بخير..

* * *

كل عام وأنت حبيبتي

كل عام وأنتم بخير، كلمات نرددها كل وقت وحين، نشعر بتقليديتها حيناً، ولكنها في أغلب الأحيان كلمات غير تقليدية، ولا نملك حيالها إلا الابتسام والقبول، بل نرجو أن يقابلنا الآخر بالتعابير الدالة على أمنيات طيبة بمناسبة وبغير مناسبة، وأطرف ما سمعته أن عدداً من العرب يقابلون الآخر كلما التقوه بعبارة (كل سنة وأنت طيب) حتى لو قابلت الآخر مرتين أو ثلاث مرات في اليوم فإن عبارة كل سنة وأنت طيب تلازم هذه اللقاءات.

كل عام وأنتم بخير قد تكون عبارة صادقة، وقد لا تكون، لكنها عبارة لازمة على كل حال، ولابد للإنسان من أن يقولها أو يسمعها، وما أطيب العيش ونحن نعيش فترات الأعياد المتتالية، وللأديان المتعددة، فمن عيد إلى آخر ومن مناسبة إلى أخرى، ولكنها من فرح إلى فرح، فهل نحن نملك القدرة على تحويل أوقاتنا إلى فرح دائم وحب دائم..؟

منذ سنوات ازدادت الأعياد الوافدة مثل عيد الحب وغيره، وقابل الكثيرون هذه المناسبات بالرفض، وقابلها آخرون بالرضا التام، اعتماداً على الإسراف حيناً أو على أنها أعياد غربية غريبة في أحايين أخرى، وكان رأيي منذ ذلك الوقت: ما الضير من الفرح إن كان أصيلاً أو وافداً؟ أما الإسراف والخروج عن العادات والتقاليد فهذا أمر فيه نظر، فحتى الأعياد الدينية المسيحية والإسلامية إن تم الاحتفال بها بطرائق مبالغة تكون خارجة عن الطبيعي والمألوف، فالخروج لا يستدعي وجود أعياد دخيلة، ويمكن أن يتم

بما نعرف ونعيش.. المهم أن نبحث عن الفرح والعيد، فلماذا نقبل من الآخر القتل والدمار والأسلحة، ولا نقبل أن نقتدي بالحب والورد؟

أعرف أن هذا الكلام لا يرضي الكثيرين، والمخالفة كبيرة، ولكنني أرى - إن كان لي حق الرؤية - أن الحب وإن كان كذباً أو مجاملة، والفرح وإن كان ظاهرياً يمثل قوة إنسانية عالية المستوى، وكلما ضيقنا في الأعياد والمناسبات والفرح ارتفعت نسبة الاكتئاب والخوف والتربصْ مع الذات والآخر.

دفعني إلى الحديث المسهب عن الحب ما سمعته من أحد الوعاظ في حديثه عن الكذب، حيث رفض هذا الواعظ الكذب الأبيض والأسود، ونحن معه في رفض الكذب بكل أشكاله، أما أن تمتد سلطة الواعظ ليقول: لا يجوز لأحد أن يقول لزوجته أنت روحي وحياتي، لأنها ليست كذلك، وهو بهذا يكذب على الله!

هل يعقل يا سيدي الواعظ، يا من تتربع موقعاً مهماً في الأوقاف أن ترى جبر خاطر من تحب نوعاً من الكذب؟

لذا أغتنم مناسبة بداية العام الميلادي الجديد لأطالب بالمزيد من الحب، والمزيد من الكذب والمبالغة في الحب، لعلّ كل يوم يتحول في حياتنا إلى عيد نبارك ونصافح ونصفح..!

كفانا تمزقاً واكتئاباً.

ولنبحث عن اليوم الذي لا مناسبة فيه لنحوله إلى مناسبة نحتفل بها مع من نحب ولتتحول بعد ذلك سورية إلى كتلة ملتهبة من الحب والافتداء.

*   *   *

لعلّي أصير شيئاً

الحاضرة على الدوام وإن غابت
الحنونة أبد الدهر وإن قست
المتسامحة وإن ظهرت عليها معالم الغضب والعنف..
في السعادة والحزن ترتجف ذقنها، وتتجمع وجنتاها في مساحة ضيقة لتذرف دمعات هي صك البراءة
للحياة والأمة وما يتعلق بدوام الحياة..
كل الناس ينادونها أم
وما من إنسان لا يلحق بها الياء لتصبح أمي
أمي عند كل واحد منا لا تشبه غيرها
بل لا تشبه الأمهات الأخريات
وأمهات الآخرين لا يشبهن أي أم..!
أي سرّ فيك أيتها الغالية؟
أي روعة تكنزين داخل جسدك الطهور؟
يا تراب الوطن الغالي عند المغترب البعيد
ويا أمل الحياة عند الطفل الغد القادم
ويا رجاء الآخرة إن غبت عن الدنيا..
الحاضرة على الدوام وإن غابت

الغائبة وراء ستار القداسة وإن حضرت..
وحدها في الكون رمز القداسة والطهر
وحدها يسيجها سياج من الورد والألوهة، فلا يخطر ببال أحد أن ينالها..
وحدها تقدر بنظرتها أن تصنع ما لا يصنع
قدّر الإله أن الكون بحاجة إلى من يحفظ توازنه فكانت الأم
تضيع كل الأشياء أمام قدرتها وحنانها وعاطفتها
غيابها وآه من غيابها
إن غابت الأم غامت الصور وتلاشت الأشياء
لكن الأم لا تغيب
هي تحتجب عن الناس، تبتعد
وتبقى تهدهد وليدها وإن شاخ
وتعطيه الأمل وإن قتله القهر
حين يعصف البرد بالأوصال تكونين أنت ولا سواك
صدرك يلغي كل البرد
وحين يقتلني الحر أنفاسك نسائم تعيد الحياة
أمي
يا كل الأمهات
يا روعة النبض
مدي قدميك المقدستين
دعيني ألثم ولا أشبع اللثم
أعانق مسامات القدمين بعينيّ

لعلّ النور يعود إليهما بعد أن بدأ يخبو
اقتربي مني أمي
دعيني أرسمك كما أشتهي
ألونك كما أحب
أما لوّنتني عمري الماضي
أخاف عليك التعب
وأود أن أرسمك وألونك فضاء
لا يطال
اقتربي أكثر
التصقي أكثر
لعلي أصير شيئاً
أي شيء

* * *

العاشق المُطْلَق

تماهى في حبه
ضاع في ثنايا عشقه
كان كل شيء مقدساً لديه
تحول العشق لديه إلى صلاة ووطن
قد لا يعني الوطن لغيره الكثير
وقد لا تكون الصلاة جديرة بالاهتمام لدى غيره
لكنه تفانى حتى الذوبان عشقاً وتعبداً
تمرّغ على أعتاب الوطن حتى تماهى فيه
أحب كل فاصلة
قدّس كل لحظة
وحين أيقن أنه وصل خط النهاية
ولم يعد لديه المزيد من العشق
ولم يعد قادراً على احتمال الذوبان
أطلق العنان لروحه التائقة للمطلق
سمح لذاته أن تتسرب بين حبات التراب
لا يعنيه أن يضيع
فالضياع هناك خلود وبقاء

لا يعنيه أن يبقى الآخرون
أن يتمتعوا بما تبقى
لو لم يفعل هو ما تمتعوا هم..
ملأ حبه في صرر كبيرة
وضع لأحبته مؤونة لا تنتهي لديه
ولا يعنيه ما يفعلون..
واندفع في غمرة العشق النبيل
حين لم يعثروا على جسد له
قالوا:
عطّر التراب بدمه
وقالوا: كعك الفداء تلون بدمه..
قالوا وقالوا..
فوجدوه منتصباً على قمة قاسيون
يرقبهم جيئة وذهاباً
ويرقب دمشق ويحميها
وكان الوحيد المعلوم وإن حمل اسماً مجهولاً
إنه الوطن
إنه العاشق المطلق
تخلى عن ذاته
فخلد الوطن والعشق
وتحول إلى نقطة وحيدة في لفظ الوطن

* * *

آلهة الدهور.. أحبك

ما بين اليوم والعام
ما بين العام والدهر
ما بين وبين تتملكني الحيرة أمامك أيتها العظيمة
أجلس أمامك أقرأ الخطوط في وجهك الجميل والنبيل
أتملى عينيك أكثر، وقبل أن أشيخ ألمح دمعتيك الغاليتين
لا تزالين تخشين الافتقاد
ولا أزال أخشى البقاء
أخشى يا عمري البقاء فقد أغادرك أو تغادرين
ما طعم البقاء بعدك يا امرأتي، يا أمي، يا ابنتي، يا حبيبتي...
أيتها المرأة التي اختصرت كل شيء في ذاتها...
خوف الأم
وغيرة الحبيب
وحرص البخيل
وكره الندّ والمثيل..!
لاتخافي يا امرأتي
لا تخافي يا أمي
فالخطوط المرتسمة على جبينك
وما يحتويه النضج فيك يقربني منك أكثر

يزرعني فيك أكثر
يقربني منك أكثر
بين اليوم والعام ماذا أفعل معك
تسكنين كل لحظاتي
فهل اختصر يومك العام؟
ترى هل استطال يومك حتى أصبح عاماً؟
بين العام والدهر أتشظى يا حبيبتي
فقد اختصرت الدهر في عام توقفت عنده أرقامي
فكان مولدي
وكبر العام في صدرك حتى صرت الدهر
الذي أتعشقه لحظة لحظة
أقدّسه بكل ما فيه
لست امرأة يا حبَّ عمري
فلا تحتاجين إلى يوم...
بل أنت كون من آلهة
وللآلهة كل اللحظات والأيام والسنوات
والدهور
آلهتي
كل عام وأنت محتجبة بعد أن
تعذر الكشف
واللقاء
وبعد أن تماهيتُ وتعملقتِ...

* * *

لصيقاً بالحب أحيا

غمرت الفرحة السماء والأرض ذات لحظة سرمدية بقيت من أول الدهر حتى آخر الدهر، فكان الحب، وكان عيد الحب الذي لا يكتفي بيوم، ولا يختصر بيوم، ولا تكفيه عاطفة دون عاطفة..

أجمل ما في الحب أنه أوحد

فهو لأم واحدة، وأب واحد

وهو لأرض يتمرغ عليها المرء بحثاً عن التفاصيل الصغيرة..

بين حبات رمل الأرض يجد الأساور التي طمرها، والحب الذي غار منه والجواهر التي اكتنزت له ليطوق بها رقبة من يحب..

وهو لحبيبة وحيدة كلما أمعن النظر في الكون تملّى كل الوجوه

وعاد إلى وجه ألفه وأحبه، فغرق في سكينة التفاصيل، وبدأ بحثاً لا يتوقف عن الحب والجمال والألوهة..

اليوم يفتح نوافذنا مشرعة لا لنحب، بل لنحتفل بالحب وبمن نحب

لنقول له كما نقول للأم في عيدها:

لك كل الأيام، لك كل اللحظات الخالدة

ولي الانتظار على عتبات القلب والجسد حتى أحصل على الرضا..

لن أقدم وردة فقد كنت أجمل الورود

ولن أختار جوهرة أو ذهباً، فأنت الأثمن

ولن أختار عطرك، فكل ما في الكون من عطر يتعطر بأنفاسك
لن أحتفل معك، فقد اختصرت كل شيء، ولم يعد بإمكان
محبك وعابدك أن يجد شيئاً
بعيداً عن أرصفتك أبحث عنك
وبعيداً عن تفاصيلك أتشهى التفاصيل
فأنت سورية التي أين منها معشوقات الكون؟!
وأنت دمشق التي فاضت حباً وألقاً وجمالاً..!
وأنت الحب الذي نهلت منه عمري ولن أتوقف..
بعيداً عن حاراتك
بعيداً عن إنسانك
بعيداً عن ألقك
بعيداً تزدادين ألقاً وحباً وكبرياء
لك الحب
وكل عام وأنت الحب الذي لا ينتهي من عيده إلى عيده
ولا تزالين تسكنين العيد والحب وكل الأشياء
التي تقتلني لتحييني بين جوانحك...
كل عام وأنت حبيبتي حتى أعود لعلي أجد الزينات
كل الزينات كما غادرتها أول مرة منذ عشرة آلاف سنة

* * *

طهر القداسة

انتظرا قروناً طويلة حتى ساعة المغيب، لم يستطيعا تحديد وقت المغيب بدقة، فالغيوم الماطرة السوداء تغطي كل شيء، وتوحي بالرطوبة والخصوبة من باطن الأرض وداخل كل منهما، حين وجدا أن الوقت قد حان حسب توقيتهما القلبي الشتوي التفا معاً حتى تحولا إلى شخص واحد، انزرعا على طرف الرصيف، كلما مرّ بهما عاشقان استندا إليهما ظناً منهما أنهما شجرة... لم يتحركا من المكان، بل زرعا الوهم في العاشقين بأنهما شجرة حقيقية، ثم يندفع النسغ في العاشقين اللذين شكرا للشجرة صنيعها، ورحلا بعد أن زرعا قبلة مشتركة على رقبة الشجرة النابضة بالحب والحياة.

دلفا وهما على هذه الهيئة إلى كهف مسحور لا يراه أحد ولا يزوره أحد، وإن اقترب منه شخص في الكوت أحرقه السحر والدفء المنبعث من الداخل، وبقي مسمراً لأنه لا يحمل طهر القداسة الذي يخوله دخول مثل هذا الكهف البعيد عن الرؤية والأحاسيس العادية البشرية... دلفا إلى الكهف، وفي زاوية معتمة من زواياه جلس على ركبتيه وراح يمارس طقوس الطهر التي اشتاقها وحرم منها عشرة آلاف سنة!!!

توضأ بماء السماء

وتطهر بدمع العيون

وأخفى نفسه بكحل الفتون.

وغاب عمره القادم بحثاً عن الدفء المفتقد، وهي تحولت إلى كتلة نارية ملتهبة تحرقه كل لحظة مرات عديدة، وتبتعد عن رأسه لتمنحه فرصة التمتع بالدفء دون الاحتراق، وتمد يديها الحانيتين على رأسه الأشيب وتمرر أصابعها المقدسة على عينيه فتدفع فيهما الكثير من النور المفتقد.

ما إن بدأ بتلاوة قراءاته التي كتبها فيها حتى تحولت إلى ذلك المهر البديع الذي لا يقاوم ولا يقاوَم، وضعت عنها سرجها ولجامها، جالت في أنحاء الكهف المسحور كالرمح البديع الذي لا ينحني، وما إن تلامسه حتى تصبح طرية كالعشب، تتماهى فيه ويتماهى فيها...

الناس مشغولون بما يكفيهم...

الباحثون عن الجاه والمكانة يدبون على الأرض.

الساعون للسيطرة يحرقون الناس، ويصبون جام غضبهم على من يخالفهم.

والمسحورة والمسحور ينطمران بعيداً عن العيون والرقباء، يمارسان العشق الطهور، يكتفيان بوحدة عالمهما وتوحده، ويريان أنهما تجاوزا هذه الحياة ووصلا إلى البرزخ الذي لا يصله سوى الطهورين...

كانا معاً متعانقين

وكل واحد سواهما يدفع الآخر عنه ويحاول اغتياله...

السماء ترعد وتبرق، والمطر ينهمر غزيراً، على قمة قاسيون سجداً معاً، المطر يغسلهما، والماء الطهور منهما ينسكب على أنحاء المدينة فيخلصها من شقاء مليون سنة.

الشام وقاسيون تعانقا، وتماهى الكون في قبلة طويلة طويلة لا تنتهي بعيداً عن قابيل وحقده على أخيه، وجريمته الأولى في التاريخ، وقريباً قريباً من المجدلية وجرحها الذي لم يندمل منذ بدء الخليقة، وتحولا معاً إلى تمثال نوراني في كل حي وشارع وبلدة ومدينة، ولكن لا يراه أحد ولا تلمسه يد.

واو النسوة....

امرأة حصلت على كل ما تريد وتقف لكسب المزيد ضاربة عرض الحائط بما تحتاج النسوة المحرومات، وتنعتهن بأقسى النعوت متجاهلة كل الظروف!

أخرى تبحث عن سبيل العيش الكريم كيفما كان وأينما كان..!

رجل يعتلي المنابر للحديث عن المرأة والثقافة والحرية المستلبة منها، وفي الوقت نفسه يهين امرأته في البيت!

آخر بسيط بسيط يعمل يداً بيد مع امرأته لبناء حياة يُرمى بالاتهامات في كل حين!!

أكثر ما يثير العجب في مجتمعاتنا أن ترى رجلاً يتحدث عن المرأة بإنصاف، وكثيرون يربطون التعامل الحسن بين المرأة والرجل بالمستوى الثقافي، ومع أن هذا الأمر حقيقة واقعة إلا أنه غير ملزم، ففي بلداننا العشرات بل الألوف من حملة الشهادات الذين لا يزالون يتعاملون مع المرأة تعاملاً أقل ما يقال عنه: أنه معيب!!..

المرأة تعنيني كما تعني الجميع بكل صورها، فهي الأم المقدسة مهما ارتكبت من هفوات لا تطال الأمومة، وهي الأخت التي تهرع إليك حاملة ألم العالم في صدرها إن وجدتك متألماً، وهي الزوجة التي تحفظ أسرارك وتحتمل الحماقات الكثيرة، والتي تغفر دون أن تحمل اسم الإله، وهي البنت

الدافئة التي تراك أجمل شخص في الكون، ومن هنا جاء قول العرب «كل فتاة بأبيها معجبة»، وهي الحبيبة التي تضع رأسك في حجرها وأنت مطمئن لأنها تطعن نفسها قبل أن تطعنك.. هذه هي المرأة على وجه العموم، لذلك أقول: إن المرأة إن أحبت أكثر وفاءً من الرجل، ومهما كان نوع المرأة من الأصناف السابقة.

الذي دفع إلى هذا الكلام أن الكثيرين يرون أن إنصاف المرأة من موضات العصر الحديث، وهو عطاء من الرجل! قد يكون هذا صحيحاً، لكن في مجتمع ذكوري في كل الأماكن، في البيت والعمل والطريق والسفر، في مجتمع لا يحترم خصوصية المرأة، ويتطفل عليها بكل الطرق، وأولها التحرش والمضايقة، أو المتابعة والتضييق!! ومن خلال متابعة الحركة الأدبية والمناقشات والندوات والأعمال الدرامية بمختلف صنوفها المسرحية والسينمائية والتلفزيونية نجد التركيز على جانب واحد في العلاقة بين المرأة والرجل، وهو الجانب الجسدي! وهذا الجانب مع أهميته القصوى إلا أنه ليس الوحيد، وقد أفرز لنا اتجاهين مريضين، الاتجاه الأول من الرجال الذين ينظرون إلى المرأة على أنها خصم يحاول انتزاع السعادة منهم، لذلك يزيدون من سطوتهم وعدوانيتهم!

الاتجاه الثاني من النساء اللواتي ينظرن إلى الرجل على أنه العدو في المقام الأول، ويتجه عملهن إلى تهشيم هذا الرجل الرمز وتهميشه! والقلة نجدها بعيداً عن هذين الاتجاهين، تلك الفئة التي ترى أن العلاقة بين الرجل والمرأة تتعدى الجسد، وهناك مجموعة من الأسس التي يجب أن تقوم عليها هذه العلاقة الرابطة.

فكم من امرأة نراها منطلقة متحررة لكنها تعيش في آبار من القهر والحرمان والتسلط!!

وكم من الرجال الذين تعجبنا مناظرهم وسحنا توجوههم، ويمثلون أقصى حدود الطهر والبراءة ينظرون إلى المرأة نظرة استعلاء وتكبر، تنهي المرأة من الداخل، وتنهي الرجل أمامها وتحيله إلى مجرد جسد يتحرك بلا أحاسيس؟!!

إن الأدباء والكتاب وعلماء الاجتماع ارتكبوا أخطاء قاتلة عندما أولوا الظاهر من علاقة المرأة والرجل كل اهتمامهم، والأجدر بهم أن يدخلوا إلى عوالم المرأة والرجل بصورة أعمق لسبر التحولات والتناقضات من كلا الجانبين... ولا يكفي أن نجد رجلاً يتأبط ذراع امرأته في سهرة عامرة لنقول عن هذه العلاقة بأنها مثال يحتذى، ولكن علينا أن نتساءل: هل هذا جزء من البروتوكول المزيف أم إنه حقيقة؟! علينا أن ندعو بأن يكون حقيقة، وإلا كان قول مصطفى صادق الرافعي دليل إدانة لمجتمع كامل:

إن تنقلب لص العفاف لمن تحب فمن أمينه كالقبر غطته الزهور لكنه عَفِنٌ دفينه الأحكام العامة وأحكام القيمة هي التي تقتل حياتنا وتفسد التوجهات النبيلة مهما كانت درجة النبل... وإذا أردنا البدء في الحوار الحقيقي يجب أن نبدأ من ذواتنا سواء أكانت هذه الذوات متبوعة بواو النسوة أو نونها..!

الأمر سيان

* * *

أحلام مبنية للمجهول

تبحث عن أصعب الأمور وتطلبها متعللة بكل أنواع العلل، وأقنع نفسي بصواب ما تطلب وأفعل ما تريده، ثم لا يلبث أن يصبح هذا الأمر جزءاً مني. ومن تفكيري.

بالأمس رأيتها تطلب مني طلباً غريباً تحملني به أوزارها وأوزار العالم أجمع. وكأنني قابيل قاتل أخيه!

تطلب مني أن أبقى طفلاً...

يجب ألا أكبر، وأن أحتفظ بكل رغبات الطفولة الحقة في نظرها!

وكلما لاحظت استغرابي من طلبها كانت تسويغاتها جاهزة:

كذا أفضل... كذا أجمل... كذا أطهر...

لا أريدك أن تكبر، عندما تكبر ستكثر أحلامك، وأنا أخاف من الأحلام، لأنها أكثر شيء عرضة للتبخر...

لا يا غاليتي لا بد أن أكبر، بل أريد أن أكبر، وإن لم يكن من أجل شيء فمن أجل الأحلام... لماذا تريدين حرماني من متعة الأحلام؟!

سأحلم يا حبيبتي، وآه من أحلامي ما أوسعها؟!

أحلم بالمرأة المثال التي تمنح عمرها للحظة عشق وحيدة مع حبيب أوحد، يسجد على أعتابها كما تصلي له على الدوام... عندما أصبح مريضاً تمسي عليلة، وعندما تبتسم لي قبل أن تسلم نفسها للنوم أبادلها الابتسام ولو

كنت أبعد ما أكون عنها؟! ربما أكون في أبعد منطقة في الكون عنها، لكنها تسكن بؤبؤ العين، وتعيش في دمعي الذي لا ينسكب.

أحلم بالوطن الجميل الذي تغطيه الخضرة والجمال، لا يعرف غير الحب والحب فقط، أناسه من صنف لم يُخلق بعد، وأفكاره نقية غاية النقاء، العناق شعاره، والانتماء جامعه، وطن يضاعف عمري نشوة عندما يحبني الآخر لأنني لا أشبهه قولاً وفعلاً، وكذا أحبه لأنه يغنيني ويثريني باختلافه عني...! فالأوطان الجميلة الغنية لا تكون بنصف واحد أو بلون واحد، إنها ملونة متناغمة.

أحلم بسماء أتصالح معها في كل اللحظات، عندما تريد أن ترسل مطرها تستأذنني قبل أن تفعل، لألف نفسي جيداً، وأستعد لاستقبال مطرها على شفتي المنشققتين... وإذا أرادت أن تكون شمسها حارة تخبرني، وتعطيني مفاتيحها لأجلس تحتها مستعداً للاغتسال والتطهر بالدفء المفتقد!! تلك السماء التي تغفر لي أخطائي، وتكون لحافاً يغطيني عن عيون البشر في لحظات لا أريدها أن ترى.

أحلم بذات تختلف عن ذاتي الملوثة، ذات تتصالح مع ذرات كياني المتناثرة في أطراف الأرض الأربعة، لتلمني من جديد، وتصنع مني إنساناً مختلفاً يتنفس هواء نقياً وبعمق، ويحب بصدق مطلق... أريد أن أكبر غاليتي من أجل الأحلام... ألا ترين أن هذه الأحلام تستحق أن يكبر الإنسان لأجلها؟ إنها أحلامي بك ومن أجلك حتى نغير كل شيء.

لا أريد أن أبقى طفلاً، فالأحلام يكونها الطفل...

يكونها ولا يستمتع بها، لأنه لا يعرفها ولا يدرك كنهها

كل الأحلام لديه متشابهة، صفعة والده وكرباج الجلاد متماثلان!! كوني مطمئنة على أحلامي وأحلامك، وعندما أكونها كما أشاء وأحلم بها كما

أشتهي، سأضعها في صرّة صغيرة، وأنبش تراب الأرض الطاهرة، أضعها فيها، أغطيها بالتراب، أسند رأسي وأغفو إغفاءه طويلة طويلة لا أستيقظ بعدها، لأنني على يقين بأن هذه الأحلام ستنتقل جاهزة إلى إنسان الغد الذي قد أكونه، وألتقيك من جديد فأكون كما تريدين ومخالفاً في كل شيء، لكننا نحيا على كل حال.

ابحثي يا غاليتي عن الطهر الذي نصنعه ولا نكونه...

اهتفي للجمال الذي نسبغه على أنفسنا ولا يُوهب لنا...

استقري بالحالة الفضلى التي ننشدها ونعمل لها، وليست التي نوضع فيها...!

فالحياة الممتعة تلك التي تُسند للمعلوم ولا تبنى للمجهول، فالمجهول أقسى مما تتخيلين عندما يكون فاعلاً، لأنه يعرف أن فعله مؤقت!. ولأنه يعرف أن الفاعل الحقيقي سيعود عندما ينتفي ظرف البناء للمجهول... المجهول حبيبتي هجين لا أب له ولا موقع له، كلما رأى أبا اغتاله، وكلما خلا موقع تربع عليه... لا يحرص على أب أو أم أو حبيبة، ولا يعنيه الفعل الذي يمارسه...

احتفظي بكل أشيائك الجميلة لإنسان الغد، كوني معتمدة مع كل البشر، واختاري النداوة معي لأنك ستتحولين بالنداوة إلى ملاك أو أي شيء، لكنه الأهم من كل شيء...

هذا رأسي، وهذه صرتي، وإليك دمي، لكن على ثرى الوطن الذي أتشهاه في كل لحظة.

* * *

سلافة العشق

كل عام والشام بخير

عام جديد يجبرنا على قلب ورقة أخيرة من كومة أوراق لنبدأ كومة جديدة، عام جديد يسعدنا بأننا ما نزال على قيد الحياة سعيدة أم غير سعيدة، وهي سعيدة حتماً، لأن السعادة تنبع منا من أعماقنا إن أردنا، وسعيدة لأننا نتحرك والحركة حياة والسكون موت.

كنت سعيداً مع أيام العام الأخيرة كما مع أولها، فقد انتهى العام دون أن ألوث لوح الفكر، ودون أن أخرج عن حب مزدوج للفرد والمجتمع معاً، انتهى العام وقناعتي راسخة بأن الفرد يتمتع بخصوصية مطلقة هي ذات خصوصية المجتمع، وهو ما منح سورية الكثير من الحصانة والود والاحترام، وفي الأعوام الأخيرة جلست إلى الشام، تناولت كلماتي، سرحت قاسيون أمامها، وجاءني الصوت بعد إلحاح منبعثاً من ضفائر قاسيون، مستنداً إلى جامع بني أمية، ملوناً بقوس قزح فوق بحر لا شواطئ له يعرش في جنبات الشام، فيخرج الصوت مبحوحاً عذباً، يحاول أن يتهدج لكن عذوبته تطغى عليَّ وعلى كل شيء، وأتمنى لو أن الشام تقرأ كل ما في الكون لنستمع إليه بصوتها.

من قاسيون إلى الشيخ محيي الدين شلال من الحزن والفرح

تبرق عيناها، تلوح الدمعات داخل المؤق

أتشهى أن أكون داخل الدمعة لعلّ الطهر يغمرني فأعجــز وأكتفي بما أنا فيه

أتمنى أن أطوّق الشام بسوادها وبياضها بيدي، لكن هل يستطيع مثلي أن يحيط بها؟

ما أروعها عندما تهزّ رأسها... تقرأ بتلعثم وبإشارات تؤكد أنها لا تقصد.. تؤكد.. تقرأ فتأتي غزلية نزارية تدعوك لتسكن داخل الشام أو لتسكنها داخلك

لكنها تؤكد أن الغزلية جاءت عفو الخاطر وغير مقصودة..

ويل العشق... هل أصدق الشام؟

هل يخطر ببال أحد وهو على قمة قاسيون إلا من قلسيون أطلّ يا وطني؟

وهل أصدق أنها جاءت دون قصد؟

حاولت أن أقنع الشام أنني فرد على عتبتها، وقد لا أعني ما أقول..

تركت مقعدها وجلست إلى جواري.. غمرت عيني بغشاوة من الفرح الطفولي.. تمنيت أن أنزرع على كل حصاة من الشام، سوداء، بيضاء، بأي لون كانت.. بحرية كانت... برية كانت... نهرية كانت.. صدفــة أم محارة أي شيء.

لم أدر السبب الذي دفعني إلى الشام لأحاورها.. وأنا الذي كنت أفعل ودونها حجاب كثيف.. لكنها كانت جردة حساب مخيفة.. عرضت على الشام بألوهتها أن أقبل يدها.. ضحكت.. فرحت.. لكنها لم ترفع يدها.. فبقيت على مسافة من اليد والشيخ رسلان والشام.

أحب ما في الشام وأخشى أن أجرح كبرياءها

أخشى أن أسبب لها الألم...

وعدتها قبل أولد أن تكون شامي وشآمي وكل الشامات

وها آنذا أقف أمامها عاجزاً وقد منحتني الكشف الصوفي أن أعرف شيئاً..

تحدثت.. بكت.. ضحكت.. أظهرت.. أخفت

وعلى أعتاب الشام وعدتها وعداً مشروطاً.. وقالت: آمين

كل عام وأنت بخير يا شآمي.. كل عام وأنت الحب والتألق والتورد..

ارفعي حجراً عن آثارك، واسمحي لآثاري أن يقرأ عظمة تتجاوز كل العبارات العلمية

لن يقرأ إلا عبقاً لا ينتهي وألوهة لا يطولها الهرم

* * *

الفهرس

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الصفحة

الطبعة الأولى / ٢٠١٢م
عدد الطبع ١٠٠٠ نسخة

الشمس تشرق غدا

دراسات و مقالات

شام مدّي جدائلك على قاسيون ..

غطي كل شيء في الكون ... ارقبي ربيع العمر ... رافقي اكتمال البدر ...

وامسحي خريف العمر ... ودّعي .. عودي إلى قبة السماء من جديد ...

راحلون وأنت باقية ... ثرثارون وأنت صامتة ... العهر يغطي كل شيء

وأنت طهر لم يكتشف بعد ... نهر طهرك يجري في العروق ...

تأتي معه بعض قطرات بحرية ... لا ملح فيها .. أخذت من عذوبتك ...

البحر فيك يا شام صار عذباً ... الثلج بعيداً عنك ضاع صفاؤه ..

أرضى من العمر بأن أجلس على عتباتك ... عند أطراف قاسيون ..

لأحمي أطراف جدائلك ... لا يراني أحد إلا الله والسماء..

الهيئة العامة السورية للكتاب
وزارة الثقافة

www.syrbook.gov.sy

مطابع وزارة الثقافة - الهيئة العامة السورية للكتاب - ٢٠١٢م

سعر النسخة ٢٣٠ ل.س أو ما يعادلها